فليسبرتو إرناندث

الحصـــــان الشـــــارد

قــصص

ترجمة أحمـد حسـان

إهداء الترجمة

"تكسّرت النِّصَالُ على النِّصَال"

إلى راحلين أعزاء انتزع غيابهم قدرا هائلا من ألفة العالم:

الأرواح السمحة والصحبة الرائقة والأكف الممدودة بالعطاء. إلى

حلمي شلبي

محمد ابراهيم مبروك

خالد السرجاني

وإلى من لازالوا يفيضون بما بقي في الكون من ألفة وموّدة.

تمهيد

فليسبرتو إرناندث (1902/10/20 ـ 1964/1/13): أحد المنسيين العظام للآداب المكتوبة بالإسبانية. يُعدُّ ، مع أوراثيو كيروجا ، ألمع ممثّلي الأدب الفانتازي في الأوروجواي. ويندرج الإثنان بين أبرز أعلام الأدب الفانتازي الذي ظل طوال القرن العشرين ينبثق من المنطقة المحيطة بالريو دى لا پلاتا: خورخى لويس بورخس ، وماثيدونيو فرناندث ، وخوليو كورتاثار ، وأدولفو بيوى كاسارس ، وسيلبينا أوكامبو

عازف بيانو ، ومؤلف موسيقي ، علاوة على "الكاتب الذي لا يُشبه أحداً غيره ، لا من الأوروبيين ولا من الأمريكيين اللاتين." فيما يرى إيتالو كالفينو ، ويضيف: "إنه 'لانظامي' يستعصي على كل تصنيف وكل تأطير لكنه يقدّم نفسَه ككاتبٍ لا تخطئه العين بمجرد فتح الصفحة".

أما خوليو كورتاثار فينسبه إلى سلالة روحية سابقةٍ على سقراط ، مثل الفلاسفة الإيليين ، "لا يبدو أن المعاني لديها تخضع للملكات العقلية من أجل عملية المعرفة ، بل تدخل وتخرج من الأشياء على إيقاع الهواء في الرئتين ، وعبور هذه المعرفة إلى الكلمة ، إلى التواصل ، يجري داخل إطار نفس هذا الإيقاع وبأدنى توسّطٍ ممكن".

هذه الكوكبة أرست أسس الطليعة في الآداب المكتوبة بالإسبانية. وقام كل واحد من أعضائها ، على طريقته ، بشق طرقٍ جديدة لمواجهة ما وصفه كورتاثار بأنه "تلك الواقعية الزائفة التي تتمثل في الاعتقاد بأن كل الأشياء يمكن وصفها وشرحها مثلما أرست نزعة التفاؤل الفلسفي والعلمي للقرن السابع عشر." وأثمرت جهودهم في تحوّل القصة إلى

"قوقعة للغة ، إلى شقيقٍ غامض للشعر." حيث أنه "ما من اختلافٍ جيني بين ذلك النمط من القصص وبين الشعر كما نفهمه بدءاً من بودلير".

اعترف جابرييل جارثيا ماركيز ، أشهر أعلام الواقعية السحرية ، بدينه لإرناندث بقوله أنه لو لم يقرأ قصصه عام1950 ، لما أصبح الكاتب الذي صاره. لأن الكاتب الأوروجوايي علّمه أن أشد الألغاز إلحاحا هي ألغاز الحياة اليومية

فيما يقرر روبرتو بولانيو ، أعدى أعداء الواقعية السحرية ، في "نصائح حول فن كتابة القصص" ، أنه "تجب قراءة كيروجا ، تجب قراءة فليسبرتو إرناندث ، تجب قراءة رولفو ، ومونتيرّوسو ، وجارثيا ماركيز. أي قصّاص لديه بعض التقدير لعمله لن يقرأ أبدا ثيلا ولا أومبرال. بالطبع سيقرأ كورتاثار وبيوى كاسارس ، لكن لن يقرأ بأية حال ثيلا و أومبرال".

أما الناقد الفرنسي جول سوبرفييل ، الذي قدمه للجمهور الفرنسي ، فيقول له في خطاب: "حضرتك تبلغ الأصالة دون أن تسعى إليها بأدنى قدرٍ عن طريق نزوعٍ طبيعي إلى العمق ، لدى حضرتك الحسّ الكامن لما سيصبح كلاسيكيا ذات يوم"

****

بدأ النشر عام1925 بكتيبات صغيرة يساهم في إصدارها أصدقاؤه. وفي1942 ، مع نشر "في زمن كليمنتى كولينج" ، انفتح رافدٌ پروستي في مساره الإبداعي يقوم على استحضار الذكريات وفي نفس الوقت على تحليل وتأمل هذه الذكريات. وقد امتدحها الكاتب الإسباني رامون جومث دى لا سرنا واصفا إرناندث بأنه "عازف السوناتات العظيم للذكريات والدور الريفية". وواصل استحضار الذكريات في العام التالي مع نشر "الحصان الشارد". وبدءا من "لم يضيء أحدٌ المصابيح" ستبدأ الفانتازيا في لعب دورها بوصفها العنصر الأوّلي لبناء السرد. وانطلاقا منها ستجد إبداعاته مكانها على مستوى التوازن بين الذاكرة وبين الفانتازيا. وسوف يبرز هذا التوازن ليشكّل أحد الأعمدة الجمالية للسرد في

"عرائس الأورتنسيا" (1949) ، و"المنزل الغارق" ، و"التمساح" (1962) ، و"أراضي الذاكرة" (1965).

يؤسس إرناندث أدب غرابةٍ فيه ، على نحوٍ متناقض ، تكون الغرابة هي الحالة الإعتيادية. منذ بداية مساره تسيطر على قصصه شعرية السّر ويختلط لديه العجائبي بالفانتازي على أرضية الحلم ، والسوريالية ، وربما الرمزية. يفرض الحلم واللغز مملكتهما داخل مظهر الاعتيادية ، ويضفيان على الأشياء قوةً تفلت من قوانين المنطق إلى حد التغلّب على إرادة البشر الفانين. تنطوي الأشياء على قوةٍ تعمل على تفاعل الهواجس والعُصاب ، التي تنتقل مباشرةً إلى القاريء ، بحيث يتحول اليومي وما ليس له قيمة إلى بوتقةٍ لأوجه قلقٍ تسبب الجنون.

انطلاقا من الانبهار الطفولي بالحياة الصامتة لكل شيء يشكّل وسطه المحيط ، يبثّ أرناندث الحياة في الأشياء المادية الخاملة. يُخرِّب الوظيفة اليومية للأشياء حتى يكشف ، تحت ما هو تافه ، النبضات الخفية التي تُشوِّش توقعات العقل ، وتقوده إلى استكشاف الأرجاء الأشد إظلاما للوعي الباطن.

لكن بث الحياة في الأشياء المادية ينتج عنه تحطيم الحدود بين الذات وبين الموضوع لتحيل الشبكاتُ اللامرئية للأشياء البشرَ إلى أسرى لها ، تراقب كل إيماءاتهم ، وتجسّد استلابهم في العالم المحيط.

ونتيجة لانهيار الحدود بين الأشياء الخاملة والكيانات الحية ، تتفكك أجزاء الجسم وتتصرف ككياناتٍ مستقلة. تتمرد أعضاء الجسم البشري على الذكاء المركزي الذي يحرّكه في عصيانٍ وقح لأوامر المخ. وبالمقابل تتشخّص الأفكار المجرّدة ، مثلما في "أراضي الذاكرة": "أعتقد أن أفكارا تسكن في الجسم كله ، رغم أنها لا تمضي جميعها إلى الرأس وتكتسي بالكلمات ، أعرف أن أفكارا حافية تمضي عبر الجسد".

ودائما ما تكون الشخصية لديه على حافة الحياة: الحياة هنا بمعنى ذلك الجزء من الواقع الذي يناظر ما هو عملي. ذلك الجزء الذي يحتل لدينا بشكلٍ متزايدٍ فضاءً أكبر ـ معنويا وماديا. هذا الجانب العملي يتقدم ويسلب الهواء من ذلك الجانب الذي يهم إرناندث على وجه التحديد: جانب الحلم واللغز. الشخصية التي تروي تتحدث في كل كتاباته ـ باستثناء "عرائس الأورتنسيا" ـ بضمير المتكلم المفرد ، إلاّ أن ما يثير الدهشة هو قدرته على أن يموضع الكائنُ الإنساني نفسَه خارج ذاته ويراقب نفسه ، لا ككائنٍ مُستَلَب ، بل كمراقبٍ لذاته ، من الخارج.

لا يهمه كثيرا تمثيل الواقعي بقدر ما يهمه البحث عن ذلك الجزء من الخيال الذي يناظر ذاتاً ضائعةً في المجتمع ، ضائعةً في معايير لا تفهمها ولا تُقدِّرها وتقف ضدها على الدوام ، لكن ليس انطلاقا من مطلبٍ اجتماعي أو سياسي ، بل انطلاقا من رقة الإغراب. في كتابته ، يمثل فليسبرتو البحث: "أين سأتوقف ؟ ليس في أي مكان. ما أريده بالضبط هو عدم التوقف."

يعبّر عن تنافر الكائن الإنساني ، عن هشاشته ، عن افتقاره للاتساق ، عن تشتُّته ، عن طريق كتابةٍ مشوَّشة ، متشظِّية ، منشطرة إلى ذرات ، تقدم لنا منظوراتٍ قصيرة النظر لكنها ضرورية. نظرات مختلسة ، فقصصه لا تحتمل النظرة الأمامية ، المباشرة ، بل تختبيء ، لأنها رخوة ، مثل الأسرار.

لكنه ، في كل أعماله ، يتأمل في فعل الكتابة. وفي الحقيقة ، فإن كل نصوصه تحيل إلى ذاتها ، وتصيغ كتابةً تتأسس شفراتها في داخلها.

تقيمُ كتاباته ، التي تُعدُ بين الكتابات الأشد أصالةً لعصرنا ، تناغما بين شذراتٍ وتنافراتٍ وزوايا نظرٍ متفاوتة تنسج خيوط سردٍ يعدُّ توليفا موسيقا أكسب صاحبه ، عن جدارة ، لقب "عازف الكلمات."

****

عاش إرناندث حياة شظفٍ وبؤس ، قضي الشطر الأكبر منها يقوم بجولات موسيقية في المناطق الداخلية للأوروجواي والأرجنتين. تزوج خلالها مرتين: مرة من ماريا إيسابيل جيرّا (1925 ـ1935) ، ومرةً من أماليا نييتو (1937). ولم يخرجه من سياق هذه الحياة البائسة سوى حصوله على منحة من الحكومة الفرنسية رتبها له الناقد الفرنسي ـ الأوروجوايي جول سوبرفييل. ذهب إلى باريس في أكتوبر عام1946 وعاد منها عام 1948. وقدمه سوبرفييل ، مع الناقد روجيه كايواه ، وأوليبيريو خيروندو في نادي القلم بالعاصمة الفرنسية في13 ديسمبر عام 1947 .

أثناء الاحتفال ، تقدمت منه حسناء أندلسية سمراء ، هي ماريا لويسا لاس إيراس ، لتعرب له عن إعجابها. كانت عارضةَ أزياءٍ جمهوريةً دافعت عن عمال مناجم الفحم المضربين في أستورياس رغم أنها قريبة أحد جنرالات فرانكو. سرعان ما توثقت علاقتهما وتزوجا في مونتفيديو عام1949. وكهدية زواج ، أهدى إليها قصته "عرائس الأورتنسيا": "إلى ماريا لويسا يوم كفّت عن أن تكون خطيبتي". لم يسعدا وتطلّقا في العام التالي لكنها بقيت في الأوروجواي حتى الستينات.

لم يدر بخلد إرناندث ، أديب السر والرسائل الخاطئة ـ الذي كان غارقا حتى أذنيه في استبطان ذاته المنقسمة إلى 'أنا' تفلت منه ، وجسدٍ يشعر بأنه آخرٌ ويُطلق عليه اسم "عديم الحياء" ، و"شريكٍ" يراقبه ـ أن زوجته الجميلة جاسوسة سوفييتية متحمسة في سياق الحرب الباردة التي اجتاحت العالم إثر انهيار التحالف ضد النازية. لكن المذهل أن القصة تتضمن عناصر غير مألوفة تشير إلى نوعٍ غريبٍ من الحدس. إذ يظهر فيها خادم روسيٌ أبيض له لحية مدببة ، غير مألوف على الإطلاق في الريو دى لا بلاتا. يصنع البطل عرائس تماثل النساء الحقيقيات ، أولاهن تحمل اسم ماريا وتشبه زوجته. يسأل

الخادم عن رأيه في إحداهن فيجيب أنها جميلة جدا ، تشبه جاسوسةً عرفها في الحرب. ويقول عن تلك العرائس أنها تبدو "كائنات منوَّمة مغناطيسياً تؤدي مهام مجهولة أو تُكرِّس نفسها لمخططاتٍ خبيثة". ويصف إحداهن بأن "لها وجهٌ مُلغز: مثلما يناسبها فستانٌ صيفي أو فستان شتوي ، يمكن أيضا أن تُنسّب لها أي فكرة". وفي تعامله مع إحداهن: "بدا له أنه ينتهك شيئًا بالغ الجديّة مثل الموت". كأنه يدرك الأشياء بحواس لا علاقة لها بالعقل.

لم يعرف بالقطع أنها جاسوسة لأنه ساعدها بعد الطلاق على الحصول على الجنسية. وبينما انهمك هو في برامج إذاعية مناهضة للشيوعية تفرغت هي لتوثيق علاقاتها بالوسط الثقافي في البلاد. ولم تتضح حقيقتها وتخرج إلى العلن إلاّ عام1998.

عاد بعدها ليقيم علاقة عاطفية مع ريينا رييس ، دامت من1954 إلى 1958 .

وكانت نهايته جديرة بإحدى قصصه. فقد ازداد وزنه بصورة بالغة الإفراط. وأصيب في عامه الأخير بسرطان الدم. وحين وافته المنية ، تعذر إخراج التابوت من الباب فاضطروا إلى إخراجه من النافذة. وفي غمرة الارتباك لم يوضع شاهدٌ على قبره فضاع أثره ، ولم تبق سوى كتاباته لتشهد على هذه الروح القلقة

****

صدرت أعماله في طبعات أبرزها:

1فلانٌ ما ، خ. رودريجث رييت ، مونتفيديو ،1925.

2كتاب دون غلاف ، مطبعة لا بالابرا ، روتشا ،1929.

3وجه آنا ، مرثيدس ، 1930.

4المسمومة ، فلوريدا ، 1931.

5في زمن كليمنتى كولينج ، جونثالث بانيتزا إخوان ، مونتفيديو ، 1942.

6الحصان الشارد ، جونثالث بانيتزا إخوان ، مونتفيديو ، 1943.

7لم يضيء أحدٌ المصابيح ، سوداميريكانا ، بوينوس آيريس ، 1947.

8عرائس الأورتنسيا ، ملحق العدد رقم8 من مجلة إسكريتورا ، مونتفيديو ، 1949.

9المنزل الغارق ، ألفا ، مونتفيديو ، 1962.

10أراضي الذاكرة ، آركا ، مونتفيديو ، 1965 .

11عرائس الأورتنسيا ، آركا ، مونتفيديو ، 1967.

12الابتكارات الأولى ، آركا ، مونتفيديو ، 1969.

13يوميات عديم الحياء والابتكارات الأخيرة ، آركا ، مونتفيديو ، 1974.

14الأعمال الكاملة ، بيبليوتيكا آياكوتشو ، كاراكاس ، فنزويلا ، 1985.

****

تصدير خوليو كورتاثار لمجموعة "المنزل الغارق"

مخاطراً بإثارة ابتسام كثيرين من نقاد الأدب ، أعتقد أن عمل الأوروجوايى فليسبرتو إرناندث لا يسمح سوى بمقارنته بعمل مبدعٍ آخر يقع على الطرف المضاد من العالم الأمريكى اللاتينى الذى عرفه هو: أعنى خوسيه ليثاما ليما.

ليكن مفهوما أننى أتحدث عن كوامنٍ ، عن تماسّات ، عن تماثلاتٍ يصعُب وصفها. مثل الشاعر وكاتب السرد الكوبى ، ينتمى فليسبرتو إرناندث إلى تلك السلالة الروحية التى وصفتُها ذات مرةٍ بأنها سابقة على سقراط ، والتى بالنسبة لها لا تتدخل العمليات الذهنية إلاّ بوصفها مَفصَلةً وتثبيتاً لنمطٍ آخر من الاتصال بالواقع. على غرار الإيليين فإن ليثاما وفليسبرتو يرتبطان بالأشياء (فكل ما هناك ، على نحوٍ ما ، هو شىءٌ بالنسبة لهما ، الكلمات أو الأثاث أو المشاعر أو الأفكار هى فى آنٍ واحدٍ عينيةٌ وعصيّةٌ على التعبير ، نومٌ ويقظةٌ) بدءاً من حدسٍ لا يمكن إرساؤه فى اللغة إلاّ بفعل الصورة الشعرية ، بفعل اللقاء غير العفوى لماكينة الخياطة والشمسية فوق منضدة التشريح.

على غرار الإيليين ، لا يبدو أن المعانى تخضع للملَكات العقلية من أجل عملية المعرفة ، بل تدخلُ وتخرج من الأشياء على إيقاع الهواء فى الرئتين ، وعبور هذه المعرفة الى الكلمة ، الى التواصل ، يجرى داخل إطار نفس هذا الإيقاع وبأدنى توسُّطٍ ممكن. وانطلاقاً من هذا الاتصال دون قيودٍ ، فإن كل الباقى ـ الوصف ، والسرد ، والنادرة ـ يستفيد بالطبع من العقل ومن الخِطاب ، المُطالبَين بعملٍ ثانوى ليسا معتادَين عليه ؛ على هذا النحو تشهد تقاليدُ الغرب كلَّ فترةٍ انقلابَ سُلّم قِيمِها المعتاد ، ومع ذلك فالنتيجة هى ذاتها تقريبا على الدوام : إذا كان يبدو أن قليلين هم من توصّلوا الى الرسالة البدئية primordial لليثاما ليما فى باراديسو Paradiso ، فقليلون أيضاً هم من فكّوا شفرة اللغز العميق والمتواتر لحكايات فليسبرتو إرناندث.

هنا يتوقف التناظر ، والباقى هى اختلافاتٌ واسعة وبهيجة تُثرى وتفصل بين عمل كاتبى السرد الأمريكيين اللاتينيين هذين. مستوحدا فى وطنه الأوروجواى ، لا يستجيب فليسبرتو للمؤثرات المحسوسة ويحيا حياته كلها كأنه منطوٍ على ذاته ، لا يعير انتباها إلاّ لتساؤلاتٍ داخلية تدفعه الى اللامبالاة والإهمال لما هو يومى.

ليس صدفةً أن تكون الغالبية الساحقة من حكاياته مكتوبةً بضمير المتكلم (لكن عرائس الأورتنسيا Las Hortensias ، الاستثناء الأكبر ، سيبدو أنها تقلِبُ الضمير بنفس القدر لتُحيلَه الى الشخصية المحورية

للقصة فيما يخص الدوافع الأشد غوراً ، والتى ربما كانت الأشد خِزياً ضمن سياق وسطها وعصرها). يكفى الشروع فى قراءة أى واحدٍ من نصوصه حتى يكون فليسبرتو حاضراً ، رجلٌ حزينٌ وفقير يحيا على حفلات موسيقى البيانو فى جولات الأقاليم ، كما عاش هو دوما ، وكما يحكى لنا من أول فقرة. لكننا بالكاد نتعرف عليه مرة أخرى ـ نهارك سعيد ، يا فليسبرتو ، كيف سيكون حالك الآن ، هل سيكون لديك قدرٌ أكبر قليلا من النقود ، هل ستكون غرفُ فنادِقك أقل بشاعة ، هل سيصفّقون لك هذه المرة فى المسارح أو المقاهى ، هل ستحبّك تلك المرأة التى تنظرُ إليها ؟ ـ ففى ذلك التعرّف الذى لم يستغرق سوى فقرات قليلة يكون قد استقر الشيءُ الآخرُ فعلا ، القفزةُ المذهلة الى الشىء الوحيد المهم بالنسبة له : الإغراب ، الدخول فى اتصالٍ لا يمكن التلفّظ به مع ما هو فورى ، أعنى مع كل ذلك الذى نجهله أو نُبعده باستمرار باسم ما يُسمّى العيش.

ذلك الانزلاقُ الطبيعى والمختلس فى آنٍ والذى ، منذ البداية ، يجعل حكايةً رماديةً وشبه عاداتية تنتقل الى مراتب أخرى تنتظرها فيها الآخريةُ المثيرة للدوار ، لا يمكن أن يشعر به ويتتبعه إلاّ قرّاءٌ مستعدّون للتخلى عما هو خطّى ، عن مجرد غرابة سردٍ تحدث فيه أشياءٌ غير مألوفة. إذا كانت قصص فليسبرتو تتميّز بشىء فهو أنها ليست غير مألوفة ، بقدر ما أن بطلها الذى لا مناص منه مُخلصٌ بدوره بطريقة لا مناص منها لرؤيته الخاصة ولا يبذل أدنى جهد لشرحها ، أو لمدّ جسور كلماتٍ تساعد على المشاركة فيها.

دائما ما بدا لى توصيف "الأدب الفانتازى" زائفاً ، وحتى متبجّحاً بعض الشىء فى هذه الأزمنة الأمريكية اللاتينية التى تُطالب فيها قطاعاتٌ متقدّمة من القراء والنقاد بالمزيد والمزيد من الواقعية المقاتلة. وعند إعادة قراءة فليسبرتو وصلتُ الى أقصى نقطةٍ لهذا الرفض لتصنيف "الفانتازى" ، إذ لا يعادله أحدٌ فى حلّ هذا التصنيف الى إثراءٍ لا يُصدّقُ للواقع الكلى ، لا يتضمنُ ما يقبلُ التحققَ فحسب ، بل يسنِدُه فى قلب السر مثلما يسند الفيلُ العالمَ فى نظرية نشأة الكون الهندوسية. ويوم أن تُحقّق أمريكا اللاتينية مصيرَها الثورى ، سيقرأ أى أحدٍ فليسبرتو بالألفة التى يفتقدها اليوم كثيرٌ من القراء ؛ سنكون قد دخلنا عندها فى بعدٍ إنسانى لن يكون بحاجةٍ الى أن يميّز ببلاغاتٍ مصطنعةٍ مناطقَ الاتصال تلك التى تُعلن عند كتّابٍ مثله عن الأرض الحقيقية للإنسان وللحياة.

حين يُطلب من النقد الأدبى ، المُعذّب سراً على الدوام ، أن يُحدّد موقع عملٍ مثل عمل فليسبرتو ، فإنه يميل إلى أن يُخرج من قبعته العالية أرنبَ السوريالية الأبيض الكبير ؛ إنها طريقةٌ لتثبيت الصورة قبل الانتقال الى شىءٍ آخر ، ومن المؤكد فضلا عن ذلك أن الأرنب بالغُ الحيوية ويتمشّى باستمرار فوق بيانو فليسبرتو. تكفى قراءة المنزل الغارق أو عرائس الأورتنسيا Las Hortensias لتطفو على باطن جفوننا لوحات ليونورا كارّينجتونLeonora Carrington ، وريميديوس ڤارو Remedios Varo ، وهانز بيلمر Hans Bellmer ، وبول دلفوPaul Delvaux ، وماجريت Magritte ، ناهيك عن الظلال الحبيبة الأشد بعداً ، نرفال Nerval أو فون أرنيم .Von Arnimلكن هنا أيضا تعمل مناورةُ التفرقة التى كان فليسبرتو أول من سيرفضها. الى متى سيجرى الإصرار على وضع السوريالية فى مجالٍ متميّزٍ بشكل زائف ، فيما يُعدُّ طريقةً لتهميشها فى مواجهة

واقعٍ يُفترضُ أنه أشد تسيُّداً وأهمية ؟ الى متى الجلالُ السوريالى العبثى ، الذى حفزه بريتون من قديم ، وأتباعه بعدها ، ويحفزه دوما نقدٌ معين نهِمٌ للتصنيفات التبسيطية.

من المفيد التذكير بأن فليسبرتو أتى مرة الى باريس ، حيث يُحتمل أنه لم ير أحداً ؛ أما أنا فيروقنى أن أعتقد ، فى انتهاكٍ واضح للتسلسل الزمنى ، أنه لو كانت قد راودته الرغبة فى رؤية أشباهه ، ما كان ليفتش عن كنيسة السوريالية بل عن جارى Jarryوعن ريمون روسيل . Raymond Rousselوكان هذا الأخيرُ ، المبتكرُ العظيم للّوحات الحية ، سيُحب أكثر من أى شخص آخر دُمى عرائس الأورتنسيا Las Hortensias وصِحاف البودينج العائمة لقصة المنزل الغارق ، البديعة مثل الإبتكارات الراقية لمُجترِح مُعجزاته كانتريل.Canterel

بالنسبة للبعض منا ، نحن أناسُ الريو دى لا بلاتا ، لا تهمُ حكايات فليسبرتو بسبب أشكال التعايش تلك التى ما كانت لتثيرَ اهتمامَه كثيراً ، لكن يبدو لى مناسبا ذكرها من أجل من سيقرأونه لأول مرة فى إسبانيا. ما نحبه فى فليسبرتو هو البساطة ، الغياب التام للتكلف الذى شدَّ ما قعَّر أدب عصره. لمّا كان قد أسلَم نفسَه تماما لرؤيةٍ تبعده عن الظرف العادى وتجعله يبلغ ترتيبا آخر للكائنات وللأشياء ، لا يخطر ببال فليسبرتو أبدا أن يتأمل بشأن بلده ، فيما يجرى على المستوى التاريخى ، ويمكن القول أن نظرته تتوقف عند الجدران التى تحيط به ، دون أن يُجهد نفسه لاستقراء خبراته ، للدخول فى بنية مشهدٍ طبيعى أو مجتمع.

ومن ثم ، ودون تناقضٍ كما يمكن أن يتصور البعض ، فإن كلّ واحدةٍ من حكاياته تملك القوة المفزعة لوضع القارىء فى أوروجواى زمنه ، وبالنسبة لى يكفى أن أعيد قراءته كى أحس بأننى مرة أخرى فى المقاهى والفنادق وقرى داخل البلاد حيث يتم تقديم كل شىء كأنما دون رغبة ، مثلما يمكن أن يُقدّم هو حفلات موسيقى البيانو تلك المليئة بالعثة والحسابات غير المدفوعة والبذلات المستأجرة. فهل يمكن أن نطلب المزيد من قصّاصٍ قادرٍ على التوفيق بين اليومى وبين الاستثنائى إلى حد توضيح أنهما يمكن أن يكونا نفس الشىء ؟

الدراما الراهنة للأوروجواى مرسومةٌ سلفاً لدى فليسبرتو مثلما فى عمل خوان كارلوس أونيتى Juan carlos Onetti ، وهو قصّاص آخر يستغنى ظاهريا عن التاريخ. إن أوجُه قصورنا ـ أتحدث عن الأوروجواى والأرجنتين كأنهما بلد واحد ، لأنهما كذلك مهما ثَقُل ذلك على القوميين ـ ، قوتَنا الخفية أو غير المحدودة ، طريقتَنا البطيئة ، والكسولة للوجود فى وجه القدر الكوكبى ، كلَّ جمالٍ وشجن فناءِ منزلٍ فقير أو دور لعبةِ ورقٍ بين أصدقاء ، تظهر فى ذلك النوع من التعاسة الجارفة التى لا تُقهر التى تولّدها حكايات فليسبرتو. بكونه شاهداً دون رغبة ، مُشاهداً متحيزاً ، فإنه يعزف ألحان التانجو لنساءٍ مبتذلات يستبدّ بهن الحنين ، ومثل كل كتابنا العظام ، يشجُبنا دون إلحاح وفى نفس الوقت يُقدم لنا مفتاحاً لنفتح أبواب المستقبل ونخرج الى الهواء الطلق.

(*)يمكن للقاريء مراجعة تقديم ذي طابعٍ شخصي أكثر كتبه خوليو كورتاثار لأعمال فليسبرتو إرناندث في طبعةبيبليوتيكا أياكوتشو الفنزويلية بعنوان:

Carta en mano Propia, in: Felisberto Hernández, Novelas y cuentos. Biblioteca Ayacucho. Selección, notas, cronología y bibliografía, José Pedro Díaz.

تـصديـر إيـتـالـو كـالـفـيـنو
لـلـتـرجـمة الإيـطـالـيـة لـمجـموعة "لـم يُـضـيء أحدٌ الـمـصابـيـح"

إن مغامرات عازف بيانو مُفلِس ، يُبدِّلُ حِسُّ الفكاهة لديه مرارةَ حياةٍ حافلةٍ بالهزائم ، هى الدافع الأول الذي يمنح زخما لحكاياتُ الأوروجوايي فليسبرتو إرناندث (1902 ـ 1964). ما أن يشرع فى حكى التعاسات الصغيرة لوجودٍ ينصرم بين فرق الأوركسترا الصغيرة لمقاهى مونتفيديو وجولات الحفلات الموسيقية فى قرى ريف الريو دى لا بلاتا ، حتى تتزاحم فوق الصفحة القفشاتُ ، والهَلوَسات ، والاستعارات ، التى تكتسب فيها الأشياءُ حياةً كالأشخاص. لكن هذه ليست سوى نقطة انطلاقه. فما يطلق عنانَ فانتازيا فليسبرتو إرناندث هى الدعواتُ غير المتوقّعة التى تفتح لعازف البيانو الخجول أبواب منازل غامضة ، ودورٍ ريفية موحشة تقيم فيها شخصياتٌ ثرية وغريبة الأطوار ، ونساءٌ ممتلئات بالأسرار والعُصاب.

دارٌ ضخمة منعزلة ، البيانو الذى لاغنى عنه ، سيدٌ موسوس ومنحرف بعذوبة ، صبيّةٌ حالمةٌ أو مُسرنَمة ، سيدةٌ عجوز تحتفل بشكلٍ حواذيٍ بمصائبها الغرامية: يمكن القول أن مكوِّنات الحكاية الرومانسية على طريقة هوفمانHoffmann مجتمعةٌ هنا. كذلك لا تغيب الدُّمية التى تشبه تماما وفى كل شيءٍ فتاةً شابة. وأكثر من ذلك ، ففى قصة**عرائس الأورتنسيا** Las Hortensiasثمة إنتاجٌكامل من الدُّمى المنافسة للنساء الحقيقيات (قريبات "زوجة جوجول" حسب لاندولفى Landolfi) يصنعها صانعٌ مُغوٍ ليُغذى فانتازيات جامع تحفٍ غريب الأطوار ، تُطلق عنانَ نوباتِ غيرةٍ زوجية ودراماتٍ عكرة. إلاّ أن أى إحالةٍ محتملة الى خيالٍ إسكندنافى يُبدِّدها على الفور جو هذه الأمسيات التى يجرى فيها تناولُ شاى الماتى ببطء أثناء الجلوس فى الفناء أو يكون المرء فيها فى مقهى ناظراً الى نعّامة أمريكية تمر بين المناضد.

فليسبرتو إرناندث كاتبٌ لا يشبهُ أحداً غيره: لا من الأوروبيين ولا من الأمريكيين اللاتين ، إنه "لا نظامى" يستعصى على كل تصنيف وكل تأطير لكنه يقدِّم نفسه ككاتبٍ لا تخطئه العين بمجرّد فتح الصفحة. وحكاياته الأكثر نموذجيةً هى تلك التى تقوم على أساس إخراجٍ مسرحيٍ معقد ، أو طقسٍ استعراضيٍ يتكشّف عن سرٍّ وسط جو السادة الأرستوقراطيين: فناءٌ مغمورٌ بالماء تطفو فوقه شموعٌ مضاءة ؛ مسرحٌ صغير لدمى ضخمةٍ مثل نساء معروضةٍ فى أوضاعٍ ملغزة ؛ قاعةٌ مظلمة يجب فيها التعرُّف باللمس على الأشياء التى تثير تداعياتٍ من الصور والأفكار. وإذا كانت اللعبة تتمثل فى تخمين الحبكة التى يقدّمها مشهد الدُّمى ، أو فى التعرف على ما هو موضوعٌ فوق منضدة القاعة المظلمة ، فإن ما يهم بالنسبة لمشاعر المشاركين ليست تلك التخمينات البريئة بقدر ما هى الحوادث العارضة ، وصنوف الضوضاء التى تتراكب ، والتوجّسات التى تطفو فى الوعى.

تداعي الأفكار ليس اللعبة الأثيرة لشخصيات فليسبرتوفحسب ، بل إنه الشغف السائد والمعلَن للمؤلف وكذلك الإجراء الذي تأخذ بها هذه الحكايات في التشكل رابطةً دافعا بآخر مثلما في قطعة موسيقية. ويمكن القول أن الخبرات الأشد اعتيادية للحياة اليومية تطلق عنان الرقصات الذهنية الأشد مباغتةً ، بينما لا تشير النزوات والوساوس التي تتطلب تروِّيا وخطوات رقص معقدة إلاّ إلى استحضار أحاسيسٍ أولية منسية. يطارد فليسبرتو على الدوام تشابهاظهَر للحظة في أبعد أركان تلافيف مخه ، صورةً تستشرف تناظُرَ صورةٍ أخرى بعدها بصفحات قليلة ، مقاربةً متنافرة تفيده في التقاط إحساسٍ بالغ الدقة ؛ ومن أجل بلوغهاجميعا يجب أن يخاطر بنفسه فوق معابر ممدودةٍ في الفراغ. ومن التوتر بين خيالٍ بالغ التعيّن ، يعرف دائما ما يريد وبين الكلمة التي تتبعه بالضرورة متحسسة طريقها ، يولد إيحاءٌ يمكن مقارنته بإيحاء لوحات مصوّرٍ "ساذج".

لا نعني بهذا ، أن نقبل دون جدال ، وباعتباره صائبا ، تصنيفا لفليسبرتو ، ربما ليس صحيحا ،على أنه "كاتب يوم أحدٍ" ، علّم نفسه بنفسه وخارج الدائرة. ثمة نزعةٌ سوريالية تخصه ، ونزعة بروستية تخصه ، وتحليل نفسي يخصه ، لابد أنها كانت مع ذلك النقاط المرجعية لبحثه الطويل عن وسائط تعبيرية. (وقد قام بدوره ، مثل كل أديب يحترم نفسه من أدباء الريو دي لا بلاتا ، بإقامته الطيبة في باريس). هذا النمط الخاص لإفساح المجال لتمثيلٍ في قلب التمثيل ، لترتيب ألعاب غريبة في قلب الحكاية يؤسِّس قواعدها في كل مرة ، هو الحل الذي اهتدى إليه ليمنح بنيةً سردية كلاسيكية للآلية الحُلمِية تقريبا لخياله.

وأكثر ما يدهشنا في كتابته هو التعبير عن الحالة الفيزيائية للأشياء والأشخاص. فراشٌ مُشعث ، مثلا: "جعلتني أعمدته المطلية بالنيكل أفكر في شابةٍ مجنونة تُسلِم نفسها لأي شخص." أو شَعرفتاة: :الآن أظهرت كلَّ كتلة الشعر ؛ وفي دوامة من التموجات بان بعض الجلد ، فتذكرت دجاجة شعَّثت الريح ريشها فبان لحمها." وفتي آخر يتأهب لإلقاء قصيدة: "جعل وضعه أفكاري تتأرجح بين اللامتناهي وبين العطس."

تثير الأحاسيسُ أصداءً بصرية تظل تُدوّي في الذهن. "المسرح الذي كنت أقدم فيه حفلاتي الموسيقية كان به أيضا قلة من الناس وكنت قد غزوت الصمت: رأيته يتضخَّم في الغطاء الأسود الضخم للبيانو. كان يروق للصمت أن يستمع إلى الموسيقى ؛ يستمع حتى آخر رنين ثم يظل يفكّر فيما سمعه. كانت آراؤه تتأخر. لكن حين يكون الصمت موضع ثقة ، كان يتدخل في الموسيقى: ينسل بين الأصوات مثل قطٍ بذيله الأسود الطويل فيتركها زاخرة بالنوايا." تتأسس رابطة متبادلة ملغزة بين صورة البيانو وصورة القط الأسود: هي هنا مجرد استعارة ، بينما تتجسد في حكاية أخرى في قفشة تشابلينية تقريبا لقط يعبر خشبة المسرح.

هذا المجلد (أول ترجمة له إلى لغة أخري فيما أعتقد) يقدم تقريبا مجمل حكايات فليسبرتو الناضج (المنشورة فيما بين عامي 1947 و1960) التي استطاع بها أن يفسح لنفسه مكانا بين /غارِسي"القصة الفانتازية" الأمريكية اللاتينية. ويكمل المجلدَ نصٌ بقي غير مكتمل عند موت المؤلف ، **أرض الذاكرة** ، الذي ينتمي إلى جانبٍ آخر من عمله: "أدب الذاكرة" ، إعادة استحضار مونتفيديو الماضية ، ذكريات أولي دروسه في البيانو. بالشكل الذي وصل إلينا به ، الذي ربما لا يزال مخطّطا ، يمنحنا هذا النص على وجه الدقة معنعمل فليسبرتو الذي ينحو إلى تمثيل أشد الحركات السيكولوجية ضآلة عبر ازدواج الأنا: مثلما في الصفحات عن أولي المشاعر الحسية ، أو عن تعلّم الموسيقى ، أو عن زيارةٍ لطبيب الأسنان.

عام1974

Prologo de Italo Calvino a la edición italiana: Nessuno accendeva le lampade, Torino, Einaudi, 1974.

تــوضيـحٌ زائـفٌ لــقـصصى

مُضطرّاً أو خائناً لنفسى لأقولَ كيف أصنعُ قصصى ، سألجأُ الى توضيحاتٍ خارجيةٍ عنها. إنها ليست طبيعيةً تماما ، بمعنى عدمِ تدخّل الوعى. فذلك سيكون مُنفِّراً لى. وليست محكومةً بنظريةٍ فى الوعى. فهذا سيكون مُنفِّراً لى الى أقصى حد. إننى لأفضّلُ القولَ بأن ذلك التدخلُ مُلغِزٌ. ليست لقصصى بنياتٌ منطقية. فرغم المراقبة الدائمةِ والصارمة للوعى ، فإنها بدورها مجهولةٌ بالنسبة لى. فى لحظةٍ بعينها أعتقدُ أن نبتةً ستولدُ فى ركنٍ منى. أشرع فى السهر عليها معتقدا أن شيئًا نادرا قد بزغ فى ذلك الركن ، لكن يمكن أن يكون له مستقبلٌ فنى. سأكون سعيدا لو لم تُخفِق هذه الفكرةُ تماما. ورغم ذلك يجب علىّ الانتظار زمنا غير معلوم: فلست أدرى كيف أجعلُ النبتة تنبت ، ولا كيف أحبّذ ، أو أرعى نموها ؛ أنا فقط أستشعر أو أرغب أن تكون لها أوراقٌ من الشِعر ؛ أو من شيئ يمكن أن يتحوّل الى شِعرٍ إذا نظرت إليها عيون معينة. وعلىّ أن أرعى ألاّ تشغل حيزا كبيرا ، ألاّ تحاول أن تكون جميلةً أو كثيفة ، بل أن تكون النبتةَ المقدّر لها هى ذاتها أن تكونها ، وأن أساعدها على أن تكونها. وفى نفس الوقت ستنمو هى وفقاً لمتأملٍ لن تُبالى إن شاء أن يوحى لها بنوايا وأوجه عظَمة أكثر مما ينبغى. فلو كانت نبتةً تتسيّدُ ذاتها فسوف تمتلك شعرا طبيعيا ، تجهلُه هى ذاتها. يجب أن تكون مثل شخص لا يدرى كم سيحيا ، باحتياجات تخصه ، بكبرياءٍ متحفِّظ ، ساذجٍ بعض الشىء وقد يبدو مرتجلا. لن تعرف هى ذاتُها قوانينَها ، رغم أن لها بشكل عميق قوانينها التى قد لا يبلغها الوعى. لن تعرف درجة ولا طريقة تدخّل الوعى ، لكنها ستفرض إرادتها فى نهاية المطاف. وستُعلّم الوعىَ أن يكون نزيها.

الأمر الأشدُّ يقينا أننى لا أدرى كيف أصنع قصصى ، لأن كل واحدة منها لها حياتها الخاصة والغريبة. لكننى أعرف أيضا أنها تحيا وهى تُصارِع الوعىَ للإفلات من الأغراب الذين يُزكِّيهم.

عام 1955

المسمومة

الى ماريا إيسابيل ج. دى إرناندث

1

فى أحد أحياء ضواحى مدينةٍ كبيرة، لم يكن لدى أحد الأدباء موضوعٌ. حدث له هذا منذ مساء يوم 24 أغسطس ــ ففى الصباح كان قد أنهى قصةً ــ حتى يوم 11 أكتوبر، فى المساء أيضا. صباح يوم 11، حمل له النهار نُذُر الاعتيادية: فمثل الكثير من الأيام كان محبوساً فى منزله وليس لديه رغبة فى الخروج؛ ظل يتمشى فى كل أرجاء منزله الصغير، بخطواتٍ واسعة وأفكارٍ عميقة؛ أراد أن يُهاجِم موضوعا ما، لأن موضوعا واحدا لم يأت صوبه؛ وفى الوقت الذى تَعِبت فيه ساقاه وثقُلتا عليه، شعر بالكرب الممزوج بالتشاؤم؛ لكنه استلقى برهة، وكلما ارتاحت ساقاه، كان الكربُ الممزوج بالتشاؤم ينقشع.

يوم 11 مساءً، حين بلغت الساعة 14:25 وأطل من باب منزله، انتبه الى أن النهارَ مشرقٌ، لكنه يُماثل الكثير من النهارات المشرقة ــ منذ زمنٍ يحدث له نفس الشىء مع بعض النهارات الملبَّدة ــ عندها، مثل المرات العديدة التى أطلّ فيها من باب منزله فى أيام أخرى، توصل الى النتيجة التالية : "إذا أردتُ موضوعا فعلىّ أن أنغمس فى الحياة". فى الساعة 15:12 كانت آخرُ مرةٍ يطلُّ فيها ذلك المساء من باب منزله ويفكرُ أن عليه أن ينغمس فى الحياة : ظهر ثلاثةُ رجالٍ أشاروا له من الشارع أن يقترب؛ وحين اقترب قالوا له أن على بُعد بضع مربعاتٍ سكنية وعند حافة جدول، سمَّمت امرأةٌ نفسَها. كان قد فكر فى عدم الذهاب الى هذا النوع من المشاهد: لأنها تُحدِثُ فيه شيئا، لو جَمع بين كلِّ ما يمكن أن يكتبه عن هذا الشىء، لسماه، ابتذالا ، الخوف. ورغم ذلك، فإنه لما كان، علاوة على عدم امتلاكه لموضوع، قد قرأ قصيدةً دفعته الى استنتاج أن المرء يمكنه أن يقوم برد

فعل وينتصر على ذاته، قرر اغتنام الدعوة التى وجهها له الرجال الثلاثة ومشهد المسمومة.

ما أن شرعوا فى السير حتى أظهر له أحدُ الرجال الثلاثة إعجابا قديما وسرِّيا : كان قد قرأ له أشياء كثيرة؛ وكان الآخران مُحرَجين وتحول الفضول الذى كان لديهم منذ قليل تجاه المسمومة، ليتجه الى الأديب.

كانت تشغلُ ذهنَ الرجال الأربعة فكرةٌ واحدة: لدى ثلاثةٍ منهم، الفضولُ لتعبير سحنة الأديب، ولدى الأديب الانشغالُ بما سيفعله بسحنته. لو استسلم للعفوية، فربما ظلت سحنته غير معبّرةٍ وبلهاء، علاوة على أنه لن يمكنه أن يستسلم لعفويته لأنه يعرف أنهم يراقبونه؛ وربما لن يمكنه أن يكون عفويا حتى مع نفسه، لأنه حتى لو لم يوجد أحد، فسوف يكون هو نفسُه مراقبَ نفسِه، سيكون له توتّر روح المحلّل ومهما كانت قوة المشهد، فسوف تتذبذبُ روحُه بين الانطباع الذى يُحدِثُه وبين الانطباع الذى يودُّ هو الخروج به عن نفسه. ومن ثم وجد أنه لا يستطيع ولا يدرى كيف يندهش وهكذا فعليه أن يبتكر تعبيرا مثيرا للاهتمام. وحتى هذا لم يستطع التفكير فيه بهدوء لأن رفاقه أخذوا يعطونه البيانات التى يعرفونها عن المسمومة وكان عليه الإصغاء اليها والتعليق عليها. لأجل هذا ابتكر تعبيرا وتعليقا اتاح له أن يستسلم للتفكير فى كل ما يروق له، أن يترك أفكاره طليقةً مثل شيءٍ طليق؛ صوَّب وجهَه نحو الأمام، لا لينظر الى ما أمامه، بلَ صوْب ماعرّفه الأدباء بأنه اللامتناهى، المجهول، الى آخره.

وكان التعليق هو الصمت : كان قد أفاده مرات كثيرة فى أشياء كثيرة، وأتاح له الآن ترك أفكاره طليقة مثل شيءٍ طليق.

قص المُعجَب علي الأديب حكاية حب مبتذلة؛ وهذا الصباح، حين وصلت الحكايةُ الى نهايتها، كانت هى قد لفّت زجاجة سيانور فى قطعة ورق، ووضعت فى حقيبتها مسدسا ضخما؛ وحين ارتدت القبعةَ اللباد وخرجت من منزلها كان يمكن للناس أن يظنوا أنها ذاهبةٌ الى مكان، بعيد عن تلك الأنحاء. هنا انتشَت أفكار الأديب جائعةً لهذه التفصيلة، وبدا له بالفعل أنه يصنع قصة ويقول أنها قد مضت الى أبعد مما يفترضه خيالُ الناس : مضت الى ما عرّفه الأدباء بأنه اللامتناهى، المجهول، الى آخره. وفجأة توقفت أفكاره وانتبه الى أن

الرجلين اللذين بقِيا صامتين ظلا وراءهما ببضع خطوات ويتحدثان الآن؛ وهكذا عاودت أفكاره هجومها وتخيّل أنهم، بسيرهم اثنين اثنين، يحملون تابوتا. وانتبه كذلك، بتحليل أناه الخاصة، الى أن هذه الفكرة الأخيرة تزيّن جيدا المشهد الذى سيرونه بعد قليل.

2

مضى الرجال الأربعة عبر ضفة الجدول؛ لكن المسمومة كانت على الجانب الأخرى؛ عندها فكر الأديب: انها على الجانب الآخر من الجدول، ومن الحياة. قال له الرفاق أنهم سيرون جيدا من هذا الجانب، لأن الجدول ضيق، وإذا ذهبوا الى الجانب الآخر، سيكون عليهم أن يدوروا دورة كبيرةً جدا؛ وفكر الأديب: للوصول الى جانب المسمومة، لابد من الدوران دورةً كبيرة جدا وهذه ستكون دورة الحياة، لأنها على جانب الموت.

كان المكانُ زاهى الألوان مثل غيره من الأماكن الزاهية الألوان لا أكثر؛ على مسافة مُربَّعين سكنيين من الحادث، رأى الرجالُ الأربعة بين الأشجار مجموعةً من الأشخاص، فأعدّ الأديب وجهه؛ قطّب ما بين حاجبيه لا أكثر: ظن أن ذلك يكفى ليرى ويفكر بهدوء؛ وعندها، أضفَت هذه الفكرة الأخيرة على وجهه حمَّاما مُثبِّتا. وكلما اقترب، تأرجحت روحُه بين الاحتفاظ بأناه وبين الاستسلام للفضول: بدت خيطا مرنا يتمدد و ينكمش؛ لكن الحمَّام المُثبِّت الذى أعطاه لوجهه كان فعالا؛ فحين أصبحوا أمام موضع المسمومة، احتفظ بكل تعبيرات وجهه.

بمرور لحظة الاحساس غير المحدد، سارع يقول لنفسه: إنها امرأةٌ مسمومة لا أكثر؛ وامتلك شجاعة البدء فى مراقبتها وفى التفكير، دون الاهتمام بنوعٍ من الحشد الغائم والداكن، الذي تشكّل له منذ اللحظة الأولى فيما يسميه الأدباء الآخرون، الروح. لكن بقدر ما كان يلاحظ ويفكر، كان يخرج من المسمومة شيء يُضخِّم له الحشدَ غير المحدد.

كان المشهد أقوى مما يحتمل الأديب؛ كان فى جسد المسمومة أشياءٌ غريبة، ومتناقضة، وتهكمية أيضا: كانت قدماها متقاطعتين، فيهما سكينة شخص استلقى لينام القيلولة وجسدُه يستمتع بنداوةِ العشب وهناء النوم؛ ورغم ذلك، كان جسد المسمومة مقوّسا، وكانت نقاط ارتكازه كعبا والكتفين، وكلّ الصدرالمفرط الاندفاع الى الأمام؛ كانت الرأس مائلة يُذكّر وضعُها بوضع القدمين، لكن الوجه كان مشوَّها جدا وعضلاته مشدودة؛ كانت إحدى ذراعيها، تحيط بالوجه كإطار ووضعها بالغُ الهدوء مثل الرأس والقدمين؛ لكن قبضتها مضمومةٌ بشدة. أما الشيء الأفظع، الاحتجاجُ الأشد يأسا لدى المسمومة، فكان فى الذراع الأخرى، التى لا تقوم بدور إطارٍ للرأس: كانت شديدة التباعد عن الجسم، ومن المرفق حتى الكفّ ظلت متوقفةً مثل مانعة صواعق؛ ولم يكن الكف مضموما على الاطلاق، ومن بين الأصابع المجعدة والمضمومة، يخرج منديلٌ صغير يخفق فى الريح.

قرب الجسد كانت الزجاجة والورقة؛ أما المسدّس فقد أخذته الشرطة: أتت حوالى الساعة 13 وبقى حارسٌ مدنى؛ كانت الساعة قد بلغت 16 ولم يأت القاضى بعد؛ كان الحارس يُخيف من يقتربون أو يلمسون، بينما يمضى من ارتسمت فى ذاكرتهم تفاصيل المسألة وجسد المسمومة. على بعد خطوات من الأديب كانت فتاةٌ قالت، أن حبيب المسمومة جاء منذ قليل ، وبعد أن نظر إليها خفض لها جونلّتها قليلا لأنها كانت مرفوعة جدا، ثم انصرف. كذلك قالت أن أحدا لم يلمس الزجاجة ولا الورقة: عند ذلك فكر فى أن المسمومة قد رأت ذلك على هذا النحو قبل أن تموت، فى أن تفكيرها وتحقّقه، بالزجاجة والورقة، قد بقيا على حالهما مثلما فى اللحظة التى سممت نفسها فيها، وأن تلك الساعات التى نقيسها بعد ذلك، كانت مُتزحزحةً عن موضعها وغريبة، لأنها تنتمى إليها أكثر مما تنتمى إلينا.

فكر أيضا، فى أنها قبل الخروج من منزلها كانت الزجاجةُ ساكنةً فوق منضدة، وأنها قد أخذتها لتحملها معها مثل حيوانٍ أليف؛ وانها ما زالت قريبةً من جسدها، تنظر بثبات، وليست مذنبة فى شيء؛ فهى بكونها مثل حيوانٍ أليف كانت بعيدةً عن غرضها؛ لكنها هي والزجاجة الآن حقيقتان متشابهتان.

3

لبرهةٍ طويلة أراد الأديب أن يفترض لنفسه أنه معتادٌ على مشاهد مماثلة وأراد البدء فى بناء قصته، حتى لا ينتابه ذلك الشيء، الذى لو جمع بين كل ما يمكن أن يكتبه عنه، لسماه، ابتذالا، الخوف؛ كان حاجباه مُفرطا التقطيب، لكن عينيه بقيتا مُفرطتى الاتساع والثبات.

وفجأة انتبه الى أن ساقيه تتحركان وتحملان جسده الى موضع آخر؛ كما أحسّ فوقه بكل النظرات والمسئولية التى أحس بهما غيره من الأدباء حين كانوا يعتقدون أن مصير الإنسانية بين أيديهم. كان قد انتشر حوله خبرُ أنه كاتب، ولابد أن الناس يظنون أنه هو وليس القاضى، ربما يكون أقرب الى لغز هذه الوفاة. وحين أدرك البساطة التى يمضى بها الناس حول جسد المسمومة وتذكّر لحظات ذلك الشيء ــــ الخوف، وجد أنه تمتع بسموٍّ أخلاقى كبير، بسبب الاحترام وذلك الشيء ــــ الخوف الذى شعر به، وأطلق زفرة رضى. وحين رآه رفاقه يتحرك، بدا لهم شيئا من قبيل آلةٍ ضخمة حديثة للتفكير، وأنه تحرك لأنه قد وجد الحل بالفعل؛ لم يدروا عن أى حلٍ يبحثون، ولا حل ماذا؛ لكنهم حدسوا أن حلا لابد قد نتج داخل ذلك الرجل، بوصفه آلة ضخمة حديثة للتفكير؛ ومن هنا استجوبه أحدهم، المُعجَب القديم. تملكته رباطةُ جأشٍ غير متوقعة، وسكونٌ هائل، جعلاه يجيبُ لا ردا بالكلمات، بل بإشارة من يده كى ينتظروا؛ بدا للأديب أن شخصا يلقى قصيدة، وفى هذه الأثناء وقبل أن تنتهى القصيدة، يتوجب عليه أن يُعدّ الحكم عليها أوتقريظها: هنا ستنتهى القصيدة حين يأتى القاضى ويأخذون المسمومة. لكن الأديب سرعان ما امتلك الحكم، التقريظ أو الحل قبل أن يأتى القاضى: سيواصل الصمت : هذا الحل الجديد المماثل للحل قبل رؤية المسمومة، كان قد طرأ على ذهنه عندما تذكر كيف انتصر أدباءُ آخرون بالإجراء البسيط للإصرار: سيصرُّ هو على الصمت؛ وحين يصحبه الرفاق حتى منزله، ربما لن يقول لهم مساء الخير، فقلة الذوق هذه فى تلك اللحظة، ستجعل الفكرة التى تكون لدى الآخرين عنه تكبرُ فى نفوسهم.

وقبل أن يبدأ قصته، أوقفت ذهنَه تفصيلةٌ آخرى : فالفتاة التى كانت شديدة القرب منهم والتى كانت قد أعطتهم بيانات العاشق، والجونلّة، وزجاجة المسمومة، كانت تنظر الآن الى الأديب بتواترٍ مفرط؛ شعر بذلك وحاول أن يتفحّص تلك النظرات خِفيةً؛ لكنه فكر بعدها فى الدور الذى يتولاه: فمهمته كرجل سيكون بين يديه ذات يوم مصير البشرية، تتطلب منه الانتباه للمسمومة، ومن ثم قرّرعدم تفحّص نظرة الفتاه؛ لكن رغم أنه لم ينظر إليها، شعر بأنه مهمومٌ برهةً طويلة قبل أن يشرع فى بناء قصته.

4

التفصيلة الأولى المثيرة للاهتمام التى خطرت على ذهن الأديب، كانت تلك المتعلقة بعمر رفاقه، والمسمومة، وعمره هو: لابد أن لهم هم الخمسة نفس العمر. بالنسبة له كان لذلك أهمية أن يجعله يوحى بأنهم خمسة شبانٍ من طبقةٍ دارامية، يعرضون دراما فى تلك اللحظة. ومن الواضح، أنه سيقول على الفور أن الأمر الأشد تأثيرا هو عدم وجود مثل تلك الطبقة، وأن ذلك الأمر واقعٌ مخيف بالنسبة للبطلة.

التفصيلة الثانية المثيرة للاهتمام طرأت له حين تذكر أنه فى طفولته قد رأى فى مشهد شخوصٍ شمعية، إمرأةً ميتة؛ لكنه الآن سمح لنفسه بالتجاسر الأدبى بالقول بأن الموت، هذه المرة، له حياةٌ خاصة لم تكن فى الموت الشمعى؛ من هنا سيُبرز قيمة الأشياء الطبيعية على تلك الاصطناعية.

حين أصبحت قصة الأديب محشوةً بدرجة معقولة بأشياء جسورة مثل تلك التى ذكرتها، وجد أنه لم تخطر له استعارةٌ مثيرة للاهتمام للذراع التى ظلت متوقفة مثل مانع الصواعق؛ لكن حين هبت نسمةٌ جعلت المنديل يخفق بين الأصابع المجعدة والمضمومة للمسمومة، خطر له التفكير فى أن الذراع كانت صاريا، والمنديل راية الموت. كذلك نشأ لديه السؤال: ما الذي له قيمةٌ أكبر؟ أو ما هو الأكثر أهمية ؟ الصارى أم الراية؟ فى هذه الحالة بدا له الصارى أكثر أهمية من الراية؛ وفكر فى كل الصوارى والرايات، ورأى فى كل

الصوارى قيمة لم يكن قد رآها حتى الآن : رآها تشير الى السماء، و تتمتع صلابتُها بقوةٍ فائقة واحتجاجٍ فائق اليأس مثل ذراع المسمومة. كما بدا له مثيرا للسخرية، أن تُعلق رايةٌ بين الحين والآخر، فى الصوارى، التى تتمتع بشخصية فائقة الضخامة.

وسرعان ما شعر الأديب بالفزع الشديد؛ وما كان باستطاعته تحديد إن كان ذلك الفزع يأتيه من المسمومة أم من أفكاره؛ ومن ثم قرر الانصراف دون انتظار أن يجىء القاضى؛ لكنه حين هم بالمشى، اتخذت قصته مظهرا أكثر قبولا: وجد نفسه فى مواجهة نظرة فتاة البيانات، وتجاسر على التحقق بشكل سافر مما إذا كانت الشابة مهتمة به؛ وفى نفس الوقت فكر فى أصالة وجرأة قصته، إذا نتج عنها أنه عند ذهابه ليرى شابةً ميتة قد وقع فى غرامٍ أخرى حية. لكن هذا لم يحدث، لأنها فى أقل اللحظات توقُّعا، ابتسمت له ابتسامةً ملغزة، لم يستطع أن يقول إن كانت تسخر منه ببساطة، أم أنها بفهمها لافتراضاته الخاطئة كانت ترفضه بتلك الابتسامة.

بعدها، لم ينتبه هو أيضا الى أن قدميه تأخذانه الى منزله، وأن أصدقاءه لم يصحبوه، وأن القصة ظلت مبتورة.

5

لم يكد يصل الى منزله حتى استلقى؛ علاوة على ساقيه المتعبتين والكرب مع التشاؤم، كان يحس بضيقٍ غريب. وانطلاقا من الفراش عبرت نظرتُه الغرفة، والفناء، واصطدمت ببطاقةٍ ذات زجاج داكن؛ عندها بدأ يفكر فى الموت: شعر بالخوف من أنه ولد لأنه يجب أن يموت: كان يفضِّل لو لم يولد. فى البداية فكر فى هذين الحدّين ـــ الميلاد والموت ـــ كأنه لا ينتمى الى الحياة؛ فكر أنه كان من نصيبه حياةٌ فى التوزيع الغامض للأنصبة؛ أن حياته صدفة مثلما أن

اليوم الذى وُلد فيه صدفة وسيكون يوم وفاته صدفة أخرى. ومن ثم، لم يعد يهمه أن يكون قد تشكّل فى داخله شىءٌ إنسانى: فهو شىءٌ إنسانى آخر ضمن الحشد ولم يكن لديه اهتمام حتى بالانتباه الى أنه شىءٌ إنسانى آخر؛ بدا له مثيرا للسخرية أن ينشغل كلٌّ واحدٍ بأى أبوين وُلد وفى أى يوم؛ بدا له غريبا أن يكون لهذا الشىء الإنسانى شروطٌ خاصة للشعور بالرقة تجاه الأبوين اللذين ولد لهما: فماذا يهم ذلك حين يكون لدى المرء مفهومُ أومعنى الحشد ؟ ماذا يهمه أن يكون من نصيبه ذهنٌ بأفكار معينة ؟ كان الأمر مثيرا للسخرية أو دون معنى مثلما كان الأطفال ينشغلون فى البحث عن الاختلاف بين قطع الخبز التى تكون من نصيبهم : سيأكل هو قطعة خبزه وانتهى الأمر.

ودون أن يدرى خرجت نظرته من الطاقة الزجاجية، وحلّقت قليلا، ثم توقفت عند البروز الذى تصنعه القدمان تحت الأغطية: عندها بدأ يتفلسف عن أطراف القدمين. كان جسده فى ذلك الاسترخاء العضلى للراحة؛ وبدا له أن طرفى القدمين بعيدان جدا عنه؛ فكر أن عقله وحده هو الذى يعمل، وأدهشته سيطرته: إذ بمجرد أن يخطر للرأس، تتحرك أطراف الأقدام البالغة البعد، ورغم ذلك، لا يحس هو بسريان الفكرة عبر جسده، بل يبدو له بالأحرى أن الفكرة تقفز من الرأس وتستقر فى القدمين. كانت كل أجزاء جسده أحياءَ مدينةٍ ضخمة تنام الآن؛ كانت عمالا فطّين يستريحون الآن بعد مهمةٍ كبرى ولا يدع لهم العمل والراحة المتواصلان مجالا للتفكير فى أى شىء ذكى؛ وحدها رأسه مستيقظة وتتأمل ذلك كله بحكمة ولا مبالاة.

بعدها، جعلته حكمته ولامبالاته ذاتها يبتسم عند التفكير فى الاستعارات التى أطلقها عن جسده الذى يستريح؛ لم يرد أن يستسلم لأية فانتازيا، لأنه ذلك اليوم شعر بالواقع اللامبالى؛ كانت هاتان الساقان من نصيبه للسير بهما مثلما كان يمكن أن تكون من نصيبه أى ساقين أخريين، وفضلا عن ذلك ــــ فكر وهو يبتسم باحتقار ــــ فقد كان من نصيبه ساقان تتعبان على الفور.

كان يتميّز عن الأدباء الآخرين فى أنهم يجهلون أسرار ومصادفات الحياة والموت، لكنهم يُصرّون على تقصيها؛ لكن، فى المقابل، لم يكن يعنى له شيئا أن يعرف علة تلك الأسرار والمصادفات، إن كان ذلك لن ينجيه من الموت.

إجمالا: لم تكن تهمه الحياة، ولا سرّها السابق أو اللاحق؛ كما لا يهمه معرفة متى يموت ولا سبب موته؛ فلحظة الموت ستكون بالنسبة له كلحظة التقيؤ: لم يكن يروقه أن يتقيأ وفعل كل ما يمكن لتجنبه، لكن حين داهمه أول قيءٍ لم يعد يفكر : كان متوقفا على القيء لا أكثر. كذلك من المؤكد أنه قبل لحظةٍ بالغة الضآلة من أول قيءٍ كان يفكر في أنه سيتقيأ.

كان غارقا في هذه التأملات، حين انتبه بغتة الى أن أطراف قدميه تتحرك قليلا، أن عينيه تنظران اليها منذ برهة ولم يكن هو واعيا بذلك؛ عندها، شعر بنفس الحشد الغائم والداكن غير المحدد الذي تراءى له وهو ينظر الى المسمومة.

بعد ذلك نهض، وشرع يذرعُ كلَّ أنحاء منزله الصغير بخطواتٍ كبيرة وأفكارٍ عميقة.

إلـــســــــا

I

لا أودُّ أن أقول كيفَ هي. فلو قلت أنها شقراء فسوف تتخيلون امرأةً شقراء، لكنها لن تكون هي. وسيحدث نفس الشيء مع الاسم: فلو قلت أنها تُدعى إلسا فسوف تتخيلون كيف يكون اسم إلسا؛ لكن اسم إلسا الذى يخصّها هو اسم إلسا آخر. كذلك لن تستطيعوا حتى تخيّل كيف يكون مشطٌ صغير نسيته هى فى منزلى؛ حتى لو قلت أن له 26 سنّاً، فضلا عن لونه، فحتى لو كنتم قد رأيتم مشطاً آخر يماثله، فلن تستطيعوا تخيّل كيف هو على وجه الدقة، ذلك المشط الذى نسِيَته فى منزلى.

II

أود أن أقول ما يحدث لى. أتدرون ما السبب؟، حسناً، لأرى إن كنتُ بقول ما يحدث لى، أجعله يكفُّ عن الحدوث. لكن لتفهموا جيدا؛ أن شيئا سيئاً يحدث لى، شيئا فظيعاً: سترون. أعرف أننى مهما أجدتُ فى قوله، فسوف يحدث مثلما مع المشط الصغير وما عداه؛ لن تتخيلوا بالضبط، مبلغ سوءِ ما يحدث لى؛ لكن ما يهمنى هو أن أرى إن كان سيكفُّ عن أن يحدث لى ذلك الشيءُ السيءُ الذى ستتخيلونه، وأيضا ذلك الشيءُ السيء الذى يحدث لى فى الواقع.

III

إلسا ليست على وجه الدقة، واحدةً من الفتيات الكثيرات اللائى لا يحبُبننى: فهى لن تعودَ تُحبُّنى خلال وقت قصير، لأنها الآن تحبنى. رأينا بعضنا مراتٍ قليلة جداً؛ وهى الآن بعيدةٌ جداً؛ وحبنا يتغذّى على المراسلة؛ لكننى على يقينٍ، أؤكِّد بصورةٍ قاطعة، أعتقدُ بصورةٍ مطلقة ــ سأوضح بإسهاب لماذا تتملكنى حُمّى التوكيد هذه ــ أعاود توكيد أنها بوضع نمط حياتها فى الحسبان، ستكفُّ قريباً جدا عن حبى، لأنها لن تستطيع تحمّل الحب بالمراسلة. أنا استطيع، أما هى فلا.

IV

يجرى الحديثُ عما لم يعد موجوداً بلا مبالاة، أو ببرود؛ لكننى أتحدّث بألم، لأننى أتحدّث قبل أن يكفَّ عن الوجود وموقناً أنه سيكّفُّ عن الوجود: ولتتذكروا كيف أكدت ذلك.

حين أتوقّعُ شيئاً، أحسّ كأن أحداً ــ سواءً كان اسمه الربُّ، أو القدر، أو ما شئتم ــ سيحاولُ أن يُبيّن لى أن الشىء الذى أتوقّعه لن يأتى أو لن يحدث كما توقّعتُه. ومن ثم، فإننى حين يهمُّنى ألاّ يحدثَ شىءٌ، أشرعُ فى التفكير فى أنه سيحدُث، حتى أسخَر من ذلك الأحد لو أتى هذا الشىءُ أو حدث، حتى أُريه أننى كنت أتوقّعُه؛ وحتى لا يترُكَنى ألوى ذراعه فإنه لا يمنحنى تلك المتعة ويحدثُ الشىءُ؛ لكننى بهذه الطريقةِ أنتصرُ فى النهاية، لأن ما كنت أرغبُ فيه بالضبط هو ألاّ يحدثَ. كذلك يجب أن أقول أن ذلك الأحدَ عادةً ما يدهشنى بأن يترُكنى أسخرُ منه، فأنتصر ظاهريا وأنهزم حميمياً: لكن هذا يحدث فى أقلِّ المرات.

وحتى أكونُ صريحاً، سأقول أننى لا أومن بذلك الأحد، أننا نؤمن بذلك الأحد، وكى نؤمن به نفترضُه بالمقلوب وبالمعدول. لكننا حين نجدُ أنفسنا فى مواجهة ألمٍ كبير، نُعاودُ التفكيرَ بالمقلوب وبالمعدول إن كان سيتأكّدُ أنه موجود. الآن أظنُّ أنه موجودٌ على الأرجح، وأنه على الأرجح لن يترُكنى ألوى ذراعه، وكى يُحنِقَنى سيمنعُ حدوثَ أن تَكُفَّ هى عن حبى، مع التسليم بأننى أؤكدُ أن ذلك سيحدث. وبنفس

الطريقة أخشى أن يترك ذلك الأحدُ نفسَه ينهزِمُ ويحدثُ الأمر مثلما فى أقلِّ المرات: لكن أملى أكبرُ فى الطريقة الأخرى: فى المقلوب أكثر مما فى المعدول. سأظلُ آملُ حين أرى أننى على وشك ألاّ تحبّنى؛ فلدى الآن سببٌ أكبرُ للأمل فى أن تحبّنى بشكلٍ عادى.

حسنا، أودُّ فى النهاية أن أسجّل أننى على يقين، أؤكّدُ بصورةٍ قاطعة، وأؤمن بصورةٍ مطلقة، أن إلسا تختلف عن غيرها من الفتيات، فى أن أياً من الأخريات لا تحبنى، وأنها ستكفُّ قريبا جدا عن حبى.

موبيليات "عصفور الكناريا"

فاجأتنى دعايةُ هذه الموبيليات على حين غِرّة. كنت قد ذهبتُ الى مكانٍ قريب لقضاء شهر إجازة ولم أُرد معرفة ما يجرى فى المدينة. وحين عدتُ كان الجوُّحارا جدا فذهبت تلك الليلة ذاتها الى أحد الشواطىء. عدت الى حجرتى مُبكّرا بعض الشىء وسيِّء المزاج قليلا بسبب ما حدث لى فى الترام. ركبته عند الشاطىء وجاءت جلستى فى مكان يؤدى الى الممر. ولما كان الجو لا يزال حارا جدا، وضعت سترتى على ركبتىّ وذراعاى مكشوفتان للهواء، فقميصى بنصف كم. وكان بين الأشخاص الذين يسيرون فى الممر شخصٌ عاجلنى بقوله :

ــــ بعد إذنك، لوسمحت ...

فأجبت بسرعة :

ــــ تفضّل.

لم أعجز عن فهم ما يجرى فحسب بل تملكنى الخوف. فى تلك اللحظة حدثت أشياء كثيرة. أولها ان هذا السيد لم يكد يفرغُ من استئذانى، وبينما أردُّ عليه، حتى كان يفرُك ذراعى العارى بشىءٍ بارد لم أدرِ لماذا حسبتُه لُعابا. وحين كنت قد انتهيت من قول "تفضل" أحسست بوخزةٍ ورأيت حقنة ضخمة عليها حروف. وفى نفس الوقت قالت إمرأةٌ بدينة فى مقعد آخر :

ـــ أنا بعده.

لا بد أننى حرّكت ذراعى حركةً مفاجئة لأن الرجل ذا الحقنة قال:

ـــ آه! حاسب أن أجرحك ... إهدأ لَحظَــ ...

وسرعان ما سحب الحقنة وسط ابتسام الركاب الآخرين الذين رأوا سحنتى. ثم بدأ يفرُك ذراع المرأة البدينة وهى تنظر مسرورة. رغم ضخامة الحقنة، لم تكن تُخرج سوى دفقةٍ صغيرة بضغطة زنبرك. عندها قرأت الحروف الصفراء الموجودة على طول الأنبوبة: **موبيليات "عصفور الكناريا"**. بعدها خجِلت من السؤال عن حقيقة الأمر وقررت أن أعرف من الصحف فى الغد. لكننى فور نزولى من الترام فكرت: "لا يمكن أن يكون مقويا؛ لابد أن يكون شيئا يترك نتائج واضحة إذا كان الأمر يتعلّق حقا بدعاية". ورغم ذلك لم أدرك جيدا حقيقة الأمر؛ لكننى كنت بالغ التعب وصمّمت على تجاهل الموضوع. على كل حال كنت واثقا أنهم ما كانوا ليسمحوا بتخدير الجمهور بأى مخدر. وقبل أن أنام فكرت أنهم على الأرجح أرادوا إحداث حالةٍ جسمانية من السعادة أو الانشراح. لم أكن قد غرقت فى النومحين سمعتُ فى داخلى غناءَ طائر. لم تكن له صفة شىءٍ نتذكره ولا صوتٍ يأتينا من الخارج. كان غيرَ مألوفٍ مثل مرضٍ جديد؛ لكن كان به أيضا ظِلٌ تهكمى؛ كأن المرض يشعر بالرضا وأخذ يشرع فى الغناء. مرت هذه الأحاسيس بسرعة وظهر على الفور شىءُ أشدّ تحدُّدا: سمعت فى رأسى صوتا مُدوِّيا يقول:

ـــ أهلا، أهلا؛ هنا محطة **"عصفور الكناريا"**. . . أهلا، أهلا، إذاعةٌ خاصة. الأشخاص الذين أصبحوا حسَّاسين لهذا البث. . . الخ، الخ.

استمعتُ الى كل هذا واقفا على قدمىّ، حافيا، بجانب السرير دون أن أتشجع على إضاءة النور؛ كنتُ قد انتفضتُ واقفا وظللت جامدا فى هذا المكان؛ بدا مستحيلا أن يرنَّ هذا داخل رأسى. عاودتُ الانطراح فى الفراش وقررت فى النهاية أن أنتظر. كانوا يُذيعون بيانات بشأن أقساط موبيليات **"عصفور الكناريا"**. وسرعان ما قالوا:

ـــ الفقرة الأولى ستكون إذاعة تانجو ...

يائسا، تغطيتُ بملاءةٍ سميكة؛ وعندها أخذت أسمع كل شيء بوضوحٍ أشد، فالملاءة كانت تخفِّف ضوضاء الشارعلأحسَّ بشكل أفضل بما يدور داخل رأسي. وعلى الفورنزعتُ الملاءة وبدأت أمشي في الغرفة؛ خفَّف عني ذلك قليلا لكن كان لديَّ ما يُشبه العناد الخفي للاستماع وللشكوى منتعاستي. استلقيتُ من جديد وعندما تشبثت بأعمدة السرير عاودت الاستماع الى التانجو بوضوحٍ أكبر.

بعد برهةٍ وجدتُني في الشارع: كنت أفتش عن أشكال ضوضاءٍ أخرى تخفف تلك التي أحس بها في رأسي. فكرت في شراء صحيفة، لمعرفة عنوان الإذاعة وسؤالهم عما يجب أن أفعله لإلغاء تأثير الحقنة. لكن تراما أتى فركبته. بعد لحظات مر الترام على موضعٍ كانت القضبان فيه بحالةٍ سيئة فأراحتني الجلبةُ الصاخبة من تانجو آخر كانوا يعزفونه حينها؛ وسرعان ما نظرتُ داخل الترام فرأيتُ رجلا آخر بحقنةٍ أخرى؛ كان يعطي حقنا لبعض الأطفال الجالسين في مقاعد جانبية. ذهبت إليه وسألته عما يجب أن أفعله لإلغاء تأثير حقنةٍ أعطوني إياها منذ ساعة.نظر إلي مندهشا وقال:

ــــ ألا تُعجبك الإذاعة ؟

ــــ على الإطلاق.

ــــ انتظر بضع لحظات وستبدأ رواية مسلسلة.

ــــ فظيع ــــ أجبته.

واصل إعطاء الحقن وهو يهزُّ رأسه مبتسما. لم أعد أسمع التانجو. الآن عاودوا الحديث عن الموبيليات. وأخيرا قال لي رجل الحقنة:

ــــ يا سيدي، ظهر في كل الصحف الإعلان عن أقراص "**عصفور الكناريا**". إذا لم تكن تعجبك الإذاعة فخذ قرصا منها وسرعان. . .

ــــ لكن كل الصيدليات مغلقةٌ الآن وسوف أُجنّ !

في تلك اللحظة سمعتهم يعلنون:

ــــ والآن نذيعُ قصيدةً بعنوان "مقعدي الوثير الحبيب"، وهي سوناتا مؤلفة خصيصا لموبيليات"**عصفور الكناريا**".

بعدها اقترب مني رجل الحقنة ليُسِرّ إلي وقال:

ــــ سأسوِّي مسألتك بطريقةٍ أخرى. سأتقاضى منك بيسو واحد لأنني أرى فيك رجلا شريفا. وإذا كشفتَني فقدتُ وظيفتي، فالشركة يُناسبها أكثر أن تُباع الأقراص.

استعجلته أن يقول لى السر. ففتح يده وقال:

ــــ هات البيسو.

وأضاف بعد أن أعطيته إياه:

ــــ أعطِ قدميكَ حماما ساخنا جدا.

* * *

القلب الأخضر

قضيتُ اليوم، فى هذه الغرفة، ساعاتٍ سعيدة. لا يهمّ أننى تركت المنضدة مليئة بثقوب الدبابيس. كل ما أحسُّ به أن علىّ تغيير الصحيفة التى تغطيها؛ مضى عليها زمن وهى فى مكانها حتى أننى أصبحت مُتعلّقا بها؛ لونها مائلٌ الى الاخضرار، وحروفُ عناوينها الكبيرة برتقاليةُ اللون وتحمل صورة خمسة توائم.حينكان الأصيل يبلغ نهايته وانطفأت قليلا حرارة القيظ، أتيتُ الى غرفتى مُجهدا من المشى. كنت قد ذهبت لأدفع قسطَ معطفٍ اشتريتُه فى الشتاء. كنت مُحبَطا بعض الشىء من الحياة لكننى انتبهت حتى لا تدهمنى العربات؛ فكرت فى غرفتى وتذكرت الرؤوسَ الصغيرة الصلعاء للتوائم الخمسة كأنها أطراف أصابعٍ خمسة. وحين صرتُ فى غرفتى وذراعاى عاريتان فوق الصحيفة الخضراء ودائرٌة صغيرة من الضوءتسقط فوق الكتب الملونة، فتحت علبةَ أقلامٍ وأخرجت دبّوس رباط العنق. أخذت أديره بين يدّىحتى تعبت أصابعى وأنا أثقبُ الصحيفة شارد الذهن فى عيون التوائم الخمسة.

فى البدء كان هذا الدبُّوس حجرا صغيرا أخضر بَراه البحرُ ليُكسِبه شكل قلب؛ بعدها وضعوه فى مَشبك وأصبح الحجرمُطعَّما بالرصاص فى مُربَّع بحجم سنِّ حصان. فى البداية، بينما أُديره بين أصابعى، كنت أفكر فى أشياء لا علاقة لها به؛ لكنه سرعان ما أخذ يجلبُأمّى، ثم تراما تجرُّه الخيول، وسادةَ زجاجةٍ كبيرة، وتراما كهربائيا، وجدّتى، وسيدةً فرنسية تضعطاقيةً من الورق وتمتلىء على الدوام بريشاتٍ صغيرة منفصلة؛ وابنتها، التى كان اسمها إيفون وكانت تصاب بزُغطَّة قوية كصرخة، وميتاً كان بائع دجاج، وحيّا مشبوها فى إحدى مدن الأرجنتين نمتُ فيه على الأرض ذات شتاء وتغطّيتُ بالصحف، وحيّا آخر أريستوقراطيا فى مدينةٍ أخرى نمتُ فيه مثل أمير وتغطيتُ بملاءاتٍ كثيرة، وأخيرا، نعامة أمريكيةñandú وجرسون مقهى.

كانت كل هذه الذكريات تحيا فى مكانٍ ما من شخصى مثلما فى قريةٍ ضائعة: مكتفيةً بذاتها ولا اتصال لها ببقية العالم. ومنذ سنواتٍ بعيدة لم يُولَد فيها أحدٌ ولم يمُت أحد. كان مؤسِّسوها هم ذكرياتُ الطفولة. وبعدها، على مدى سنوات عديدة، أتى بعض الأغراب: كانوا ذكريات من الأرجنتين. هذا المساء انتابنى الشعورُ بأننى ذهبت لأستريح فى تلك القرية وكأن البؤس قد منحنى إجازة.

طوال سنواتٍ طويلة من طفولتى كنا نحيا عند سفح التل. كان من يصعدون الشارع المؤدى الى منزلى يُميلونأجسادهم الى الأمام ويبدون كأنهم يبحثون عن شىء بين الأحجار؛ وعند الهبوط يُميلون أجسادهم الى الوراء ويبدون فخورين ويتعثرون فى الأحجار. فى المساء كانت خالتى تأخذنى الى بعض قمم التلال القريبة من الحصن. ومن هناك تظهر سفنُ المرفأ، بصوارى كبيرةٍ وصغيرة مثل أشواك السمك. وحين يطلقون فى الحصن طلقة المدفع التى تُعلنغروب الشمس، كنا نبدأ فى الهبوط أناوخالتى.

ذات مساء قالت لى أمى أنها ستأخذنى الى منزل جدّة لى تعيش فى الترسانة وسأرى قطارا كهربائيا؛ لكننى فى ذلك الصباح كنت قد أسأتُ السلوك؛ كانوا قد أرسلونى لأشترى نِشا فى علبة؛ لكننى أحضرته سائبا فوبّخونى؛ وبعد برهة أرسلونى لأشترى عشب الماتى ولما أردته فى علبة، وضعه لى أصحاب المتجر، الذين كانوا أصدقاء للعائلة، فى علبة جوارب؛ لكننى ارتكبت غلطةً أخرى: عُدت الى المنزل ومعى "الفكة" فوبّخونى لأننى لم أدفع؛ وبعد برهة أرسلونى ومعى بيسو لأشترى شِعرية؛ أحضرت الشعرية لكننى لم أشأ أن آخذ الباقى لأن هذا يعنى إحضار الفكة فوبَّخونى؛ انزعجوا فى المنزل لأننى لم أحضر الباقى وأرسلونى لإحضاره؛ وعندها كتب أصحابُ المتجر فى قطعة ورق شيئا هدَّأ روع أمى: كان يقول:"الباقى وسط الشِعرية".

ذلك المساء أرادت كلُّ نساء المنزل أن يضعن لى ياقةً منشّاةً تُركَّبُ فى القميص بأزرارٍ معدنية؛ الوحيدة التى استطاعت ذلك جدّةٌ أخرى ــــ لم تكن هذه تحيا فى الترسانة ولم تكن تضع على صدرها القلبَ الأخضر ـــ؛ كانت أصابعها مُكتنزة وساخنة وحين وضعتها على رقبتى لتركّب لى الياقة قرصَت جلدى؛ اختنقتُ مرتين أو ثلاثا وغالبنى القىء.

حين خرجنا الى الشارع لمعَ حذائى المدهون بالورنيش فى الشمس وأحزننى أن أتعثر فى كل أحجار الطريق؛ كانت أمى تجذبنى من يدى

ونكاد نجرى. لكننى كنت راضيا، وحين لم تكن تجيب على أسئلتى، كنت أجيبُ أنا. وسرعان ما قالت لى:

ـــ إقفل فمك؛ كأنك المجنونُ ذو السبع قرون.

وعلى الفور مررنا بمنزل المجنون. كان منزلا دون طلاءٍ وقديما جداً.فى فتحة نافذةٍ كانت عُلبُ صفيحٍ مربوطة بخيوط وخلفها يصرخ المجنون باستمرار مناديا العابرين. كان ضخما، وبدينا، بقميص مربعات.وأحيانا تأتى المرأة، التى كانت ضئيلةً ونحيلة، لتُسكته؛ لكنه يواصل الصراخ على الفور وسرعان ما تصبح الصرخات مبحوحة.

بعدها عبرنا أمام الجزارة: كنت أُمضى هناك صباحاتٍ كاملة فى انتظار أن يطردونى؛ كان الناس صامتين؛ لكن شحرورا كان يغنى بقوة، نفس اللحن دائما، فمللت جدا.

عند سفح التل كان الشارع الذى يمرُّ منه القطار الذى تجرُّه الخيول؛ فى البداية يُسمعُ البوق ثم جلبة الخيول، والسلاسل، والسوط الطويل حتى يبلغ الحصانَ الأمامى.غُصتُ فى أحد المقعدين الطويلين لأكون فى مواجهة النافذة. بعدها بفترة طويلة كان علىّ أن أسدَّ أنفى لأننا نمرّ بمستودع التبريد القريب من جدول ماء. وأحيانا، حين كان القطار والخيول يُحدثون جلبةً فوق الجسر، كنت أنسى أن أسدّ أنفى فأشمُّ الرائحة على الفور. ذلك المساء ترجَّلنا فى محطة باسو مولينو ودخلت أمى متجر حلوى لتتحادث مع صاحبته. وبعد برهة طويلة، قالت الحلوانية:

ـــ طفلك ينظر الى الكراميل.

[[ومشيرة الى حلوىboyones]] سألتنى:

ـــ أتريد من هذه ؟. . . من هذه الأخرى ؟

قلت لأمى أننى أريد غطاء[البويون].ضحكتا واحضرت لى الحلوانية غطاءً آخر انكسر منذ قليل. لم تُرِد أمى أن أسير به فى الشارع؛ لكن الحلوانية لفَّتهُ، وربطته،ووضعت له عصا لأجُرّه.

حين خرجناكان الليل قد خيّم ورأيت فى وسط الشارع قاعةً مضاءة؛ وبينما تأخذنى أمى إليها كنت أنظر الى زجاجها الملون. قالت لى أنها قطارٌ كهربائى. لكننى لما كنت أراه من الخلف ظللت أعتقدُ أنه قاعة.فى تلك اللحظة رنّ جرس، فأطلقت "القاعة" زفيرا قويا وبدأت تنزلق ببطء إلى الأمام. فى البداية لم تكد تتحرك وكان الأشخاص الذين استطعت رؤيتهم داخلها هادئين مثل دُمى داخل واجهةٍ زجاجية.

لم نصل فى الوقت المناسب وبعد برهة مضت القاعةُ بعيدا وانعطفت بين الأشجار.

كان منزل جدتى فى شارعٍ قريب من الميناء. دخلناه من فناءٍ واسع واضطررنا لعصود الدَرَج. بعدها عبرنا غرفة طعام بها مائدةٌ عليها طبق بونبون. أمرتنى أمى ألاّ أطلب؛ فقلت لجدتى:
ـــ لو أعطيتمونى، سأطلب؛ وإلاّ، فلن أفعل.

وجدت جدتى ذلك ظريفا جدا وفى إحدى المرات وهى تقبِّلنى رأيتُ القلب الأخضر، طلبته منها فلم تعطنى إياه. قبل العشاء تركونى ألعب مع صبيَّة صغيرة إسمها إيفون. كان على رأس أمها طاقية من ورق الصحف وكل وجهها ووشاحها مكسوان بريشات بيضاء صغيرة جدا.

تلك الليلة قبل أن أنام رأيت على الحائط سُلَّما من الأضواء هى انعكاس شيش النافذة. بعدها لم أستيقظ رغم أن الجميع صحوا على جلبة غطاء الحلوى حين انزلق من تحت الوسادة وسقط على الأرض. وفى اليوم التالى، وأنا أتناول القهوة بالحليب، كنت أحس فى كل لحظة صرخةً غريبة قالوا لى أنها زغطّة إيفون؛ وبدا أنها تصنعها بمزاجها. ذلك الصباح دعتنى للذهاب لنرى ميِّتا فى الغرف الداخلية. لم تُرِد الأم أن تتركها تذهب بسبب الزُغُطة. نظرت الى طاقية الأم الورقية وفى ذلك الصباح كان لون الريشات بنفسجيا. وعلى الفور فكرتُ فى الميت. كانت إيفون تقول لأمها:
ـــ ماما، إنه ميتٌ موضعُ ثقة؛ إنه ذلك العجوز الذى كان يبيع الدجاج.

أعطتنى إيفون يدها وجرّتنى؛ كنت خائفا ولم أُفلت يدها. كان الميت وحيدا ومغطى بقماش أبيض. لم تكتف إيفون بإطلاق صرخات الزُغُطة بل أرادت أن تُطفىء كل الشموع التى كانت حول التابوت. على الفور دخلت الأم، وجذبتها من ذراعها وجرّتها وهى تجرى؛ ولما كنت مُتعلِّقا بقوة بيد إيفون، فقد جرّتانى أنا أيضا.

فى ذلك الصباح ذاته أهدتنى جدَّتى القلب الأخضر؛ ومنذ سنوات قليلة، أتت أحداثٌ جديدة لتنضمَّ الى هذه الذكريات.

كنت فى إحدى مدن الأرجنتين حيث كان المكلَّف بترتيب حفلاتى الموسيقية قد ارتكب أخطاء منذ البداية ولم يمكن عملُ شىء فى نهاية الأمر. فى هذه الأثناء أتيح لى الوقت للانحدار عبر كل فئات فنادق وسط المدينة وسقطتُ فى النهاية فى حيٍّ مشبوهبالضواحى، حيث

يستأجرُ أحد الأصدقاء غرفة. كان أبواه قد أرسلا إليه سريرا فتنازل لى عن مرتبة. كان الجو شديد البرودة وأنفقتُ الجزءَ الأكبر من نقودى في شراء صحف قديمة: فرشتُها فوق ملاءة خفيفة وفوقها معطفٌ قديم أقرضنى إياه متعهد حفلاتى. وذات ليلة أيقظتُ صديقى بصرخة وحشية؛ إستيقظت أنا أيضا فوجدتنى أضع وسادةً على الحائط: كنت أحلم بأن فيه ثقبا يظهر منه مبتسما مجنونٌ فوق رأسه طاقية من ورق الصحف. وبعد أن فكرت كثيرا فى ذلك ـــ فلم أرد معاودةَ النوم لخوفى من تكرار الكابوس ـــ تذكرت طاقية أم إيفون.

بعد أيام قليلة كنت أتمشّى حزينا بين أضواء وسط المدينة، وفجأةً قرَّرتُ أن أرهِن القلب الأخضر لأذهب الى السينما. وتلك الليلة، بعد العرض تشجّعتُ على طلب نقودٍ من صديق آخر لى فى بوينوس آيريس؛ كنت مدينا له بالكثيربالفعل، لكننى الآن كنت سأقوم بمخاطرة فقد كان مُرتَّبا لى تقريبا حفلٌ موسيقى فى مدينة مجاورة. تلك الليلة ذاتها عاودت التفكير فى طاقية أم إيفون وقرَّرت أن أرسل إلى أمى أنا لأسألها عما كانت تفعل تلك السيدة بالريش وطاقية ورق الصحف. فربما كانت أمى تعرف. وقلت لها أيضا أننى تذكرت أننى رأيت السيدة تجذب شيئا من جونلتها مما جعلنى أظن أنها تنزع ريش حيوان.

حين أتت النقود أنقذتُ القلبَ الأخضر ومضيتُ الى المدينة المجاورة. هناك مضى كل شىء على ما يرام منذ البداية واستطعت النزول فى فندقٍ مُريح. أعطونى غرفةً بثلاثة أسرة، واحدُ مزدوج واثنان مفردان. أردت غرفةً لى وحدى فقالوا لى أن تلك الغرفة ستكون، بالفعل، لى وحدى ويمكننى اختيار السرير الذى أريده. وفى الليل، وبعد عشاءٍ مُبالغٍ فيه قليلا، اخترتُ السرير المزدوج ووضعت عليه بطاطين كل الأسرَّة الأخرى. كان الأثاث قديما قِدَما داكنا جدا والمرايا غائمةً لا تكاد ترى النور.

فى المساء الذى قدّمت فيه حفلى الموسيقى الأول، أتيح لى الوقت ـــ قبل إغلاق المتاجر ـــ لشراء كتب، وأقلام رصاص ملونة للتخطيط تحت سطورها، ومؤشر جميل جدا سأجد له استخداما فيما بعد. ولم أكد أتعشى وأضع نفسى مع الكتب فى الفراش المزدوج، حتى فكرت فى السينما ولم أستطع مقاومة الإغراء: ارتديت ثيابى من جديد وذهبت لأرى فيلما قديما يتبادل فيه حبيبان قبلات طويلة. كنت سعيدا جدا ولم أرغب فى النوم؛ فذهبت الى مقهى فيه نعامةٌ أمريكية بالغة الوداعة تتجول بين الموائد بخطوات بطيئة. كنت أنظر إليها شارد الذهن وأنا أدير دبوس رباط العنق بين أصابعى حين أتت النعامة مسرعةً نحوى، وخطفت القلب الأخضر بنقرة منقار واحدة وابتلعته.

نظرت عيناى بيأس الى الدبوس وهو يهبط، مثل كتلة داخل جورب، فى عنق النعامة؛ وددت لو أجعله يصعد الى أعلى؛ لكن الجرسون أتى بالقهوة وقال لى:

ــ لا تحمِل همًّا.

ــ لكن، ياسيدى ! إنه تذكارٌ عائلى قديم !

ــ أنصت، يا سيدى ــــ قال الجرسون رافعا يده مثل حارسٍ يوقف سيارة ــــ؛ لقد ابتلعت النعامة أشياء كثيرة وأعادتها جميعا. إطمئن، فغدا أو بعد غد سأسلمك دبوسك وكأن شيئا لم يحدث.

فى اليوم التالى رأيت فى الصحف الموضوعات المكتوبة عن حفلاتى الموسيقية. لكن إحدها كان يحمل فى أعلاه عنوانا يقول: "إقامة عازف البيانو تعتمد على النعامة". وكان المقال مليئا بالدعابات.

ذلك اليوم ذاته تلقيت خطابا من أمى تخبرنى فيه بأن أم إيفون كانت تصنع بجعاً من علب البودرة، وكانت تصنعها بكل الألوان، وأن عمليات الجذب لابد أنها كانت لنزع الريشات من حُزَمها، لأنها كانت تأتى أحيانا محشورة مع بعضها.

فى اليوم التالى أحضر لى جرسون المقهى الدبوس وقال لى:

ــ لقد قلت لك، يا سيدى: النعامة جادةٌ جدا وتُعيد كل شيء.

إذا ذهبتُ مرة أخرى لأستريح فى قرية الذكريات تلك، فربما وجدتُ أن سكانها قد ازدادوا؛ ومن شبه المؤكد أننى سأجد هناك تلك الصحيفة الخضراء والتوائم الخمسة الذينفقأتُ عيونهم بالدبوس.

* * *

المرأة التى تشبهنى

منذ بضعة أصيافٍ بدأت تراودنى فكرةُ أننى كنتُ حصانا. مع حلول الليل كانت تخطر لى هذه الفكرة كأنها تطرأُ على صندرة منزلى. فور أن يستلقى جسدى البشرىُ، تبدأ فى السير ذكراى عن الحصان.

ذات ليلةٍ كنت أسيرُ فى طريقٍ تُرابى وأطأ البقعَ التى تصنعُها ظلالُ الأشجار.على جانبٍ يتبعُنى القمر؛ وفى الجانب المقابل يزحفُ ظلى؛ ويُخفى آثارى، بينما أصعد وأهبط الأكوام. وفى الاتجاه المعاكس أخذت الأشجار تأتى، بجهدٍ كبير، ويتمدد ظلى مع ظلالها.

مضيتُ مُتلفِّعا بلحمى المُنهك تؤلمنى المفاصلُ القريبة من الحوافر. وأحيانا كنت أنسى توافُق يدىَّ مع قدمىَّ الخلفيتين، فأتعثرُ وأكاد أقع.

وسرعان ماشمَمتُ رائحة ماءٍ؛ لكنه ماءٌ عفِن فى بركةٍ قريبة. كانت عيناى أيضا كبركتين على سطحيهما الدامعين والمائلين تنعكسُ فى آنٍ واحد أشياءٌ كبيرة وصغيرة، قريبةٌ وبعيدة. كانت مهمتى الوحيدة أن أتبيَّن الظلالَ السيئة وتهديداتِ الحيوانات والبشر؛ وإذا خفضتُ رأسى حتى الأرض لآكل أوراقَ الكلأ التى تحتمى بجوار الأشجار، كان علىّ أيضا أن أتجنب الأعشاب الضارة.وإذا انغرست فىّ أشواكٌ كان علىّ أنأحرِّك خَطمى حتى تسقط.

فى ساعات الليل الأولى ورغم الجوع، لم أكن أتوقّف قط. وجدتُ فى الحصان شيئا شديدَ الشبَه بما كنتُ قد تركتُه منذ قليلٍ فى الانسان: كسلا هائلا؛ فيه تتمكن الذكرياتُ من العمل كما يروقُ لها. وفضلا عن ذلك، اكتشفتُ أنه كى تسير الذكريات، يجب أن أُرخى لها العنانَ ماشيا. فى تلك الفترة كنت أعملُ مع خبّاز. كان هو من منحنى الأمل فى أننى مازال باستطاعتى أن أكون سعيدا. كان يعصِبُ عينىّ بكيس؛ ويُقيدنى فى ذراعٍ مشبوكٍ بعمود يُحرّك جهازا مثل جهاز السواقى، لكنه يستخدمه لآلةِ العجين. كنت أدورُ ساعاتٍ بكاملها حاملا العمود، الذى يدورُ مثل عقرب الدقائق. وهكذا، دون تعثّر، وعلى ضجيج خطواتى والتروس، كانت تمرُّ ذكرياتى.

كنا نعملُ حتى ساعةٍ متأخِّرة من الليل؛ ثم يعطينى ما آكله ومع الجلَبة التى تُحدثها الذُّرة بين الأسنان تواصل أفكارى انسيابها.

(فى هذه اللحظة، وأنا حصانٌ، أفكرُ فيما حدث لى منذ وقت قصير،حين كنتُ لا أزال رجلا. فذات ليلةٍ لم أستطع فيها النوم لإحساسى بالجوع، تذكرت أن لدىّ فى صوان الملابس علبة حبات نعناع. أكلتها؛ لكنها عند مضغها أحدثت جلبةً مثل الذرة.)

الآن، سرعان ما يجذبُنى الواقع الى إحساسى الراهن كحصان. فلخطواتى رنينٌ عميق؛ يجعل جسرا كبيرا من الخشب يرنّ.

على طرقٍ بالغة الاختلاف عاودتنى دوما نفسُ الذكريات.تجرى فى ذاكرتى صباحَ مساء مثل أنهار بلدٍ ما. أحيانا أتأملها؛ وأحيانا أخرى تَفيض.

فى مراهقتي كنت أكنّ كرها شديدا للأجير الذى يرعانى. كان مراهقا بدوره. كانت الشمس قد غربت حين ضربنى ذلك التعِس على خطمى،
وسرعان ما اشتعلت النار فى دمى وجُنِنت من الغضب. أوقفتُ يدىّ وأسقطتُ الأجيرَ وأنا أعضُّ رأسَه؛ ثم نهشتُ فخذَه ورأى أحدهم كيف تطاير عُرفى حين استدرتُ وأجهزتُ عليه بساقىّ الخلفيتين.
فى اليوم التالى هجر الكثيرون طقسَ السهر على الجثمان ليأتوا لرؤيتى بينما ينتقم رجال عديدون لتلك الميتة. قتلوا فىّ المُهر وتركونى وقد صرتُ حصانا.
بعد وقتٍ قصير قضيتُ ليلةً بالغة الطول؛ كنت أحتفظُ من حياتى السابقة ببعض "المهارات" وتلك الليلة استخدمتُ مهارةَ القفز فوق سياجٍ يؤدى الى طريق؛ استطعتُ ذلك بالكاد وخرجتُ مُحطّما. بدأت أحيا حريةً تعسة. لم يصبح جسدى ثقيلا فحسب بل إن كلّ أجزائه أرادت أن تحيا حياةً مستقلة وألا تبذلَ أىَّ مجهود؛ بدت خَدَما مُعادين لسيّدهم و يقومون بكل شىء رغما عنهم. فحين أكونُ مّمدّدا وأريدُ النهوض، كان علىّ أن أُقنع كلَّ جزءٍ من أجزائى. ودائما ما تشهد اللحظةُ الأخيرة احتجاجاتٍ واعتراضاتٍ غير متوقعة. كان للجوع دأبٌ كبير فى تجميعها؛ لكن أسرع ما يجعلها تتّفق كان الخوفُ من الاضطهاد. حين كان مالكٌ سيىء يضرب أحد الأجزاء كانت جميعها تتضامن وتُحاول تجنّب المزيد من الأذى للاعضاء السيئة الحظ؛فضلا عن أيًّا منها لم تكن فى مأمن. كنت أحاول اختيار مالكين ذوى سياجات واطئة؛ وبعد الضربةِ الأولى أمضى ويبدأ الجوعُ والاضطهاد.
ذات مرةٍ كان من نصيبى مالكٌ مفرط القسوة.فى البداية كان يضربُنى فور أن أحمله فوق ظهرى ونمرُّ على منزل خطيبته. بعدها بدأ يضع حمولةَ العربة الى الوراء أكثر مما ينبغى؛ كانت ترفعُنى فى الهواء فلا أستطيعُ الارتكاز لأبذل طاقتى؛ أما هو فكان، غاضبا، يضربنى على بطنى، وعلى ساقىّ، وعلى رأسى. مضيتُ ذات مساء؛ لكن توجَّب علىّ الركضُ طويلا قبل أن أتمكن من الاحتماء بالليل. مررتُ عبر ضفة قريةٍ وتوقّفتُ لحظةً قرب كوخ؛ كان ثمة نارٌ موقدة ومن خلال الدخان ولهيبٍصغيرٍ متأرجح رأيتُ فى الداخل رجلا على رأسه قبعة. كان الليل قد خيّم؛ لكننى تابعتُ سيرى.
فور أن شرعتُ فى السير من جديد شعرتُ بأننى أكثر خفة. خطرت لى فكرة أن بعض أجزاء جسدى قد تخلّفت أو أنها تمضى شاردةً فى الليل. فحاولت إسراع خطوى.
كان ثمة بضع أشجار نائية بين قممها أضواءٌ متحركة. وعلى الفور أدركتُ أن وميضا يلتمع عند طرف الطريق. كنت جائعا؛ لكننى قررت ألاّ آكل حتى أصل الى ضفة ذلك الوميض. لابد أنها قرية. أخذت أقطعُ الطريقَ ببطءٍ متزايد ولم يكن الوميض عند طرف الطريق يقتربُ أبدا. وشيئا فشيئا أخذت أُدرك أنى لم يهجرنى أىُّ جزءٍ من أجزائى.

أخذت تلحِقُ بى جزءا جزءا؛ وتلك التى لم تكن تحسّ بالجوع كانت تحسّ بالتعب؛ لكن وصلت أولا تلك التى تتألم. ولم أعرف كيف أخدعها؛ فرّجتُها على ذكرى المالك لحظة أن أنزلَ السرج عنها؛ وأخذ ظلّهُ القصيرُ البائس يتحرك ببطء حول جسدى كله. كان هذا الرجل هو من يجب أن أقتله حين كنت مُهرا، حين لم تكن أجزائى منقسمة، حين كنتُ أنا، وغضبى، وإرادتى شيئا واحدا.

بدأت آكل بعض الكلأ حول المنازل الأولى. كان من السهل اكتشافى لأن بجلدى بقعٌ كبيرة بيضاء وسوداء؛ لكن الليل قد تقدّم الآن ولم يكن أحدٌ مستيقظا. كل لحظةٍ كنت أزفِر فأثيرُ الغبار؛ لم أكن أراه، لكنه يصل الى عينىّ. دخلت شارعا صاعدا فيه بوابةٌ ضخمة. وما أن عبرت البوابة حتى رأيت بُقعا بيضاء تتحرك فى الظلمة. كانت مرايل أطفال. أفزعتنى فصعدت درجا ذى سلالم قليلة. عندها أفزعتنى مرايلُ أخرى أعلاها. رنّت حوافرى فوق أرضيةٍ خشبية وسرعان ما ظهرتُ فى قاعةٍ مُضاءة تُطلّ على جمهور. حدث انفجارٌ من الصيحات والضحكات. خرج الأطفال الذين كانوا فى القاعة مرتدين ثيابا طويلة جريا؛ ومن الجمهورالذى يُصِم الآذان، الذى كان بينه كذلك الكثير من الأطفال، خرجت أصواتٌ تقول: "حصان، حصان ..." وصاح طفلٌ كانت أذناه كأنهما مثنيتين ويرتدى قبعةً ضخمة قائلا:"إنه الحصان التوبياسى[1] لآل ميندث".وفى النهايةظهرت، على المسرح، المُعلّمة. كانت تضحك بدورها؛ لكنها طلبت الصمت، قائلة أنه بقى القليلُ على نهاية المسرحية وأخذت تشرح كيف ستنتهى. لكنها قوطِعت من جديد. كنت بالغَ التعب، فاستلقيت على السجادة وعاود الجمهورُ التصفيق لى بجنون. اعتُبر العرضُ منتهيا وصعد البعضُ الى خشبة المسرح. أفلتت طفلةٌ فى حوالى الثالثة من أمها، وأتت نحوى ووضعت يدها، المنبسطة كنجمةٍ صغيرة، على ظهرى المبلل بالعرق. وحين حملتها الأم، رفعت هى يدها الصغيرة المبسوطة وقالت: " ماما، الحصان مُبتلّ".

قال سيدٌ مُتشكّكا، وهو يُقرّب سبابته من المعلمة كأنه سيضغط جرسا: لن تنكرى حضرتك أنك قد أعددت مفاجأة الحصان وأنه دخل قبلما كنت تظنين. الخيول من الصعب جدا تعليمها.كان لدىّ واحد ..."رفع الطفل ذو الأذنين المثنيتين شفتِى العليا وقال ناظرا الى أسنانى: "هذا الحصان عجوز". تركتهم المعلمة يعتقدون أنها أعدّت مفاجأة الحصان. جاءت لتحيتها إحدى صديقات الطفولة.تذكرت الصديقةُ خلافا دبّ بينهما وهما ذاهبتان الى المدرسة؛ وتذكرت المعلمة بدورها أن الصديقة قالت لها فى تلك المناسبة أن لها وجه حصان. نظرتُ مندهشا، فالمعلمة كانت تُشبهُنى. لكن فى كل الأحوال كان ذلكقلة احترام تجاه الكائنات المتواضعة. ما كان يجبُ أن تقول المعلمةُ ذلك فى حضورى.

عندما أخذ النجاحُ والأصداء ينطفئآن، ظهر شابٌ فى ممر الصالة، وقاطع المعلمة ــ التى كانت تتحدث مع صديقة الطفولة ومع الرجل الذى يحرّك سبابته كأنه سيضغط جرسا ــ صارخا فيها:

ــ توماسا، يقول دون سانتياجو أنه سيكون من الأنسب لو ذهبنا لنتحدث فى محل الحلوى، فهنا نستهلك الكثير من الضوء.

ــ والحصان؟

ــ لكن، يا عزيزتى، لن تظلّى معه هنا الليل بطوله.

ــ الآن سيأتى أليخاندرو بحبلٍ لنأخذه الى المنزل.

صعد الشابُ الى خشبة المسرح، وواصل الحديث مع الثلاثة والعمل ضدّى.

ــ بيدو لى أن توماسا تُفرط فى تعريض نفسها للنقد بأخذها هذا الحصان الى منزلها. وبالفعل كانت نساء عائلة ثوبيريّا تقلن أن امرأةً وحيدة فى منزلها، مع حصان لاتفكرُ فى استخدامه فى شيء، هو أمرٌ بلا معنى؛ وأمى أيضا تقول أن هذا الحصان سيجلب عليها الكثير من المشكلات.

لكن توماسا قالت:

ــ أولاً أنا لستُ وحدى فى منزلى لأن كانديلاريا تُساعدنى بعض الشيء. وثانيا، يمكننى أن أشترى عربة صغيرة، إذا وافقت أولئك العوانس.

ثم دخل أليخاندرو بالحبل؛ كان هوالصبىُ ذو الأذنين المثنيتين. ربط الحبل في عنقي وحين أرادوا جعلي أنهض لم استطع الحركة. قال الرجل ذو السبابة:

ــ هذا الحيوان سيقانُه معطوبة، سيكون عليهم عمل فصدٍ له.

فزعتُ بشدة،بذلت جهدا هائلا وتمكنتُ من الوقوف. سرتُ كأننى حصانٌ خشبى؛ جعلونى أخرج من السلم الخلفى وحين صرنا فى الفناء جعلنى أليخاندرو حصانا شبه وحشى، إذ امتطانى وبدأ يضربنى بكعبيه وبطرف الحبل. دُرتُ حول المسرح بعناء لا يُصدّق؛ لكن ما أن رأتنا المعلمة حتى جعلت أليخاندرو يترجل.

بينما نعبرُ القرية ورغم التعب ورتابة خطواتى، لم أستطع النوم. كنت مُضطرا، مثل أرغن مكسور نغمُه نشاز، لأن أكرِّر دوما نفس برنامج أوجاعى. جعلنى الألم أوجّه اهتمامى الى كلِّ واحد من أجزاء جسدى، بقدر ما أخذت تدخل فى حركة الخطوات. وبين حينٍ وآخر، وخارج هذا الإيقاع، تنتابنى قشعريرةٌ فى بطنى؛ لكن أحيانا أخرى كانت تُعاودنى، مثل نسيمٍ مبارك، فكرة ما سيحدث فيما بعد، حين أرتاح؛ فسوف يكون لدى زادٌ جديد من الأشياء لأتذكرها.

كان متجر الحلوى أقرب الى المقهى؛ فيه مناضدُ بلياردو من ناحيةٍ وصالونٌ للعائلات من الناحية الثانية. ويفصل بين القسمين إفريزٌ بأعمدةٍ خشبية عريضة. وفوق الإفريز إصّيصان ملفوفان بورقكُريشةٍ

أصفر؛ فى أحدهما نيتةٌ جافة تقريبا وليس فى الآخر نبتة؛ وبين الاثنين حوض سمكٍ كبير به سمكةٌ وحيدة. استمر خطيبُ المعلمة فى النقاش؛ بشأنى على الأرجح. فى لحظة وصولنا، أخذ الناس الذين كانوا فى المقهى وفى صالون العائلات ـــ والكثير منهم كانوا فى المسرح ـــ فى الضحك وتجدَّد نجاحى قليلا. وبعد قليل أتى جرسون المقهى بدلوٍ من الماء: كانت تفوح من الدلو رائحةُ صابون ودهن، لكن الماء كان نظيفا. شربتُ بوحشية وجلبت لى رائحةُ الدلو ذكرياتِ حميميةِ منزلٍ كنتُ فيه سعيدا. لم يشأ أليخاندروأن يُقيّدنى أو أن يذهب الى الداخل مع الآخرين؛ وبينما أشرب كان يُمسكنى من الحبل وينقر بطرف قدمه كأنه يعزفُ إيقاع قطعةٍ موسيقية. بعدها أحضروا لى علفا جافا. وقال الجرسون:
ـــ أنا أعرف هذا الحصان التوبياسى.
فبدّد أليخاندرو وهمَه، ضاحكا:
ـــ أنا أيضا اعتقدتُ أنه توبياسى آل ميندث.
ـــ لا، ليس هذا ـــ رد الجرسون على الفور ـــ؛ أقول أنه آخرٌ ليس من هنا.
ظهرت الطفلةُ التى كانت قد لمستنى على المسرح ممسكةً بيد طفلةٍ أخرى أكبر منها؛ وجلبَت فى يدها الأخرى حفنة من العلف الأخضر أرادت أن تُضيفها الى الكومة التى كنت أغمس فيها أسنانى؛ لكنها قذفتها على رأسى وداخل أذنى.
تلك الليلة أخذونى الى منزل المعلمة وحبسونى فى مخزن غِلال؛ دخلَت هى أولا؛ وهى تُغطى ضوءَ الشمعة بإحدى يديها.
فى اليوم التالى لم أستطع النهوض. فتحوا نافذةً تُطّل على السماء وأجرى لى السيدُ ذو السبَّابة عملية فصد. بعدها أتى أليخاندرو، ووضع بقربى مقعدا، ثم جلس وأخذ يعزف على هارمونيكا. وحيت استطعتُ الوقوف أطللتُ من النافذة؛ كانت الآن تُطلّ على منحدرٍ يمتدُّ حتى بعض الأشجار؛ رأيت من بين جذوعها نهرا يجرى، باستمرار. من هناك جلبوا لى الماء، كما قدّموا لى الذرة والشوفان. فى ذلك اليوم لم أرغب فى تذكّر أى شىء. وعند المساء أتى خطيبُ المعلمة؛ كان أكثر قبولا لى؛ ربّت على كتفى وانتبهت أنا، من طريقة تربيته، أنه فتى ودود. ربّتت علىّ هى أيضا؛ لكنها آلمتنى؛فلم تكن تعرف كيف تُربِّت على حصان؛ كانت تُمرِّر يدها برقةٍ مفرطة فتُحدث فىّ دغدغات غير مستحبة. وفى إحدى مرات لمسِها لمقدمة رأسى، قلت لنفسى: "أتكون قد انتبهت الى أننا نتشابه فى هذا الجزء ؟" بعدها استدار الخطيب من الخارج والتقط صورة لها ولى ونحن نطلُّ من النافذة. كانت قد لفّت ذراعها حول عنقى وأراحت رأسها على رأسى.
تلك الليلة انتابنى فزعٌ هائل. كنت مُطلّا من النافذة، أنظر الى السماء وأسمع النهر، حين شعرت بخطواتٍ بطيئة تتسحب ورأيت شخصا

منحنيا. كانت امرأةً ذات شعرٍ أبيض. وبعد برهة عاودَت المرور فى الاتجاه المعاكس. وهكذا فى كل الليالى التى قضيتُها فى ذلك المنزل. عندما رأيتها من الخلف بمؤخرتها المربّعة، وساقيها المقوستين البالغتى الانحناء، بدت كمنضدةٍ شرعت فى المشى. وفى أول يوم خرجتُ فيه رأيتُها جالسةً فى الفناء تقشّر البطاطس بسكين ذى قبضةٍ فضية. كانت زنجية. فى البداية بدا لى أن شعرها الأبيض، وهى تحنى رأسها فوق البطاطس، يتحرك بطريقةٍ غريبة؛ لكننى انتبهت فيما بعد إلى أنه، فضلا عن شعرها، كان ثمة دخان؛ يخرج من غليونٍ صغير تتشبّثُ به على جانب فمها. ذلك الصباح سألها أليخاندرو:

ـــ كانديلاريا، أيروق لك الحصان التوبياسى ؟

فأجابت : ـــ سيأتى المالكُ للبحث عنه.

ظللتُ بلا رغبةٍ فى التذكر.

ذات يوم أخذنى أليخاندرو الى المدرسة. أحدث الأطفالُ صخبا عارما. لكن واحدا منهم أخذ يُحدّ ق فىّ ولا يقول شيئا. كانت أذناه بالغتى الانفصال عن رأسه بحيث بدتا كجناحين لحظة الشروع فى الطيران؛ كما كانت نظارته
بالغة الضخامة؛ لكن عينيه الحولاوين ملتصقتين بأنفه. وفى لحظةٍ غفل عنّى فيها أليخاندرو، رفسنى الأحول رفسةً هائلة في بطنى. ذهب أليخاندرو جريا ليُخبِر المعلمة: وحين عاد، كانت طفلةٌ معها دواة حبر أحمر قد لوّنت بطنى بالغطاء فى موضع لدىّ فيه بقعةٌ بيضاء؛ وعلى الفور عاد أليخاندرو الى المعلمة قائلا: "وهذه الطفلة رسمت له قلبا على بطنه."

وفى ساعة الفُسحة أحضرت طفلةٌ أخرى دميةً ضخمة وقالت أنهم سيُعمّدونها عند الخروج من المدرسة. وحين انتهت الدروس،مضينا أنا وأليخاندرو على الفور؛ لكن اليخاندرو أخذنى من شارعٍ آخر وحين استدرنا حول الكنيسة أوقفنى عند غرفة ملابس الكهنة. ونادى القس وسأله:

ـــ قل لى، يا أبتاه، كم تتقاضى منى لتعميد الحصان ؟

ـــ لكن يا بنى ! الأحصنة لا تُعمّدُ.

وشرع يضحك بكل كرشه.

أصرّ أليخاندرو:

ـــ حضرتك تتذكر تلك الأيقونة التى فيها العذراء تمتطى الحمار ؟

ـــ نعم.

ـــ حسنا، إذا كانوا يُعمِّدون الحمار، فيمكن أيضا تعميد الحصان.

ـــ لكن الحمار لم يكن مُعمّدا.

ـــ وهل كانت العذراء ستمتطى حمارا لم يُعمّد ؟

أراد القس أن يتكلم؛ لكنه ضحك.

وتابع أليخاندرو:
ـــ حضرتك عمّدت الأيقونة؛ وكان الحمار فى الأيقونة.

مضينا فى حزن شديد.
وبعد أيام قلائل قابلنا صبيا زنجيا فسأله أليخاندرو:
ـــ أى إسم سنسمى به الحصان ؟
بذل الصبى الزنجى جهدا ليتذكّر شيئا. وأخيرا قال:
ـــ ماذا علمتنا المعلمة أن نقول حين يكون شىء جميلا ؟
ـــ آه، أعرف ـــ قال أليخاندرو ـــ، "إفة".ajetivo[2]
عند حلول الليل كان أليخاندرو جالسا على المقعد، بقربى، يعزف الهارمونيكا، وجاءت المعلمة.
ـــ أليخاندرو، إذهب الى منزلك فلا بد أنهم ينتظرونك.
ـــ سنيوريتا: أتدرين أى اسم أعطيناه للتوبياسى ؟ "إفة".
ـــ أولا، نقولُ "صفة"؛ وثانيا، الصفة ليست اسما، إنها ... صفة ـــ قالت المعلمة بعد لحظة تردد.

ذات مساء عدنا فيه الى المنزل كنت مسرورا لأننى سمعت خلف شيش نافذةٍ من يقول: "ها هى المعلمة والحصان".
بعد قليل من الحديث معى فى مخزن الغلال ـــ فقد كان أحد الأيام التى لم يكن فيها أليخاندرو موجودا ـــ جاءت المعلمة، وأخرجتنى من هناك وبدهشة لم أعهدها أبدا، رأيت أنها أخذتنى الى غرفة نومها. عندها دغدغتنى تلك الدغدغات غير المستحبّة وقالت لى: "من فضلك، لاتصهِل". ولم أدرِ لماذا خرجَت على الفور. وحدى فى غرفة النوم تلك، لم أملك سوى أن أتساءل: "لكن ماذا تريدُ منى هذه المرأة ؟"كان ثمة ثيابٌ مبعثرة على الكراسى وعلى السرير. سرعان ما رفعتُ رأسى فوجدتُنى مع ذاتى، مع رأس الحصانِ التعسِ المنسيّة. أظهرت المرآة أيضا أجزاء من جسدى؛ بدت بُقعى البيضاء والسوداء بدورها ثيابا مُبعثرة. لكن أكثر ما لفت انتباهى كان رأسى ذاتها؛ أخذت أرفعها أكثر فأكثر. وبلغ من خيبة أملى أن اضطرِرتُ الى إغماض جفنىّ لأفتش للحظةٍ عن ذاتى، عن فكرتى الخاصة عن الحصان حين كانت تجهلنى عيناى.
نلت مفاجآتٍ أخرى. فأسفل المرآة كنا نحن الاثنين، توماسا وأنا، نطل من النافذة فى الصورة التى التقطها لنا خطيبها. وعلى الفور خارت سيقانى؛ بدا أنها قد فهِمَت، قبلى، صوتَ من ذاك الذى يتحدث فى الخارج. لم أستطع سماع ما كان يقوله "هو"؛ لكننى فهمت صوت توماسا حين أجابته: "مثلما هرب من منزلك، هرب أيضا من منزلى.

هذا الصباح ذهبوا ليحضروا له العلف فوجدوا مخزن الغلال خاليا كما هو الآن."
بعدها تباعدت الأصوات. وفيما ظللتُ وحيدا اجتاحتنى الأفكار التى راودتنى منذ لحظات فلم أتجاسر على النظر الى نفسى فى المرآة.
بدا الأمر كذبة! أيمكن أن يكون الواحد حصانا ويتوهم تلك الأوهام!
بعد وقت طويل عادت المعلمة. دغدغتنى دغدغاتها غير المستحبّة؛ لكن براءتها آلمتنى أكثر.
بعد مساءاتٍ قليلة كان أليخاندرو يعزف الهارمونيكا بقربى. وفجأة تذكّر شيئا؛ أزاح الهارمونيكا، ونهض من المقعد وأخرج من جيبه الصورةَ التى نُطلّ فيها من النافذة أنا وتوماسا. وضعها أولا قرب إحدى عينىّ، ولما رأى أننى لم يطرأ على أى تغير، وضعها أبعد قليلا؛ثم فعل نفس الشىء مع العين الأخرى وأخيرا وضعها أمامى على مسافة متر. أما أنا فأشعرتنى أفكارى المذنِبة بالمرارة. وذات ليلةٍ كنت فيها مستغرقا فى الإنصات الى النهر، لم أسمع خطوات كانديلاريا، ففزعتُ ورفستُ دلو الماء. وحين مرّت الزنجية، قالت: "لا تنزعج، فسوف يعود مالكك". وفى اليوم التالى أخذنى أليخاندرو لنسبح فى النهر؛ مضى فوق ظهرى شديدَ السعادة بقاربه الدافىء. أما أنا فبدأ قلبى ينقبض وعلى الفور تقريبا سمعت صفيرا جمّد الدم فى عروقى، أخذت أديرأذنىّ كأنهما جهازا بيريسكوب. وأخيرا جاءنى صوته "هو" صارخا: "هذا الحصان حصانى". أخرجنى أليخاندرو الى الضفة ودون أن ينطق جعلنى أعدو الى منزل المعلمة. أتى المالك يجرى خلفنا ولم يتسع الوقت لإخفائى. كنت بلا حراك داخل جسدى كأننى أرتدى صوانا كاملا من الملابس. عرضت عليه المعلمة شرائى. فأجابها: "حين يكون لديك ستون بيسو، وهو ما تكلفته فيه، تعالى وخذيه."
نزع عنى أليخاندرو اللجام، الموصول بحبال لكنه مِلكه. وألبسنى المالكُ اللجام الذى أحضره. دخلت المعلمة الى غرفة نومها وأستطعت أنا رؤية فم أليخاندرو وقد أصبح مُربَّعا قبل أن ينخرط فى البكاء.
أخذت سيقانى ترتجف؛ لكنه عاجلنى بضربة سوطٍ قويةفشرعتُ فى السير.
لم يكد يتّسع لى الوقت لأتذكر أننى لم أكلفة ستين بيسو: فقد بادلنى بدرّاجةٍ بائسة سماوية اللون دون فرامل ولا منفاخ. وبدأ الآن ينفّس عن سُخطه بضربى ضربات متتابعة بكل قواه. كنت أختنق لأنه شديد البدانة. ما أكثر ما اعتنى بى أليخاندرو! وعلاوة على ذلك، كنتُ قد دخلت ذلك المنزل بنجاحٍ أردت أن أتذكره الآن وعرفتُ السعادة حتى فى اللحظة التى جلبَت هى لى فيها أفكارا مُذنِبة. الآن بدأ يتصاعد من أحشائى مزاجٌ عكِرٌ لا يُحتمل. كنت بالغ العطش وتذكرت أننى سرعان ما سأمرُّ بجدولٍ صغير تمد فوقه شجرةٌ غصناً جافا يكاد يبلغُ منتصفَ الطريق. كانت الليلةُ مقمرةً ومن بعيد رأيت أحجارَ الجدول تلمعُ كأنها حراشف. بدأت أتوقّف حين كِدت أبلغ الجدول؛ فهِم هو فبدأ

يضربنى من جديد. لبضع لحظاتٍ شعرت بمشاعر تجتاحنى مُشتبكةً فى صراعٍ مع بعضها مثل أعداءٍ يلتقون فى العتمة فيتحسَّسون بعضهم أولا مُتشمّمين فى عجلة. وعلى الفور اندفعتُ الى جهة الجدول الصغير حيث ذراعُ الشجرة الجاف. لم يُتح له الوقت إلاّ للتعلق بالغصن تاركا إياى حرا؛ لكن الذراع الجاف انكسر وسقطنا كلانا فى الماء نُصارع بين الأحجار. استدرتُ وجريت صوبه فى اللحظة التى استدار فيها بدوره وخرج من تحت الغصن. تمكنت من وطئه بينما جانب جسده تجاهى؛ إنزلقت قدمى فوق ظهره؛لكننى قضمتُ بأسنانىقضمةً من حنجرته وقضمةً أخرى من رقبته. ضغطتُ بكل جنونى وقرّرتُا لانتظار، بلا حراك. وبعد قليل، بعد أن حرّك ذراعا، كفَّ بدوره عن الحركة. أحسست فى فمى بلحمه الحمضى وشوّكت لحيتُه لسانى. كانالدم قد بدأ يروقنى حين رأيت الماءَ والصخور تتلطّخ.

عبرتُ الجدولَ الصغير عدة مراتٍ من جانب الى آخر دون أن أدرى ماذا أفعل بحريتى. وفى النهاية قررت الذهاب الى حيث المعلمة؛ لكننى بعد خطوات قليلة عدتُ وشربت الماء قُربَ الميت.

مضيت ببطءٍ لأننى كنت بالغ التعب؛ لكننى شعرت بأننى حرٌ وبلا خوف. كم سيسعدُ أليخاندرو! وهى؟ حين فرّجنى أليخاندرو على تلك الصورة انتابنى الندم. لكن الآن، كم أرغب فى اقتنائها!

وصلتُ الى المنزل بخطا بطيئة؛ فكرت فى دخول مخزن الغلال؛ لكننى سمعت نقاشا فى غرفة نوم توماسا. سمعت صوت خطيبها يتحدث عن الستين بيسو؛ إنها بلا شك تلك التى يحتاجونها لشرائى. كنت سأبتهج بالتفكير فى أننى لن أكلّفهم شيئا، حين سمعته يتحدث عن الزواج؛ وفى النهاية، وقد خرجَ عن طوره ويتأهب للذهاب، قال : "إما الحصان وإما أنا".

فى البداية أخذت رأسى تتهاوى فوق النافذة الملوّنة المؤدية إلى غرفة نومها. لكننى بعدها، وخلال لحظاتٍ معدودة، قرَّرتُ حياتى.

سأذهب. كنت قد بدأت أصبح نبيلاولم أُرِد العيش فى جوٍسيزداد تعكّرا يوما بعد يوم. ولو بقيت لصرتُحصانا غير مرغوب. هى نفسها ستنتابها، فيما بعد، لحظات تردّدٍ تجاهي.

لا أدرى تماما كيف ذهبت. لكن أكثر ما تحسّرتُ عليه لعدم كونى رجلا ألاّ يكون لى جيبٌ أحمل فيه تلك الصورة.

---

(1) الحصان التوبياسي: طبقا لتقاليد الريو دى لا بلاتا، منسوب إلى توبيّاس، الزعيم الثوري البرازيلي لمقاطعة ساو باولو، الذي بعد

هزيمته عام 1842، انضم إلى ثوار الريو جراندى، وكان يمتطي، هو والجنود القلائل الذين صحبوه، جيادا من هذا النوع.
(2) "إفّة": ajetivoنطق سيء لكلمة "صفة" adjetivo .

مُرشِدُ النَظّارة

لم أكد أتخطّى المراهقةَ حتى ذهبتُ للعيش فى مدينةٍ كبيرة. وكان مركزها ـــ حيث يتحرّكُ الجميعُ فى عجلةٍ بين منازل شاهقة الارتفاع ـــ قُرب أحد الأنهار.
كنت مُرشِداً للنظّارة فى أحد المسارح؛ لكننى خارجه كنت أجرى من مكانٍ لآخر؛ مثل فأرٍ تحت أثاثٍ عتيق. أمضى الى أماكنى الأثيرة كأننى أدخل فى جُحورٍ قريبة وأصادف ارتباطاتٍ غير متوقّعة. وفضلا عن ذلك، كان يُمتِعنى تخيّلُ كلِّ ما لا أعرفه عن تلك المدينة.
كانت نوبةُ عملى فى المسرح آخر حفلات المساء. كنتُ أجرى الى غرفة الملابس، فألمّع حذائى الذهبى وأرتدى بذلتى الفراك الخضراء فوق صديرى وسروالٍ رماديين؛ وعلى الفور أتّخِذُ مكانى فى الممر

الأيسر للصالة وأقترب من السادة لآخذ منهم الرقم؛ لكن السيدات كنّ أول من يتبعن خطواتى المكتومة على السجادة الحمراء. وحين أتوقف أمدُّ يدى مُحيِّيا فى وضعٍ راقص. وكنت دائما أتوقّع بقشيشا مدهشا، وأعرف كيف أحنى رأسى باحترامٍ واحتقار. لا يهم أنهم لا يخطر ببالهم مدى تفوُّقى. كنت حينها أشعر بأننى أعزبٌ مُخضرَمٌ بزهرة فى عروة جاكتته مرّ بخبراتٍ عديدة؛ سعيدٌ برؤية سيداتٍ بفساتين متنوعة؛ واضطرابات لحظة أن يُضيء المسرحُ ويعمُّ الصالة الظلام. بعدها أهرع الى إحصاء البقشيش؛ وأخيرا أخرج لأجوبَ المدينة.

وحين أعود مُتعبا الى غرفتى وبينما أصعد السلالم وأعبُر الردهات، آملُ أن أرى المزيد من خلال الأبواب المُوارَبة. وما أن أُضيء النور، حتى تتلون فجأة أزهار ورق الحائط: كانت حمراء وزرقاء على خلفيةٍ سوداء. كان المصباح يتدلى من سلكٍ يخرج من مركز السقف ويكاد يصل الى قدمَىّ فراشى. كنت قد صنعتُ مظلّةً من ورق الصحف وكنت أرقد ورأسى باتجاه قدّمىّ الفراش؛ وبهذه الطريقة يمكننى أن أقرأ مُخفِّفا الضوء ومُظلِّلا الأزهار بعض الشىء. وبجوار رأس الفراش منضدةٌ عليها زجاجاتٌ وأشياءُ كنت أحدّق فيها ساعاتٍ بطولها. بعدها أُطفىء النور وأظل مستيقظا حتى تبلغَ سمعى من النافذة ضجّةُ عظام تُقطعُ بالمنشار، أو تُكسرُ بالساطور، وسُعال الجزّار.

مرتين أسبوعيا كان صديقٌ يأخذنى الى مطعمٍ مجانى. يدخل المرءُ أولا الى قاعةٍ تكاد تُعادل فى ضخامتها قاعة مسرح؛ ثم يعبُر الى الصمت الباذخ لقاعة الطعام. كان المطعم يخصُّ رجلا سيقدِّم وجبات العشاء تلك حتى نهاية عمره. كان نَذْرَا قدّمه لنجاة ابنته من مياه النهر. وكان الآكلون أجانبَ مُثقلين بالذكريات. ومن حق كلٍّ منهم أن يصطحب صديقا مرتين أسبوعيا؛ وكان صاحب المكان يأكل على تلك المائدة مرةً كل شهر. يأتى مثل قائد أوركسترا بعد أن يكون الموسيقيون مستعدين. لكن ما كان يقودُه هو الصمت. فى الساعة الثامنة، كان ينفتحُ مِصراعُ المدخل الأبيض الضخم فى العمق ويظهر الفراغُ المظلِم لغرفةٍ مُجاورة؛ ومن تلك الظُلمة تخرج بذلة الفُراك السوداء لشخص طويل تميلُ رأسُه الى اليمين. يأتى رافعا يداً ليشير لنا ألاّ نتوقف؛ فتتّجِه صوبه كلُّ الوجوه؛ وليس العيون: لأنها تنتمى الى الأفكار التى تسكنُ الرؤوسَ فى تلك اللحظة. كان قائد الأوركسترا يحيّى عند جلوسه، فيوجّه الجميعُ رؤوسهم نحو الأطباق وينقُرون آلاتهم. عندها يعزفُ كلُّ أستاذٍ للصمت لنفسه. فى البداية يُسمع صوت نَقْر أدوات المائدة؛ لكن بعد لحظات قليلة تتطايرُ تلك الجلبة وتُصبح منسية. وأبدأ أنا، ببساطة، فى الأكل. كان صديقى مثلهم، ينتهز تلك اللحظات لــتذكّر بلده. وسرعان ما أحسُّ أننى قد اختُزلت فى دائرة الطبق ولا يبدو أن لى أفكاراً تخصنى. وكان الآخرون كأنهم نائمون يأكلون فى نفس الوقت ويحرُسهم الخدم. كنا نعرف أننا قد فرغنا من

طبقٍ لأنهم ينتزعونه فى تلك اللحظة؛ وسرعان ما يُبهِجنا الطبق التالى. وأحيانا كان علينا أن نُجزِّىء الدهشة ونبتبه الى عنق زجاجةٍ تأتى ملفوفةً فى فوطةٍ بيضاء. ومراتٍ أخرى تدهشنا بقعةُ النبيذ الداكنة التى يبدو أنها تكبر فى الهواء بينما يضُمُّها زجاجُ الكأس.

بعد اجتماعاتٍ قليلة فى المطعم المجانى، كنت قد تعودّت على أشياء المائدة وأصبحتُ قادرا على عزف الآلات لى وحدى. لكننى لم أستطع التخلُّص من قلقى من تباعد المدعوين. وحين ظهر "مدير الأوركسترا" فى الشهر الثانى، لم أفكر فى أن ذلك الرجل كان يُغدِق علينا بسبب نجاة ابنته؛ فقد كنت مُصرًّا على افتراض أن الابنة قد غرقت. كان تفكيرى يعبُر بخطواتٍ ضخمة ومُبهمة مربعات المبانى القليلة التى تفصلنا عن النهر؛ عندها كنت أتخيّل الإبنة، على بعد سنتيمترات قليلة من سطح الماء؛ وهناك تتلقى ضوءَ قمرٍ مائل للاصفرار؛ لكن فى نفس الوقت يتلألأ بالبياض فستانُها الفاخر وجلدُ ذراعيها ووجهها. ربما يرجع هذا الامتياز الى ثروة الأب والى تضحياتٍ مجهولة. أما من يأكلون فى مواجهتى وظهورهم الى النهر، فكنت أتخيلهم أيضا غرقى: ينكفئون على أطباقهم كأنهم يريدون الصعود من قلب النهر والخروج من الماء؛ ونحن الذين نأكل فى مواجهتهم، نجاملهم لكننا لا نمد لهم أيدينا.

ومرة سمعتُ بضعَ كلمات فى ذلك المطعم. كان مدعُوٌ مفرط السمنة قد قال: "إنى أموت". وعلى الفور سقطت رأسُه فى طبق الحساء، كأنه يريدُ تناولَه دون ملعقة؛ وأدار الأخرون رؤوسهم لينظروا الى الرأس المقدّمة فى طبق، وكفّت كل أدوات المائدة عن النبض. ثم سُمعت زحزحة أقدام الكراسى، وحمل الخَدَمُ الميت الى غرفة القبّعات ورنّوا التليفون لطلب الطبيب. وقبل أن تبرد الجثةُ كان الجميع قد عادوا الى أطباقهم وسُمع نَقرُ أدوات المائدة.

بعدها بقليلٍ بدأت أُقلّل جولاتى فى المسرح وأمرضُ بداء الصمت. أخذت أغوص فى ذاتى كأننى أغوص فى بِركة. كان زملاءُ العمل يتعثّرون فىّ، وبدأت أصبحُ عقبة فى غير مكانها. الشيءُ الوحيد الذى كنت أُجيده، هو تلميع أزرار البذلة الفراك. وذات مرةٍ قال لى زميل: " أسرع، يا فرَس النهر!" سقطت هذه الكلمة فى بِركتى، ظلت مُلتصقة بى وأخذت تغوص. بعدها قالوا لى أشياء أخرى. وحين كانوا قد ملأوا ذاكرتى بكلماتٍ مثل آنيةٍ مُتّسخة، أخذوا يتجنبون التعثّر فىّ ويستديرون من جهةٍ أخرى ليتفادوا بِركتى.

بعد ذلك بقليل طردونى من العمل ودبّر لى صديقى الأجنبى عملا آخر فى مسرحٍ أدنى مرتبة. كانت ترتاده نساء سيّئات الهندام ورجالٌ يمنحون بقشيشا ضئيلا. ورغم ذلك، حاولت الحفاظ على وظيفتى.

لكن ذات يومٍ من تلك الأيام الأشد بؤسا ظهر أمام عينىّ شىءٌ عوّضنى عن تعاساتى. كان قد ظل يُلمّح عن نفسه شيئا فشيئا. ذات ليلةٍ استيقظتُ فى السكون الدامس لغرفتى ورأيت ضوءا، على الحائط المكسوّ بورقٍ ذى أزهار عنيفة. منذ الوهلة الأولى انتابتنى فكرة أن شيئا غير عادى يحدث لى، ولم أخَف. أدرتُ عينىّ الى جانبٍ فتبعت بقعةُ الضوء نفس الحركة. كانت بقعةً مشابهة لتلك التى تبدو فى الظلام فور انطفاء المصباح، لكن هذه الأخرى تبقى لوهلةٍ كافية ويمكن الرؤية من خلالها. خفضتُ عينىّ حتى المنضدة فرأيت زجاجاتى وأشيائى. لم تبق لدى ذرةٌ من الشك؛ ذلك الضوء كان ينبعث من عينىّ ذاتها، وكان يتطور منذ زمن طويل. مرّرت ظهر يدى أمام وجهى فرأيت أصابعى المفتوحة. بعد برهةٍ قصيرة أحسست بالتعب؛ أخذ الضوء يخفت فأغلقت عينىّ. ثم عاودتُ فتحهما لأتأكد إن كان ذلك حقيقيا. نظرت الى لمبة الضوء الكهربائى فرأيتها تلتمع بضوئى. عاودتُ إقناع نفسى وابتسمتُ. منذا، فى العالم بأسره، يرى بعينيه ذاتهما فى الظلام؟

كل ليلة كان يتزايد لدى الضوء. بالنهار كنت قد ملأتُ الحائط بالمسامير؛ وبالليل علّقت أشياء من الزجاج أو الخزف: فهى التى تُرى على نحوٍ أفضل. فى صوانِ ملابسٍ صغير ــــ كانت منقوشةٌ عليه الأحرفُ الأولى من اسمى لكن لم أكن أنا من نقشها ـــ، كنت أحتفظُ بكؤوسٍ مربوطة بخيط من قاعدتها، وزجاجاتٍ فى عنقها الخيط؛ وأطباقٍ صغيرة مربوطة من نقوش حوافها: وأقداحٍ بحروف ذهبية، الى آخره. وذات ليلة داهمنى رعبٌ كاد يدفعنى الى الجنون. كنت قد نهضت لأرى إن كان مازال ثمة شىءٌ آخر فى الصوان؛ لم أكن قد أضأت الضوء الكهربائى ورأيت سحنتى وعينىّ فى المرآة، فى ضوئى أنا. غِبتُ عن الوعى. وحين أفقتُ كان رأسى تحت السرير ورأيت العوارضَ الحديدية كأننى تحت جسر. أقسمتُ ألاّ أنظر أبدا الى سحنتى تلك والى تلكما العينين من عالمٍ آخر. كانتا بلونٍ أصفرٍمائل للخضرة يلتمع مثل انتصار داءٍ مجهول؛ كانت العينان حلقتين ضخمتين، والسحنة مقسّمة الى نتفٍ لا يمكن لأحد جمعها معا أو فهمها.

ظللتُ مستيقظا حتى صعدت الىّ جلبة العظام التى تُقطع بمنشار وتُكسر بالساطور.

وفى اليوم التالى تذكّرت أننى منذ بضع ليال كنت أصعد ممر الصالة المعتمة ونظرت امرأةٌ الى عينىّ مقطّبةً حاجبيها. وفى ليلةٍ أخرى داعبنى صديقى الأجنبى قائلا لى أن عينىّ تلمعان كعيون القطط. كنت أحاول ألاّ أنظر الى وجهى فى واجهات المتاجر الزجاجية المطفأة، وأفضّل ألاّ أرى الأشياء الموجودة خلف الزجاج. وبعد أن فكرت كثيرا فى طرق استخدام الضوء، كنت أتوصّل دائما الى نتيجة أننى يجب أن أستخدمه حين أكون وحيدا.

فى أحدى وجبات العشاء وقبل أن يظهر صاحب المطعم فى المدخل الأبيض، رأيت عتمة الباب الموارب وشعرت بالرغبة فى إلقاء النظر هناك. عندها بدأتُ أُخطِّط طريقة الدخول الى تلك الغرفة، فقد لمحتُ فيها فترينات ممتلئة بالأشياء وأحسست بتزايد ضوء عينىّ.

كانت صالة قاعة الطعام الكبرى تفتح على شارع؛ لكن المنزل كان يشغلُ كل المربّع السكنى ومدخله الرئيسى يؤدى الى شارع آخر؛ كنت قد تمشّيت مرارا فى شارع الصالة ورأيت رئيسَ الخدم عدة مرات: كان الوحيد الذى يمضى فى تلك الأنحاء فى تلك الساعة. حين يسير فى المواجهة بساقيه وذراعيه المقوّسين الى الخارج، كان يبدو كإنسان الغاب؛ لكن عند رؤيته من الجانب، بذيل الفُراك البالغ الصلابة، كان يبدو حيوانا ضخما. وذات مساء، قبل العشاء، تجاسرت على الحديث معه. ظل ينظر إلىّ مخبئا عينيه خلف حاجبين كثيفين، بينما أقول له:

ـــ أود أن أحدّث حضرتك فى مسألةٍ خاصة؛ لكن يتوجب علىّ أن أطلب منك التكتم.

ـــ كما تشاء، يا سيدى.

ـــ أنا ... ـــ الآن كان ينظر الى الأرض وينتظر ـــ ... لدّى فى عينى ضوءٌ يُتيح لى الرؤيةَ فى الظلام ...

ـــ أفهم، يا سيدى.

ـــ تفهم، لا! ـــ رددتُ منزعجا ـــ. لا يمكن لسيادتك أن تكون قد عرفت أحدا يرى فى الظلام.

ـــ قلت أننى فهمت كلماتك، يا سيدى؛ لكننى أعتقد أنها تدهشنى.

ـــ أنصِت. إذا دخلنا تلك الغرفة ـــ غرفة القبعات ـــ وأغلقنا الباب، يمكنك أن تضع فوق المنضدة أى شىء يكون فى جيبك وسأقول لك ما هو.

ـــ لكن، ياسيدى ـــ قال ـــ، لو جاء فى تلك اللحظة ...

ـــ لو جاء صاحب المطعم، فإننى أصرّح لك أن تخبره. إصنع فىّ معروفا؛ إنها مجرد لحظة.

ـــ وما الغرض؟. . .

ـــ سأشرح لك. ضع أى شىء على المنضدة فور أن أُغلقَ الباب؛ وسأقول لك على الفور. .

ـــ بأسرع ما تستطيع، يا سيدى ...

عبرَ خفيفا، واقترب من المنضدة، أغلقتُ الباب وقلت له على الفور:

ـــ لقد وضعتَ يدك المفتوحة لا أكثر!

ـــ حسنا، هذا يكفينى، يا سيدى.

ـــ لكن ضع شيئا يكون فى جيبك ...

وضع المنديل؛ فقلت له، ضاحكا:

ـــ يا له من منديل متسخ!

ضحك هو أيضا؛ لكن سرعان ما أطلق نعيقا أجشا واتجه نحو الباب. وحين فتحه كانت يده تغطى عينيه ويرتجف. عندها انتبهت الى أنه قد رأى وجهى؛ وهذا ما لم أكن أتوقعه. قال لى، ضارعا:

ـــ إذهب، ياسيدى! إذهب، ياسيدى!

وشرع يعبر قاعة الطعام. كانت مضاءة لكنها خاوية.

فى المرة التالية التى تناول فيها الطعام معنا صاحب المطعم، طلبت من صديقى أن يسمح لى بالجلوس قرب رأس المائدة ـــ حيث يجلس المالك ـــ. هناك يتوجب على رئيس الخدم أن يقدّم الطعام، ولن يستطيع الإفلات منى. وحين أحضر الطبق الأول شعر بعينى مصوّبتين عليه فبدأت يداه ترتجفان. وبينما تشغَلُ الصمتَ جلبة أدوات المائدة، أخذت ألاحقُ رئيس الخدم. بعدها رأيته من جديد فى الصالة. قال لى:

ـــ يا سيدى، إنك ستضيّعنى!

ـــ إذا لم تستمع إلى، أعتقد أننى سأضيّعك.

ـــ لكن ماذا يريد السيدُ منّى ؟

ـــ أن تسمح لى بأن برؤية، مجرد رؤية، الفترينات فى الغرفة المجاورة لقاعة الطعام، مع التسليم بأنك ستفتّشنى عند خروجى.

أخذ يصنع إشارات بيديه ورأسه قبل أن يتمكن من نطق كلمة واحدة. وحين استطاع، قال:

ـــ لقد أتيتُ الى هذا المكان، يا سيدى، منذ سنوات بعيدة ...

شعرت بالأسى؛ وبالضيق من شعورى بالأسى. جعلتنى شهوة النظر أعتبره عقبةً معقّدة. حكى لى قصة حياته وشرح لى لماذا لا يمكنه خيانة صاحب المطعم. عندها قاطعته مهدّداً:

ـــ كل هذا لا جدوى منه إذا لم يعرف؛ وعلاوة على ذلك، فإنك ستكون فى حال أسوأ بكثير إذا شوّشتُ رأسك من داخلها. الليلة سآتى الساعة الثانية، وسأظل فى تلك الغرفة حتى الثالثة.

ـــ سيدى، لخبِط رأسى واقتلنى.

ـــ لا؛ قد تحدث لك أشياءُ أفظع من الموت.

وعند ذهابى كرّرت له:

ـــ الليلة، الساعة الثانية، سأكون أمام هذا الباب.

وعند خروجى من هناك كنت بحاجةٍ الى التفكير فى شيءٍ يبرّر ما أفعل. حينها قلت لنفسى: "حين يرى أن لا شيء يحدث لن يعود يتعذب". أردت الذهاب تلك الليلة لأننى أتعشى فيها هناك؛ وتلك الأطعمة مع الأنبذة تثيرنى جدا وتقوّى الضوء.

خلال ذلك العشاء لم يكن رئيس الخدم عصبيا بقدر ما توقعت، وظننت أنه لن يفتح لى الباب. لكننى ذهبت الساعة الثانية، وفتح لى. حينها، بينما أعبر قاعة الطعام خلفه وخلف شمعدانه، خطرت لى فكرة أنه لم يقاوم عذاب التهديد، ولابد أنه حكى كل شيء لصاحب

المطعم وأعدوا لى فخاً. وفور أن دخلنا غرفة الصوانات الزجاجية نظرت إليه: كانت عيناه مُنكّستين وسحنته بلا تعبير؛ فقلت له:

ـــ أحضِر لى حَشيّة. أنا أرى أفضل وأنا على الأرض، وأريد أن يكون جسدى مرتاحا.

تردّد مُحرّكا الشمعدان وذهب. وحين بقيتُ وحدى وبدأت أنظر، اعتقدت أننى فى مركز مجرّة سماوية. بعدها فكّرت أنهم سيوقعوننى فى الشرَك. فقد تأخر رئيس الخدم. ما كانوا بحاجةٍ الى وقت طويل للإيقاع بى. ظهر يُجرجِر حشيةً بيد واحدة لأن الأخرى تحمل الشمعدان. قال، بصوتٍ رنَّ رنينا مفرطا بين تلك الفترينات:

ـــ سأعود فى الثالثة.

فى البداية خفت أن أرى نفسى منعكسا فى المرايا الضخمة أو فى زجاج الفترينات. لكن ما كان ليطالنى أىٌ منها وأنا مستلق على الأرض. لماذا يمكن أن يكون رئيس الخدم بكل هذا الهدوء؟ مضى ضوئى متجولا فى هذا الكون؛ لكننى لم أستطع الابتهاج. بعد كل هذه الجرأة للوصول الى هنا، كنت أفتقر الى شجاعة أن أظل هادئا. كان بإمكانى النظر إلى شىء وجعله مِلكى بوضعه فى ضوئى برهة معقولة؛ لكن كان من الضرورى أن أكون خلىّ البال وأن أعرف أن لى الحق فى النظر إليه. قرّرت ملاحظة ركن صغير قريب من عينىّ. كان ثمة كتاب صلوات بغلاف من عظم السلحفاة المُحبَّب مثل السكر المحروق؛ لكن عند إحدى زواياه تطريزٌ تستقر فوقه زهرةٌ مسحوقة. وإلى جانبه، متلويةً كأفعى، ترقد مِسبحة من الأحجار الكريمة. كانت هذه الأشياء عند قدم مراوح كأنها راقصات باليه تفتح تنوراتها الواسعة؛ فقد ضوئى بعض ثباته عند مروره على بعض المراوح الموشّاة بحبّات الترتر؛ وأخيرا استقرّ على مروحة أخرى مُزيّنةٍ برجلٍ صينى وجهه من الصَدَف ورداؤه من الحرير. وحده هذا الصينى كان يمكن عزله فى ذلك الاتساع؛ كانت طريقته فى الوقوف ثابتا تدفع الى التفكير فى سر الحماقة. ورغم ذلك، كان هو وحده ما استطعت تملّكه تلك الليلة. وعند خروجى أردتُ أن أعطى رئيس الخدم بقشيشا. لكنه رفضه قائلا:

ـــ أنا لا أفعل هذا من أجل الفائدة، يا سيدى؛ بل أفعله لأنك تضطرنى.

فى الجلسة الثانية نظرتُ الى تماثيل مُصغّرةٍ من اليُشب؛ لكن عند مرور ضوئى على قنطرةٍ صغيرة تعبر فوقها الأفيال انتبهت إلى أن بتلك الحجرة ضوءاً آخر ليس ضوئى. أدرتُ عينىّ قبل رأسى فرأيت امرأة بيضاء تتقدم مُمسكةً بشمعدان. كانت قادمة من بداية الطريق الواسع المحفوف بالفترينات. انتابتنى اختلاجاتٌ فى صدغى سرعان ما سرت كأنهارٍ نائمة عبر وجنتىّ؛ ثم لفّت الاختلاجاتُ شَعرى بالتفافات عِمامة. وأخيرا هبطت الى ساقىّ وانعقدت عند ركبتىّ. أتت المرأةُ برأسٍ ثابتةٍ وخطوٍ بطىء. توقّعت أن تبلغ دائرة ضوئها الحشية فتطلقُ هى صرخة.

توقّفت للحظات؛ وحين استأنفت خطواتها فكرتُ أن أمامى متسعٌ للهرب؛ لكننى لم أستطع حراكا. ورغم الظلال الصغيرة على وجهها كان واضحا أن تلك المرأة رائعة الجمال: بدا أن الأيدى شكّلتها بعد أن خطّطتها على الورق. اقتربَت كثيرا؛ لكننى فكرت أن أظلّ ساكنا حتى نهاية العالم. توقفَت الى جانب الحشية. ثم بدأت تمشى وهى تطأ الأرض بقدم والحشيّة بالأخرى. كنت مثل دمية مُمدَّدةٍ فى واجهة متجر بينما تطأ هى حافةَ الرصيف بإحدى قدميها والشارعَ بالأخرى. بعدها ظللتُ ساكنا رغم أن ضوءها كان يتحرك بطريقة غريبة. وحين رأيتها تمر عائدةً كانت ترسم طريقا متموّجا بين مسافة فترينة وأخرى، وأخذ طرفُ ثوبِ الحمّام يشتبك بخفةٍ فى أرجل الفترينات. انتابنى الإحساس بأننى نمت قليلا قبل أن تبلغ هى الباب فى العمق. كانت قد تركته مفتوحا حين أتت كما تركته حين مضت. لم يكن ضوؤها قد اختفى تماما، حين اكتشفتُ أن ضوءا آخر خلفى. الآن أمكننى النهوض. أمسكتُ الحشيّة من طرَفها وخرجتُ لأجدُنى فى مواجهة رئيس الخدم. كان جسده كله والشمعدان يرتجفان. ولم أستطع فهم ما يقول لى لأن طقم أسنانه كان يطرقع.

كنت أعرف أنها ستظهر من جديد فى الجلسة التالية؛ فلم استطع التركيز لأنظر الى أى شىء، ولم أفعل سوى أن أنتظرها. ظهرَت فشعرتُ أننى أكثر هدوءا. كانت كل الأحداث مطابقةً للمرة الأولى؛ ظل مِحجرا عينيها بنفس الثبات؛ لكننى لا أدرى أين يكمن ما يتغيّرُ فيها كل ليلة. وفى نفس الوقت أخذت أحسّ بالاعتياد والرقة. وحين اقتربَت من الحشية داهمنى قلقٌ مباغت: انتبهت أنها لن تمرَّ من الحافة بل ستعبر فوقى. عاودنى الإحساسُ بالرعب والاعتقاد بأنها ستصرخ. توقفَت قرب قدمىّ. ثم خطت خطوةً فوق الحشية؛ وأخرى فوق ركبتىّ ـــ اللتين ارتجفتا، وانفتحتا جاعلتين قدمها تنزلق ـــ؛ خطوة أخرى للقدم الأخرى فوق الحشية؛ وخطوة أخرى فوق فُمٍّ معدتى؛ أخرى فوق الحشية وأخرى جعلت قدمها العارية ترتكزُ على حنجرتى. بعدها غِبت بألطف طريقةٍ عن الوعى بما يجرى: وعبَر وجهى كلُّ ذيل ثوب حمامها المعطّر.

كل ليلةٍ كانت الأحداثُ تزداد تشابها؛ لكن مشاعرى تختلف. ثم اندمجت كلُّها وبدت الليالى قليلة. مسح ذيلُ ثوب الاستحمام ذكرياتٍ قذرة وأخذتُ أعبرُ من جديدٍ فضاءات جوُّها بالغ الرقة كذلك الذى كان يمكن أن تحرّكه ملاءات الطفولة. وأحيانا كانت تقطعُ للحظةٍ حفيفَ ذيل ثوبها فوق وجهى؛ عندها أُحسّ بعذاب انقطاع التواصل وتهديدِ حاضرٍ مجهول. لكن حين يُستأنف الحفيف وأعبر الهاوية، أفكر أنها دعابة الرقة وأعُبُّ كلَّ ما تبقى من الذيل.

أحيانا كان رئيس الخدم يقول لى:

ـــ أه، يا سيدى! كم سيتأخر اكتشاف هذا كله!

لكننى كنت أمضى الى غرفتى، لأنظّف ببطءٍ بالفرشاة بذلتى السوداء فى موضع الركبتين والمعدة، ثم أستلقى لأفكّر فيها. كنت قد نسيت

ضوئى أنا: وددتُ لو بذلتُه برمته مقابل أن أتذكّر بدقةٍ أكبر كيف يلفّها ضوء شمعدانها. كنت أراجع خطواتها وأتخيل أنها ستتوقف ذات ليلة بقربى وتنحنى؛ وعندها، بدل ثوب الحمام، سأحسّ بشعرها وشفتيها. كنت أركّبُ هذا كله بطرقٍ عديدة؛ وأحيانا أضع لها كلمات: "عزيزى، لقد كذبت عليك ..." لكن تلك الكلمات لم تبدُ لى كلماتها وكان علىّ أن أبدأ بافتراضِ كل شيءٍ من جديد. لم تدعنى تلك التدريبات أنام؛ بل تغلغلت قليلا فى أحلامى. ومرةً حلمتُ أنها تعبُر كنيسةً ضخمة. كان ثمة التماعاتٌ لأضواء شموع على ألوانٍ حمراء وذهبية. وكان أكثرها وميضا ثوبُ العروسِ الأبيض ذى الذيل الطويل الذى كانت ترتديه متمهلة. كانت ستتزوج؛ لكنها تسير وحيدةً وتمسك بيدٍ يدها الأخرى. وكنتُ أنا كلبا كثيف الشعر لونه أسودٌ شديدُ الالتماع مُنطرحا فوق ذيل العروس. كانت تجذبنى باعتزاز وأبدو أنا نائما. وفى نفس الوقت كنتُ أحسُّ أننى أمضى بين حشدٍ من الناس يتبعون العروسَ والكلب. وفى هيئتى الأخرى تلك، كانت لدى مشاعرُ وأفكارٌ شبيهة بمشاعر وأفكار أمى وأحاول الاقتراب أكثر ما يمكن من الكلب. وكان هو هادئاً كأنه ينام على شاطئٍ ومن آنٍ لآخر يفتح عينيه فيرى نفسه مُحاطاً بالزَبَد. نقلتُ الى الكلب فكرةً، فتلقّاها بابتسامة. كانت: "أسلِم قيادك؛ لكن فكّر فى شىء آخر".

بعدها، فى الفجر، كنت أسمعُ قطعَ اللحم بالمنشار وضربات الساطور.

ذات ليلةٍ تلقيت فيها القليلَ من البقشيش، خرجتُ من المسرح وهبطت حتى الشارع الأقرب الى النهر. كانت ساقاى متعبتين؛ لكن عينىّ فى احتياج هائل للرؤية. وحين توقّفتُ عند كوخٍ للكتب القديمة رأيت زوجاً من الأجانب يمرّان؛ كان هو يرتدى السواد وقلنسوة أباتشى؛ وتضع هى على رأسها منديلا إسبانياً وتتحدث الألمانية. كنت أسيرُ فى اتجاههما، لكنهما كانا متعجلَين وتقدَّمانى بمسافة. إلاّ أنهما، عندما بلغا الناصية تعثّرا فى طفل يبيع الحلوى فبعثرا لفافاته. ضحكَت هى، وساعدته على جمع بضاعته وأخيرا أعطته بعض قطع العملة. وحين استدارتَ لتنظر للبائع لآخر مرة، تعرّفتُ فيها على مسرنَمتى وشعرتُ بأننى أقع فى بئرٍ من الهواء. تبعت الزوجين قلقاً؛ وتعثّرت أنا أيضا بامرأةٍ بدينة قالت لى:

ــــ أنظر أين تمضى، يا أحمق.

كنت أكاد أعدو وأنا أوشك على الانتحاب. وصلا الى سينما رخيصة، وحين ذهب لقطع التذاكر أدارَت هى رأسها. نظرت إلىّ ببعض الإمعان لأنها رأت قلقى، لكنها لم تتعرف علىّ. أما أنا فلم يساورنى أدنى شك. وعند الدخول جلستُ أمامهما بعدة صفوف، وفى إحدى المرات التى استدرتُ فيها لأنظرإليها، لابد أنها رأيت عينىّ فى الظلام، لأنها شرعت تحدّثه ببعض الانفعال. وبعد قليل استدرتُ مرةً أخرى؛ كانا يتحدثان

من جديد، لكن كلماتٍ قليلة وبصوت عالٍ. وعلى الفور غادرا الصالة.
وأنا أيضاً. جريتُ خلفها دون أن أدرى ماذا سأفعل. لم تتعرَّف علىّ؛
وفوق ذلك كانت تهرب منّى مع آخر. لم ينتبنى أبدا كل هذا الهياج،
ورغم توجسى أن الأمر لن ينتهى على خير، لم أستطع التوقف. كنت
متأكدا أن ذلك كله ينطوى على اختلاطٍ للمصائر؛ لكن الرجل الذى
يمضى متشبثا بذراعها كان قد أرخى القلنسوة حتى أذنيه ويسير بخطى
تزداد خفة. كنا ثلاثتنا نهرع مثلما فى خطر حريقٍ؛ كنت قد صرت
قريبا منهما، وأتوقع تطوُّرا لا أدرى كنهه. نزلا من الرصيف وبدآ
يعبران الشارع جريا؛ كنت سأفعل مثلهما، وفى تلك اللحظة أوقفنى
رجل آخر بقلنسوة؛ كان جالسا فى سيارة، وكان قد أطلق بوق السيارة
وأخذ يسبُّني. وفور اختفاء السيارة رأيت الزوجين يقتربان من رجل
شرطة. بنفس الإيقاع الذى كنت أسير به خلفهما قررتُ المضىّ فى اتجاه
آخر. وبعد بضعة أمتار التفتُّ، لكننى لم أر أحدا يتبعنى. عندها
بدأت أقلّل من سرعتى وأتعرّفُ على عالم كل يوم. كان لابد من السير
ببطء والتفكير بإمعان. انتبهت أننى سأعانى عذابا هائلا فولجت
حانة قليلة الضوء وقليلة البشر؛ طلبتُ نبيذا وبدأت أنفق من
البقشيش الذى أدّخره لدفع إيجار الغرفة. كان الضوء يخرج صوب
الشارع من بين قضبان نافذةٍ مفتوحة؛ وبدت تلمع أوراقُ شجرة متوقفة
عند حافة الرصيف. أرهقنى أن أقرر التفكير فيما يجرى لى. كانت
الأرضية من ألواحٍ قديمة مثقوبة. فكرت أن العالم الذى تقابلنا فيه
أنا وهى لا يمكن انتهاكه؛ ولا يمكنها أن تهجره بعد أن مرّرت ذيل
ثوب استحمامها فوق وجهى كل هذه المرات؛ فذلك كان طقسا أُعلِن فيه
إبرامُ تفويضٍ. كان علىّ أن أفعل شيئاً. وربما أن انتظر إشارة
تعطينى إياها فى واحدة من تلك الليالى. ورغم ذلك، لم يبد أنها
كانت تدرك الخطر المُحدق بها فى ليالى صحوها، حين كانت تنتهك ما
ترسمه لها خطواتُ النوم. كنت أشعر بالفخر لكونى مُرشِد نظّارة،
وبكونى فى أفقر الحانات، وبمعرفتى، أنا وحدى، ـــ فحتى هى لم تكن
تعرف ـــ، أننى بضوئى قد نفذتُ الى عالمٍ مغلق أمام كل الآخرين.
وحين خرجت من الحانة رأيت رجلا يرتدى قلنسوة. ثم رأيت آخرين.
عندها كوّنتُ فكرةً عن الرجال ذوى القلنسوة: كانوا كائناتٍ تمضى فى
كل مكان لكن لا شأن لهم بى. ركبتُ تراما وأنا أفكر أننى حين أذهب
الى قاعة الفترينات سأخفى معى قلنسوةً وأسارع بإظهارها لها. ألقى
رجلٌ بدين بجسده، حين جلس بجوارى، فلم أعد أستطيع مواصلةَ التفكير
فى شىء.

فى الجلسة التالية أخذت القلنسوة، لكن لم أدر إن كنت
سأستخدمها. ورغم ذلك، فإنها فور أن ظهرَت فى عمق القاعة أخرجتُ
القلنسوة وبدأت التلويح بها كأنما بمصباحٍ أسود. توقفت المرأةُ
على الفور فأخفيتُ القلنسوة، غريزيا؛ لكن حين بدأت تمشى عاودتُ

إخراجها والتلويح بها. وحين توقّفَت قرب الحشية تملّكنى الخوف وقذفتُها بالقلنسوة: ضربَتها فى صدرها أولا ثم سقطت عند قدميها. انقضت بضع لحظات قبل أن تُطلِق صرخة. سقط منها الشمعدان مُحدِثا ضجيجا وانطفأ. وعلى الفورسمعتُ كتلة جسدها اللينة تسقطُ تتلوها خبطةٌ أقوى لابد أنها رأسها. توقّفتُ أنا وفتحتُ ذراعيّ كأنما لأتحسس فترينة؛ لكننى فى تلك اللحظة وجدتُنى مع ضوئى الذى بدأ يزداد فوق جسدها. كانت قد سقطت كأن حلما هانئا سينتابها على الفور؛ كانت ذراعاها قد بقيتا شبه مضمومتين، ورأسها مائل الى جانب ووجهها مخبّأ بخجل تحت موجات شعرها. جُبتُ جسدها بضوئى مثل قاطع طريقٍ يفتشها بفانوس؛ وقرب قدميها فوجئت بالعثور على ختم أسودٍ ضخم، سرعان ما تعرّفتُ فيه على قلنسوتى. لم يكن ضوئى يضيءُ تلك المرأة فحسب، بل يأخذُ بعضاً منها. نظرت بسرور الى القلنسوة وفكرت أنها تخصنى ولا تخص أحدا غيري؛ لكن سرعان ما أخذت عيناى تريان فى قدميها لونا أصفرا مائلا الى الاخضرار شبيها بضوء سحنتى تلك الليلة التى رأيتها فيها فى مرآة صوّان ملابسى. كان ذلك اللون يلتمع فى بعض جوانب القدم ويخفُت فى غيرها. وعلى الفور ظهرت نتفٌ بيضاء جعلتنى أفكر فى عظام الأصابع. أخذ الرعب يُدوِّم فى رأسى مثل دخانٍ مكتوم. شرعت أعاود التجوال فى ذلك الجسد؛ لم يعد كما كان، ولم أتعرف على هيئته؛ عند مستوى بطنها وجدتُ إحدى يديها، ضائعةً، ولم أر منها سوى العظام. لم أرِد النظر أكثر وبذلتُ جهدا كبيرا لأُطبق جفونى. إلاّ أن عينىّ، مثل دودتين تتحركان من تلقاء ذاتهما داخل حدقتىّ، ظلتا تجولان حتى بلغ الضوء الذى تبعثانه رأسها. كانت خالية تماما من الشعر، وكان لعظام الوجه وميضٌ شبحى مثل وميض نجمٍ من خلال تليسكوب. وعلى الفور سمعت رئيس الخدم: كان يسير بقوة، ويضيء كل الأنوار، ويتحدث مخبولا. استعادت هى هيئتها من جديد؛ لكننى لم أرد النظر إليها. من بابٍ لم أره من قبل دخل صاحب المطعم ومضى جريا ليحمل ابنته. خرج بها بين ذراعيه بينما ظهرت امرأة أخرى؛ ذهبوا جميعا، ورئيس الخدم لا يكف عن الصياح: ــ الذنبُ ذنبه؛ ففى عينيه ضوءٌ جهنمى. أنا لم أكن أريد لكنه أجبرنى ...

ما إن بقيتُ وحدى حتى فكرت أن شيئا بالغ الخطورة سيحدث لى. كان باستطاعتى الذهاب؛ لكننى بقيت حتى دخل المالك من جديد. خلفه جاء رئيس الخدم وقال: ــ أما زلت هنا!

هممتُ بالرد. تأخَّرتُ فى العثور على الإجابة؛ التى يمكن أن تكون تقريبا هكذا: "لست الشخص الذى يغادر منزلا على هذا النحو. كما أننى يجب أن أقدم توضيحا". لكن خطرت لى أيضا فكرة أن من الأكرم ألاّ أرد على رئيس الخدم. كان المالك قد اقترب منى. سوَّى شعرَه

بأصابعه وبدا مهموما جدا. رفع رأسه بكبرياء وسألنى، بحاجبين مقطّبين وعينين مُزرَّرتين:

ــ هل دعتك ابنتى للمجىء الى هذا المكان؟

بدا أن صوته يأتى من قاعٍ مزدوج كامن فى شخصه. بلغ من حيرتى أننى لم أستطع أن أقول سوى:

ــ لا، ياسيدى. جئت لأرى هذه الأشياء ... ومشت هى فوقى ...

همَّ المالك بالكلام، لكن فمه بقى نصف مفتوح. عاود تمرير أصابعه فى شعره وبدا أنه يفكر: "لم أتوقع هذا التعقيد".

شرع رئيس الخدم يشرح له من جديد الضوءَ الجهنمى وكل ما عداه. وشعرت أن حياتى بأسرها شىءٌ لن يفهمه الآخرون. أردت الفوز بكبريائى فقلت:

ــ سيدى، لن تستطيع الفهم أبداً. أرسلنى الى مركز الشرطة، إذا كان هذا يريحك أكثر.

استعاد كبرياءه بدوره:

ــ لن أطلب الشرطة لأنك كنت ضيفى؛ لكنك أسأت استغلال ثقتى، وآمل أن ترشدك كرامتك الى ما يجب أن تفعله.

عندها بدأت أفكر فى شتيمة. وأول ما خطر فى ذهنى أن أقول له "أيها القذر". لكننى على الفور أردت التفكير فى أخرى. وفى تلك اللحظات انفتحت، من تلقاء ذاتها، فترينة، وسقطت على الأرض آلة ماندولين. أنصتنا جميعا بانتباه الى صوت صندوق الرنين والأوتار. بعدها استدار المالك ومضى الى الداخل لحظةَ أن شرع رئيس الخدم فى التقاط آلة الماندولين؛ تردد فى أن يحزم أمره لالتقاطها، كأنه يتوجس من سحرٍ ما؛ إلاّ أن آلة الماندولين المسكينة بدت، بالأحرى، طائراً محنّطاً. استدرتُ أنا أيضا وبدأتُ أعبر قاعةَ الطعام جاعلا خطواتى ترنّ؛ كأننى أخطو داخل آلةٍ موسيقية.

فى الأيام التى تلت انتابنى اكتئابٌ شديد وعاودوا فصلى من العمل. وذات ليلة حاولتُ تعليق أشيائى الزجاجية فى الحائط؛ لكنها بدت لى مضحكة. كذلك أخذتُ أفقد الضوء: كنت بالكاد أرى ظهر يدى حين أمرّرها أمام عينىّ.

البلــــــــكون (*)

كان ثمة مدينةٌ يروق لي أن أزورها في الصيف. في تلك الحقبة كان حيٌّ بأكمله تقريبا يذهب إلى منتجعٍ بحري قريب. كان أحد المنازل المهجورة بالغَ القِدم؛ وفيه أقاموا فندقا وما أن يبدأ الصيف حتى يصبح المنزلُ حزينا، يأخذ في فقدان أفضل العائلات ولا يعود يسكنه سوى الخدَم. ولو اختبأتُ خلفه وأطلقتُ صرخةً، لأخمدَتها الطحالبُ على الفور.

كان يتردد على المسرح الذي أقدّم فيه حفلاتي الموسيقية قلةٌ من الناس بدوره وقد غزاه الصمت: كنت أراه يتعاظمُ في الغطاءِ الأسود للبيانو. كان يروقُ للصمتِ الاستماعُ إلى الموسيقى؛ يستمعُ حتى آخر رنينٍ ثم يظلُّ يفكّر فيما استمع إليه. كانت آراؤه تتأخر. لكن حين يكون الصمتُ جديرا بالثقة، كان يتدخَّلُ في الموسيقى: يمرُّ من بين الأصواتِ مثل قطٍ بذيله الكبير الأسود فيتركها مُفعَمةً بالنوايا.

في نهاية واحدٍ من تلك الحفلات الموسيقية، جاء يحييني عجوزٌ خجول. تحت عينيه الزرقاوين كان يُرى اللحم الحيّ والمُحمرّ لجفنيه المتدليين؛ كانت شفتُه السفلى، البالغةُ الضخامة والشبيهة بسياج خشبة مسرح، تدورُ حول فمه شبه المفتوح. ومن هناك يخرج صوتٌ مكتوم وكلماتٌ متمهلة؛ وفضلا عن ذلك، يفصِل بينها الهواءُ القلِق لتنفُّسه.

بعد فاصلٍ طويل قال لي:

ــــ أنا آسفٌ ألاّ تستطيع ابنتي الاستماع إلى موسيقاك.

لا أدري لماذا خطرَ لي أن الابنة قد صارت عمياء؛ وانتبهتُ على الفور إلى أن العمياء تستطيعُ السماع، وأنها لابد بالأحرى أن تكون قد صارت صمّاء، أو ليست في المدينة؛ وفجأة توقّفتُ عن فكرة أن تكونَ قد ماتت. ورغم ذلك كنتُ سعيدا تلك الليلة؛ ففي تلك المدينة كانت كلُّ الأشياء بطيئةً، دون ضجيجٍ وأخذتُ اخترق، مع العجوز غبَشا من الانعكاسات المُخضرّة.

سرعان ما مِلتُ نحوه ــــ مثلما في اللحظة التي يجبُ فيها العناية بشيءٍ بالغ الرهافة ــــ وخطَر لي أن أسأله:

ـــ إبنتك لا تستطيع المجيء؟

قال "آه" بنغمة صوتٍ قصيرة ومفاجئة؛ توقّف عن السير، ونظر إلى وجهي وأخيرا خرجت منه هذه الكلمات:

ـــ هذا، هذا؛ لا يمكنها الخروج. حضرتُك خمَّنت الأمر. ثمة ليالٍ لا تنامُ فيها مُفكّرةً أن عليها الخروج في اليوم التالي. وفي الغد تنهض مبكرا، تستعجِل كل شيء وينتابُها الكثيرُ من الانفعال. ثم ينقضي. وفي النهاية تجلسُ على مقعد ولا تعودُ تستطيع الخروج.

اختفي من كانوا في الحفل الموسيقى على الفور من الشوارع المحيطة بالمسرح ودخلنا نحن إلى المقهى. أشارَ إلى الجرسون فأحضروا له مشروبا داكنا في قدح. لم أكن لأرافقَه سوى بضع لحظات؛ فقد كان عليّ أن أذهب للعشاء في مكانٍ آخر. عندئذ قلت له:

ـــ من المؤسف أنها لا تستطيع الخروج. فجميعُنا بحاجة إلى أن نتمشّى ونُروِّح عن أنفسنا.

بعد أن وضع القدحَ على تلك الشفة البالغة الضخامة ولم تبتلّ، شرح لي:

ـــ إنها تُروِّح عن نفسِها. اشتريتُ منزلا قديما، مفرط الضخامة لنا نحن الاثنين، لكنه في حالةٍ جيدة. له حديقةٌ بنافورة؛ وغرفتُها لها، عند ناصية، بابٌ يؤدي إلى بلكونٍ شتوى؛ ويُطلُّ هذا البلكون على الشارع؛ يمكن القول تقريبا أنها تعيشُ في البلكون. أحيانا تتمشّى أيضا في الحديقة وفي بعض الليالي تعزف البيانو. يمكن أن تأتي حضرتك للعشاء حين تشاء وسأكون مُمتنّا.

فهمتُ على الفور؛ عندها حدّدنا اليومَ الذي سأذهب فيه للعشاء وعزف البيانو.

جاء يبحثُ عني في الفندق ذات مساء لم تكن الشمسُ فيه قد غرُبت. من بعيد، أشار لي إلى الناصية التي يقع فيها البلكونُ الشتوي. كان في دورٍ أول. مدخلُه بوابةٌ ضخمة تقع على جانب المنزل وتُطل على حديقةٍ بنافورة وتماثيل صغيرة تختفي بين الحشائش. كانت الحديقةُ مُحاطةً بجدار مرتفع؛ وفي جزئه الأعلى وضعوا قِطَعا من زجاجٍ مُثبّتةٍ بالمونة. كان الصعود إلى المنزل عبر درجٍ يقع أمام بهوٍ يمكن منه النظرُ إلى الحديقة عبر واجهةٍ زجاجية. وأدهشني أن أرى، في

الممر الطويل، عددا ضخما من الشماسي المفتوحة؛ كانت من ألوانٍ مختلفة وبدت نباتاتٍ ضخمة لصوبة. على الفور شرح لي العجوز:

ـــ الجزء الأكبر من هذه الشماسي أهديتُها أنا. ويروقها أن تكون مفتوحةً لترى الألوان. وحين يكون الجو صحوا تختار واحدةً وتقوم بجولة في الحديقة. وفي الأيام التي بها ريح لا يمكن فتح هذا الباب لأن الشماسي تطير، علينا أن ندخل من جهة أخرى.

أخذنا نسير حتى نهاية الممر عبر مسافةٍ بين الحائط والشماسي. وصلنا إلى باب، فنقر العجوز بأصابعه على الزجاج ومن الداخل أجاب صوتٌ مكتوم. جعلني العجوز أدخلُ وعلى الفور رأيتُ ابنته واقفةً وسط البلكون الشتوي؛ في مواجهتنا وخلفها زجاجٌ ملوَّن. وحين كنا قد عبرنا نصف القاعة خرجت هي من بلكونها وجاءت للقائنا. من بعيدٍ جاءت رافعةً يدها وقائلة كلمات الامتنان لزيارتي. وبجانب الحائط الذي يتلقّى أقل ضوءٍ كان يستندُ بيانو صغير مفتوح، بدت ابتسامتُه المُصفرَّة ساذجة.

اعتذرَت عن حقيقة عدم استطاعتها الخروج ومشيرةً إلى البلكون الفارغ، قالت:

ـــ إنه صديقي الوحيد.

فأشرت إلى البيانو وسألتها:

ـــ وهذا البريء، أليس صديقكِ أيضا؟

كنا جالسين على كراسي عند أقدام سريرها. أُتيحَ ليَ الوقت لرؤية لوحاتٍ صغيرة كثيرة لزهورٍ مرسومة موضوعةٍ جميعها على نفس الارتفاع وحول الحوائط الأربعة كأنها تُشكّل إفريزا. كانت قد تركت وسط وجهها ابتسامةً مهجورةً بريئةً براءةَ ابتسامة البيانو؛ إلاّ أن شعرها الأشقرَ الحائلَ اللون وجسدها النحيل بديا كذلك وكأنهما مهجورين منذ زمنٌ بعيد. بدأت تشرحُ السبب في أن البيانو لم يكن صديقها بقدر البلكون، حين خرج العجوزُ على أطراف أصابعه تقريبا. واصلَت قائلةً:

ـــ البيانو كان صديقا عظيما لأمي.

قمتُ بحركة من سيذهب لينظر إليه؛ لكنها، رافعةً يداً وفاتحةً عينيها، أوقفتني:

ـــ عذرا، أُفضِّل لو جرّبتَ البيانو بعد العشاء، حين تكون الأضواءُ مضاءةً. تعودّتُ منذ صغري على سماع البيانو في الليل فقط. حين كانت أمي تعزفه. كانت تُشعل شموع الشمعدانات الأربعة وتعزف نغماتٍ بطيئة ومتباعدة في الصمت حتى كأنها تشعل الأصوات أيضا، واحداً واحداً.

بعدها نهضَت ومُستأذِنةً مضت إلى البلكون؛ وحين وصلت إليه وضعت ذراعيها العاريتين على ألواح الزجاج كأنها تستندهما على صدر شخصٍ آخر. لكنها استدارت على الفور وقالت لي:

ـــ حين أرى رجلا يمرّ عدة مراتٍ عبر لوحِ الزجاج الأحمر، يتضحُ على الدوام تقريبا أنه عنيفٌ أو سيء الطبع.

لم استطع الامتناع عن سؤالها:

ـــ وأنا، أي لوحٍ زجاجٍ كان من نصيبي؟

ـــ الأخضر. على الدوام تقريبا يكون من نصيب الأشخاص الذين يعيشون وحيدين في الريف.

ـــ بالصدفة تروقني الوحدةُ بين النباتات ـــ أجبتها.

انفتح البابُ الذي كنتُ قد دخلتُ منه وظهر العجوز تتبعه خادمةٌ من القِصَر بحيث لم أدر إن كانت طفلةً أم قِزمة. ظهر وجهها الأحمر فوق المنضدة الصغيرة التي كانت تحملها بين ذراعيها الصغيرين. سألني العجوز:

ـــ أي مشروبٍ تفضّل؟

كنت سأقول "ولا واحد"؛ لكني فكرت أنني سأضايقهما فطلبتُ مشروبا أيّا كان. أحضروا له قدحا بالمشروب الداكن الذي رأيته يتناوله عند الخروج من الحفل الموسيقي. وحين خيّم الليلُ تماما ذهبنَا إلى غرفة الطعام ومررنا ببهو الشماسي؛ غيّرت هي مكان بعضها وبينما كنتُ أمتدحها طفَرَ وجهُها بالسعادة.

كانت غرفة الطعام في مستوى منخفضٍ عن الشارع ومن خلال نوافذَ صغيرةٍ ذات قضبان كانت تُرى أقدام وسيقان من يمرون على الرصيف. كان الضوءُ يخرج بالكادِ من أباجورة خضراء،

ويسقطُ على مَفرشٍ أبيض؛ هناك كانت قد اجتمعت، مثلما لاحتفالٍ للذكريات، الأشياءُ القديمة للعائلة. وما كدنا نجلس، حتى بقينا ثلاثتنا صامتين للحظة؛ عندها بدت كلُ الأشياء على المائدة أشكالا دقيقةً للصمت. بدأت تدخُلُ إلى المفرش أزواجُ أيدينا: فبدت سُكَّانا طبيعيين للمائدة. لم أستطع التوقف عن التفكير في حياة الأيدي. منذ سنواتٍ عديدة أجبَرَت بعضُ الأيدي أشياءَ المائدة هذه على اكتساب شكلٍ. بعد جولاتٍ طويلة وجدَت موضعا في واجهةٍ. كان يتوجَّبُ على كائنات الآنية هذه أن تخدمَ كلَّ أنواع الأيدي. ستُفرغُ أيٌّ منها الأطعمةَ في الوجوه الناعمة واللامعةِ للأطباق؛ وستُجبر الدوارقَ على ملء وصبِّ مؤخراتها؛ وأدواتِ المائدة، على الغوصِ في اللحم، وتمزيقِه ورفعِ القطع إلى الفم. وفي النهاية تنالُ كائناتُ الآنية الاستحمامَ، والتجفيف، وتُقادُ إلى غُرَفِها الضئيلة. ويمكن لبعض هذه الكائنات أن تحيا أكثر من كثيرٍ من أزواج الأيدي؛ قد تكون بعضُ الأيدي طيبةً معها، ستحبُها وتُفعِمُها بالذكريات؛ لكن على هذه الكائنات أن تواصل الخدمةَ في صمت.

منذ برهة، حين وجدنا أنفسَنا في غرفة إبنة البيت ولم تُضيء هي النور ــــ كانت تودُّ الاستمتاع حتى آخر لحظةٍ بالوميض القادم من البلكون ــــ، كنا نتحدث عن الأشياء. وبقدر ما كان الضوءُ يخفت، كانت تلك تُقعي في الظُلمة كأن لها ريشٌ وتستعد للنوم. عندها قالت هي أن الأشياءَ تكتسبُ روحا بقدر ما تدخلُ في علاقةٍ مع الأشخاص. بعضها كانت من قبل أشياءَ أخرى وكانت لها روحٌ أخرى (بعضها التي لها الآن أقدام، كانت لها من قبل أغصان، وكانت أصابع البيانو أنيابا)، لكن بلكونها اكتسبَ روحا لأول مرةٍ حين بدأت هي تحيا فيه.

على الفور ظهر عند حافة المفرش وجه القِزمة الأحمر. ورغم أنها كانت تضعُ بإصرارٍ ذراعيها الصغيرتين على المائدة حتى تأخذ اليدين الصغيرتين الأشياء، كان العجوز وابنته يُقرِّبان الأطباقَ إلى حافة المائدة. لكن بينما تأخذ القِزمةُ أشياءَ المائدة، كانت هذه الأشياءُ تفقِدُ كبرياءَها. وفضلا عن ذلك كان للعجوز طريقةٌ متعجِّلة ومُهينة لسحب الزجاجة من عنقها وإمالتها حتى ينسكب منها النبيذ.

في البداية كانت المحادثةُ صعبةً. وبعدها ظهرت ساعةٌ ضخمة واقفة وهي تضرِبُ جرسا؛ كانت قد تحركت بحذاء الحائط

الواقع خلف العجوز؛ لكنني كنت قد نسيتُ وجودها؛ عندها بدأنا نتحادث. سألتني:

ـــ ألا تشعرُ حضرتُك بالإعزاز تجاه الملابس القديمة؟

ـــ كيف لا! ووِفق ما قُلته حضرتكِ عن الأشياء، فإن الثيابَ هي التي كانت في أوثق علاقةٍ معنا ـــ هنا ضحكتُ وبقيَت هي جادةً ـــ؛ ولن يبدو لي مستحيلا أن تحتفظَ منّا بشيءٍ أكثرَ من الشكلِ الإجباري للجسم وبعض انبعاثات الجلد.

لكنها لم تسمَعني وحاولَت مُقاطَعتي مثل شخصٍ يحاولُ الدخول لينُطّ وهم يُطوِّحون الحبل. ولا شك أنها كانت توجِّه لي السؤال وهي تفكر فيما يمكن أن تجيبَه هي. وأخيرا قالت:

ـــ أنا أنظمُ أشعاري بعد أن أكونَ مستلقيةً ـــ بالفعل، في المساء كانت قد ألمحت إلى تلك الأشعار ـــ ولديّ قميص نومٍ أبيض يُصاحبُني منذ قصائدي الأولى. في بعض ليالي الصيف أذهبُ معَه إلى البلكون. والعام الماضي كرّستُ له قصيدة.

كانت قد كفَّت عن الأكل ولم يهمَّها أن تضع القِزمة ذراعيها الصغيرتين على المائدة. فتحت عينيها كأنها أمام رؤيا وبدأت تُلقي الشعر:

ـــ إلى قميص نومي الأبيض.

صلَّبتُ جسدي كله وفي نفس الوقت راقبتُ يديّ القِزمة. أخذت أصابعُها الضئيلة، البالغة الصلابة، تتدحرجُ مُنطويةً حتى الأشياء، وفي اللحظة الأخيرة فحسب تنفتحُ لتُمسِك بها.

في البداية انشغلتُ بإظهار طرقٍ مختلفة من الاهتمام: لكنني بعدها ظللتُ أقومُ بحركة توكيدٍ برأسي، تطابقَت مع وصول البندول إلى أحد جانبي الساعة. وأحنقني هذا؛ كما عذَّبني خاطرُ أنها سرعان ما تنتهي ولم أُعِدَّ شيئا أقولُه لها؛ وفضلا عن ذلك، كان قليلٌ من البنجر قد بقي على حافة الشفةِ السفلى للعجوز قريبا جدا من زاوية الفم.

كان الشِعر مُبتذلا؛ لكنه جيّدُ الوزن؛ لم تكن أيٌّ من الكلمات التي أتوقعُها تتَّفقُ في القافية مع "قميص نوم camisón"؛ يمكن أن أقول لها أن القصيدةَ طازجةٌ. نظرتُ إلى العجوز ومرّرت عند ذلك لساني على شفتي السفلى؛ لكنه كان يستمع إلى الإبنة. الآن بدأتُ أعاني لأن القصيدةَ لا تنتهي. وسرعان ما قالت "بلكونbalcón، وهنا انتهت القصيدة.

بعد الكلمات الأولي، أخذت أستمعُ بهدوء وأُعطي الآخرين انطباعَ أنني أبحثُ عن شيءٍ كنت على وشك العثورِ عليه.

ـــ تلفِتُ انتباهي ـــ بدأت ـــ صفةُ المراهقةِ التي بقيت في القصيدة. إنها طازجةٌ جدا و ...

حين بدأت أقول "إنها طازجةٌ جدا"، بدأت هي أيضا تقول:

ـــ صنعتُ أخرى ...

شعرت أنني تعيسُ الحظّ؛ وصلت القِزمة بإناءٍ آخر وأخذتُ بارتياحٍ كميةً جيدة. لم تبقَ أيةُ مكانةٍ: لا لأشياءِ المائدة، ولا للشِعر، ولا للمنزِل فوقي، بممر الشماسي، ولا للنباتاتِ المتسلِّقة التي تكسو جانبا بأكمله من المنزل. والأسوأ، أنني شعرت بأنني مُنفصلٌ عنهما وكنت آكلُ بطريقة الأوغاد؛ لم يكن العجوز يُمسك مرةً بعنق الزجاجةِ وأجدُ كأسي فارغا.

حين أنهَت القصيدةَ الثانية، قلتُ:

ـــ لو لم يكن هذا شَهيًّا إلى هذه الدرجة ـــ أشرتُ إلى الطبق ـــ، لكنت طلبتُ أن تقولي أخرى.

على الفور قال العجوز:

ـــ أولاً يجب عليها أن تأكل. وبعدها سيتسعُ الوقت.

بدأتُ أجعلُ نفسي كلْبيًّا، وفي تلك اللحظة لم يكن ليهمُّني أن ينمو لي كرشٌ ضخم. لكنني سرعان ما شعرتُ بضرورة أن أُمسِك بسُترةِ ذلك العجوز البائس وأمنحَه لحظةً من السخاء. عندها مشيرا إلى النبيذ قلتُ له أن حكايةً عن مخمورٍ قِيلت لي منذ وقتٍ قصير. حكيتُها، وحين فرغتُ، بدأ الاثنان يضحكان بصورةٍ يائسة؛ بعدها واصلتُ حكي غيرها. كانت ضحكتُها مؤلمة؛ لكنها طلبَت بأدبٍ أن أواصل حكي الحكايات؛ كان فمُها قد تمدَّد إلى الجانبين مثل شِقٍ مؤثِّر؛ وظلت تجاعيدُ "قدم الديك" مربوطةً بعينيها المليئتين بالدموع، وشبكَت يديها بين ركبتيها. وكان العجوز يسعُل واضطّر لترك الزجاجة قبل أن يملأ الكأس. وضحكت القِزمة مؤديةً ما يشبه التحية بنصف جسدها.

بأعجوبةٍ أصبحنا جميعا متّحدين،ولم يساورني أدنى ندم.

تلك الليلة لم أعزف البيانو. رجياني أن أبقى، وأخذاني إلى غرفة نومٍ على جانب المنزل الذي به شبكة النباتات

المتسلقة. وعند بدء صعودِ السلم، لاحظتُ أن خيطا يخرجُ من الساعة القائمة ويمضي مُتتبِّعا السلم، بكل التفافاته. وعند الوصول إلى غرفة النوم، كان الخيط يدخل حتى يصبح مربوطا في أحد الأعمدة الصغيرة لقُبَّة سريري. كان الأثاث أصفرَ، عتيقا، يجعل ضوءُ مصباحٍ أمعاءَه تلمعُ. وضعتُ يدي على بطني ونظرتُ إلى بطن العجوز. وكانت آخر كلماته لتلك الليلة لينصحني:

ـــ إذا شعرت حضرتك بأنك مؤرَّق وتريدُ معرفة الساعة، إجذب هذا الخيط. ومن هنا ستسمعُ ساعةَ غرفة الطعام؛ ستعطي الساعات أولا، وبعد برهة، الدقائق.

سرعان ما بدأ يضحك، ومضي متمنيا لي "ليلةً سعيدة". لا شك أن سيتذكّر واحدة من الحكايات، حكايةَ المخمور الذي يتحدث مع ساعة.

كان العجوز ما زال يحدِثُ صريرا في السلم الخشبي بخطواته الثقيلة حين شعرتُ فعلا بأنني وحيدٌ مع جسدي. وهو ـــ جسدي ـــ كان قد اجتذبَ نحوه كلَّ تلك المآكل وكل ذاك الكحول مثل حيوانٍ يبتلعُ حيواناتٍ أخرى؛ وعليه الآن أن يُصارِع معها طوال الليل. عرّيتُهُ تماما وجعلتُه يتمشّى حافيا عبر الغرفة.

فور أن تمدّدتُ أردتُ أن أعرف ماذا كنتُ أفعل بحياتي في تلك الأيام؛ تلقيتُ من الذاكرة بعض أحداث الأيام السابقة، وفكرت في أشخاصٍ كانوا نائين تماما عن هناك. ثم بدأتُ أنزلق بحزنٍ وبشيءٍ من الصفاقةٍ في شيءٍ كان مثل أمعاء الصمت.

في الصباح التالي قمتُ باستعراضٍ باسم وشبه سعيدٍ لأشياء حياتي. كان الوقت مبكراً جدا؛ ارتديتُ ثيابي ببطء وخرجت إلى ممرٍ يرتفعُ أمتارا قليلة عن الحديقة. على هذا الجانب أيضا كان ثمة حشائشُ عالية وأشجار كثيفة. سمعتُ العجوزَ وابنته يتحدثان، واكتشفتُ أنهما جالسان على دِكَّةٍ ملونة تحت قدميّ. سمعت أولا ما كانت تقوله هي:

ـــ الآن تُعاني أورسُولا أكثر؛ فهي لا تحبُّ زوجها أقل فحسب، بل تحبُّ الآخر أكثر.

ـــ سأل العجوز:

ـــ ولا تستطيعُ أن تُطَلَّقَ؟

ـــ لا؛ لأنها تحب الأبناءَ، والأبناء يحبون الزوج ولا يحبون الآخر.

عندها قال العجوز بكثيرٍ من الحياء:

ـــ يمكنها أن تقول للأبناء أن الزوجَ له عشيقاتٌ عديدات.

نهضت الإبنة غاضبة:

ـــ أنت دائما هكذا! متي ستفهم أورسولا! لاتستطيعُ أن تفعل هذا!

ثار فضولي بشدة. لا يمكنُ أن تكون القِزمة ـــ فاسمها تاماريندا ـــ. كانا يعيشان، حسب ما قال لي العجوز، وحيدين تماما. وهذه الأخبار؟ هل يكونا قد تلقَّياها بالليل؟ بعد الغضب، كانت قد ذهبَت إلى غرفة الطعام وبعد برهة خرجَت إلى الحديقة تحت شمسيةٍ بلونٍ بَصَلي بأهدابٍ ذات شرائط بيضاء. وعند الظهر لم تأت إلى المائدة. أكلنا أنا والعجوز قليلا وتناولا قليلا من النبيذ. ثم خرجتُ أنا لأشتري كتابا بقصد قراءَته في منزلٍ مجهور بين الحشائش، في ليلةٍ خرساء وبعد الأكلِ والشراب بوفرة.

حين عُدتُ مرَّ أمام البلكون، قبلي بقليل، زنجيٌ بائس عجوزٌ وأعرج، بقبعةٍ خضراء ذات حافة بالغة الاتساع مثل تلك التي يستخدمها المكسيكيون.

شوهدَت بقعةٌ بيضاء من اللحم، متكئةً على زجاج البلكون الأخضر.

تلك الليلة، فور أن جلسنا إلى المائدة، بدأتُ أقصُّ الحكايات، ولم تُلقِ هي شعرا.

أفادت الضحكاتُ التي أطلقناها أنا والعجوز في ابتلاع كمياتٍ هائلة من الطعام والأنبذة.

وجاءت لحظةٌ بقينا فيها صامتين. بعدها، قالت لنا الإبنة:

ـــ الليلة أودُّ الاستماع إلى الموسيقى. سأذهب إلى غرفتي أولا وأُشعِلُ شموع البيانو. مضى وقتٌ طويل دون إشعالها. سيعتقدُ البيانو، هذا الصديقُ المسكين لماما، أنها من سيعزفُ عليه.

لم ننطق كلمةً واحدة لا أنا ولا العجوز. وبعد برهةٍ جاءت تاماريندا لتقول لنا أن السنيوريتا تنتظرنا.

حين شرعتُ في عزفِ النغمةِ الأولى، بدا الصمتُ حيواناً ثقيلا قد رفعَ قدَما. وبعد النغمة الأولى خرجت أصواتٌ بدأت ترتجف كضوءِ الشموع. عزفتُ نغمةً أخرى كأنني أتقدّمُ خطوةً أخرى. وبعد لحظات قليلة، وقبل أن أعزفَ نغمةً أخرى، انفجرَ وَترٌ. صرخَت هي. توقّفنا أنا والعجوز؛ مضى هو نحو ابنته، التي غطَّت عينيها، وبدأ يُهدِّئها قائلا لها أن الأوتار كانت قديمةً ومليئة بالصدأ. لكنها لم ترفع يديها عن عينيها بينما تُحرِّك رأسها نفيا. لم أدر ماذا أفعل؛ فلم ينفجر مني وترٌ أبدا. طلبتُ الإذن للذهاب إلى غرفتي؛ وعند مروري بالممر خِفتُ أن أدوس شمسيةً.

في الصباح التالي وصلتُ متأخرا إلى موعد العجوز والإبنة على دكة الحديقة؛ لكني استطعتُ سماعَ الإبنة تقول:

ـــ حبيبُ أورسولا كان يرتدي قبعةً خضراء كبيرة بحافةٍ بالغة الاتساع.

لم أستطع التفكير في أنه ذلك الزنجيُّ العجوز الأعرج الذي كنت قد رأيته يمر أصيل اليوم السابق؛ كما لم أستطع التفكير فيمن يمكنُ أن يجلبَ تلك الأخبار بالليل.

عند الظهر عُدنا لتناول الغداء وحدنا أنا والعجوز. فانتهزتُ الفرصة لأقول له:

ـــ المنظرُ جميلٌ جدا من الممر. اليوم لم أبقَ أكثر لأن حضرتكما كنتما تتحدّثان عن واحدةٍ إسمها أورسولا، وخِفتُ أن أكون متطفلا.

كف العجوز عن الأكل، وسألني بصوتٍ خفيض:

ـــ هل سمعتَ حضرتك؟

رأيتُ الطريقَ سهلاً للثقة، فأجبته:

ـــ نعم، سمعتُ كل شيء؛ لكنني لا أفهم كيف تجدُ أورسولا فتىً جيدا ذلك الزنجيَ العجوزَ الأعرج الذي كان بالأمس يرتدي القبعة الخضراء ذات الحافة البالغة الاتساع!

ـــ آه! ـــ قال العجوز ـــ، حضرتك لم تَفهم. منذ أن كانت ابنتي طفلةً تقريبا كانت تُجبِرني على سماع وعلى التدخل في

حياة شخصياتٍ تخترعها هي. ودائما ما تتبَّعنا مصائرها كأنها موجودةٌ فعلا ونحن نتلقَّى أخبارا عن حياتها. تنسبُ هي إلى هذه الشخصيات أفعالا وثيابا تلمحُها من البلكون. وإذا كانت قد رأت بالأمس رجلا يمرُّ بقبعة خضراء، فليس من المستغرب أن تُلبِسها اليوم لإحدي شخصياتها. أنا أحمقُ من أن أتتبعَ تلك الابتكارات، وهي تغضبُ مني. لماذا لا تساعدُها حضرتك؟ إذا أردتَ فأنا ...

لم أدعه يُكمل.

ـــ لا يمكن، يا سيدي. قد أخترعُ أشياء يمكن أن تُسبّبَ لها أذى.

وفي الليل لم تأتِ هي أيضا إلى المائدة. أكلنا، وشربنا، وتحادثنا أنا والعجوز حتى ساعةٍ متأخرة من الليل.

بعد أن استلقيتُ أحسستُ بصرير خشبٍ ليس خشبَ الأثاث. وأخيرا فهمتُ أن أحدا يصعد السلم. وبعد لحظات قليلة سمعتُ طرقا خفيفا على بابي. سألتُ مَن، فأجابني صوت الإبنة:

ـــ إنها أنا؛ أودُّ أن أتحدَّث معك.

أضأتُ المصباح، فتحتُ فرجةً في الباب فقالت لي: ـــ من العبث أن تفتحَ الباب مُواربا؛ فأنا أرى المرآة من فرجة الباب، والمرآة تعكِس حضرتَك عاريا تماما خلف الباب.

أغلقتُ على الفور وقلتُ لها أن تنتظر. حين أشرتُ إليها أن بإمكانها الدخول فتحَت بابَ الدخول واتجهَت إلى بابٍ آخر في غرفتي لم أستطِع أبدا أن أفتَحه. فتحتهُ هي بكل سهولةٍ ودخلت تتحسّس في ظلمة غرفةٍ أخرى لا أعرفها. وبعد لحظة خرجت من هناك بكرسيٍ وضعته بجانب فراشي. فتحَت عباءةً زرقاء كانت ترتديها وأخرجت دفترا للأشعار. بينما كانت تقرأ بذلتُ أنا جُهدا هائلا لئلا أنعس؛ أردتُ أن أرفع جفنيّ ولم أستطع؛ وبدلا من ذلك، أخذتُ أُديرُ عينَيّ إلى أعلى ولابد أنني بدوتُ مُحتَضِرا. وسرعان ما أطلقَت هي صرخةً مثلما حين انفجر وترُ البيانو، فقفزتُ في السرير. وسط الأرضية كان عنكبوتٌ بالغُ الضخامة. لحظة أن رأيتُه لم يكن يتحرك: كان قد كرمَش ثلاثا من قوائمه المُشعِرة، كأنه سيقفِز. بعدها قَذفتُه بالحذاء دون أن أُصيبَه. نهضتُ، لكنها قالت لي ألاّ أقترب، فهذا العنكبوت يقفِز. أخذتُ المصباح، ودُرتُ في الغرفة قربَ الحوائط حتى بلغتُ الحوضَ، ومن هناك قذفتُه

بالصابون، بغطاءِ الصبّانة، بالفرشاةِ، ولم أُصِبه إلاّ حين قذفتُه بالصبّانة. لفَّ العنكبوتُ قوائمه وصار كرةً صغيرة من الصوف الداكن. طلبَت مني ابنةُ العجوز ألاّ أقول شيئا للأب لأنه يُعارض أن تعمل هي أو تقرأ إلى هذا الوقت المتأخر. بعد أن انصرفَت، سحقتُ العنكبوتَ بكعب الحذاء واستلقيتُ دون أن أطفيء النور. وحين كنتُ على وشك النوم، طويتُ عن غير قصدٍ أصابعَ قدميّ؛ وجعلني هذا أظنُ أن العنكبوتَ هناك، فعاودتُ القفز.

في الصباح التالي جاء العجوزُ يعتذر عن العنكبوت. كانت ابنته قد حكت له كل شيء. قلتُ للعجوز أن لا شيء من هذا كله له أدنى أهمية، وكي أغيِّر الحديث حدَّثتُه عن حفلٍ موسيقيٍ كنت أفكر في إقامته تلك الأيام في مكانٍ مجاور. اعتقد هو أن ذلك كان ذريعةً لأنصرف، وكان عليّ أن أعدُه بالعودة بعد الحفل الموسيقي.

حين انصرفت، لم أتمكن من تجنّب أن تُقبِّل الإبنة يدي: لم أدرِ ماذا أفعل. تعانقنا أنا والعجوز، وفجأة أحسستُ أنه يُقبّلني قربَ أذني.

لم أستطع تقديمَ الحفل الموسيقي. تلقيتُ بعد أيامٍ قليلة مكالمةً تليفونية من العجوز. بعد الكلمات الأولى، قال لي:

ــــ من الضروري وجودُك هنا.

ــــ هل وقع شيءٌ خطير؟

ــــ يمكن القولُ أنها تعاسةٌ حقيقية.

ــــ لابنتك؟

ــــ لا.

ــــ لتاماريندا؟

ــــ ولا هذه. لا يمكنني أن أقولَ لك الآن. لو استطعتَ إرجاءَ الحفل الموسيقي فتعالَ في قِطار الرابِعة وسنتقابلُ في مقهى المسرح.

ــــ لكن ابنتك بخير؟

ـــ إنها في الفراش. ليس بها شيء، لكنها لا تريدُ النهوضَ ولا رؤيةَ ضوء النهار؛ تحيا فقط في ضوءٍ اصطناعي، وأمرَت بإغلاق كل الشماسي.

ـــ حسنا. إلى اللقاء.

كان في مقهى المسرح الكثيرُ من الصخب، فذهبنا إلى مكانٍ آخر. كان العجوز مُحبَطا، لكنه تناولَ على الفور الآمالَ التي أتحتُها له. أحضروا له المشروبَ الداكن في القدح، وقال لي:

ـــ أمس الأول وقعَ إعصَارٌ، وعند المساء كنا في غرفة الطعام. أحسسنا بدويٍ هائل، وعلى الفور انتبهنا أنه لم يكن الإعصار. جرَت ابنتي إلى غرفتها ومضيتُ خلفها. حين وصلتُ كانت قد فتحت الأبوابَ المؤدِّية إلى البلكون، فلم تجد شيئا سوى السماءِ وضوءِ الإعصار. غَطّت عينيها وغابَت عن الوعي.

ـــ على هذا النحو آذَاها ذلك الضوء؟

ـــ لكن، يا صديقي! ألم تفهم حضرتك؟

ـــ ماذا؟

ـــ لقد فَقَدنا البلكون! البكونُ سقَط! لم يكن ذلك ضوُء البلكون!

ـــ لكن بلكونا ...

فضّلتُ أن أُغلِق فمي. كلّفَني ألاّ أقول لابنته كلمةً واحدةً عن البلكون. وأنا، ماذا سأفعل؟ كان العجوز المسكين يثقُ فيّ. فكرتُ في الاحتفالات الصاخبة التي عشناها سويا. ومن ثم قرّرت أن أنتظر بنعومةٍ أن يخطُر لي شيء حين أكون معها.

كان شيئا مُقبِضا أن أرى الممر دون شماسي.

تلك الليلة أكلنا وشربنا قليلا. بعدها ذهبتُ مع العجوز حتى فراش الإبنة وعلى الفور خرجَ هو من الغرفة. لم تكن قد نطقَت كلمةً واحدة؛ لكن ما أن ذهب العجوز حتى نظرَت صوب الباب المؤدي إلى الفراغ وقالت لي:

ـــ أرأيتَ كيف مَضَى عنّا؟

ـــ لكن ، يا آنستي! بلكونٌ يسقُط ...

ـــ لم يسقُط. قَذَفَ نفسَه.

ـــ حسنا، لكن ...

ـــ لم أُحبّه أنا وحدي؛ أنا واثقةٌ أنه أيضا أحبّني؛ فقد أظهَر لي ذلك.

أحنيتُ رأسي. شعرتُ أنني مُشتبكٌ في فصلٍ من المسئولية لم أكن مُستعدًّا له. كانت قد بدأت تصُبُّ لي روحها ولم أدرِ كيف أتلقاها ولا ماذا أفعل بها.

الآن كانت الفتاة البائسة تقول:

ـــ أنا المذنِبَةُ في كل شيء. لقد تملّكتهُ الغيرةُ ليلةَ أن ذهبتُ إلى غرفتك.

ـــ من؟

ـــ من سيكون؟ البلكون، بلكوني.

ـــ لكن، يا آنسة، أنت تُفكرين كثيرا في ذلك. لقد كان عجوزا بالفعل. ثمة أشياءُ تسقط بفعل وزنِها ذاته.

لم تكن تستمعُ إليّ، واستمرت تقول:

تلك الليلة ذاتَها فهِمتُ الإنذارَ والتهديد.

ـــ لكن أنصتي، كيف يكونُ ممكنا أن؟ ...

ـــ ألا تذكرُ من هدّدَني؟ ... من حدَّق فيَّ النظرَ وهلةً طويلة ورفعَ تلك القوائمِ الثلاثة المشعِرة؟

ـــ أوه!، عندكِ حق. العنكبوت!

ـــ كل هذا من عملِه.

رفعَت جفنيها. ثم دفعَت الأغطيةَ إلى جانبٍ ونزلَت من السرير بقميص النوم. مضَت نحو البابِ المؤدّي إلى البلكون، وفكرتُ أنها ستُلقي بنفسِها إلى الفراغ. قمتُ بحركةٍ من سيُمسِك بها؛ لكنها كانت بقميص النوم. وبينما ظللتُ مُتردِّدا، كانت قد حدّدَت مسارها. اتجهَت إلى منضدةٍ صغيرة كانت بجوار الباب المؤدي إلى الفراغ. وقبل أن تصِلَ إلى المنضدة الصغيرة، رأيتُ دفترَ الأشعار ذا الغلافِ الجلديِّ الأسود.

عندها جلسَت هي على كرسيّ، وفتحَت الدفترَ وبدأت تتلو:

ـــ أرملةُ البلكون ...

(*) البلكون: المقصود بالبلكون هنا الشرفة. لكن الشرفة مؤنثة وكما سيرى القاريء نحتاج أن يكون الاسم مذكّرا، ففضلنا كلمة البلكون الأكثر شيوعا في الاستخدام اليومي.

غرفـــــة الطعـــــام المُعتِمـــــة

خلال بضعة أشهر تمثّل عملي في عزف البيانو في غرفة طعامٍ معتمة. كان يسمعني شخصٌ واحد. لم يكن مهتما بالاستماع إلى عزفي أنا بالذات. وكنت أنا، من جهةٍ أخرى، أعزف دون رغبةٍ على الإطلاق. لكن في الوقت الذي يجب أن ينقضي بين أداء مقطوعتين ـــ وهو وقت لم يكن يتكلم فيه أيٌ منّا ـــ، كان يسود صمتٌ يجعل أفكاري تعمل بطريقةٍ غير معهودة.

كنت قد ذهبتُ أولا ذات مساءٍ إلى جمعية عازفي البيانو. كان الفتية هناك قد حصلوا لي مراتٍ كثيرة على عمل في فرقِ أوركسترا موسيقى شعبية، وكانوا قد رعوا منذ وقتٍ قصير حفلا لي.

ذلك المساء انتحى بي مديرُ الجمعية جانبا:

ـــ تشيه*(1)، لدي عملٌ صغير لك. ليس شيئا (كان قد بدأ بالفعل يرسم سحنةَ قصدٍ آخر) لكن يمكن أن يكون مستقبله عظيما بالنسبة لك. تودّ أرملةٌ ثرية أن تُعزف لها الموسيقى مرتين أسبوعيا. جلستان كل منهما ساعة وتدفع خمسين للجلسة.

هنا توقف وخرج للحظة لأنهم كانوا ينادونه من الغرفة المجاورة .

كان يظن أنني سيُكئبني أن أعمل مقابل مبلغ بهذه الضآلة؛ وقال كلَّ شيء بما يشبه الدعابة وبنبرة من يريد أن يُقنعتي، فقد كان العمل قليلا ومن المناسب أن أتمسك بأول ما يقابلني.

كان يمكنني أن أُسِرّ له عن طيب خاطرٍ برضاي عن ذلك العرض؛ لكن سيكون أمرا بالغ الصعوبة عليّ أن أشرح، وعليه أن يفهم، لماذا أحتاجُ إلى دخول منازل مجهولة.

حين عاد كنتُ أعوم في خيلاءٍ تام، اعتقدتُ أن الأرملة كانت قد استمعت إلى حفلاتي الموسيقية، أو سمعت اسمي، أو رأت صورا فوتوغرافية أو مقالات في الصحف. فسألته:

ـــ هل طلبَت هي البحث عني؟

ـــ لا، طلبَت البحث عن عازف بيانو.

ـــ لأداء موسيقى جيدة؟

ـــ لا أدري. رتِّب أنت معها. ها هو العنوان. عليك أن تسأل عن السنيوره مونييكا. (2)

كان للمنزل شرفاتٌ رخامية عالية. وما أن دخلت البهو حتى أوقفتني أبعادٌ غير معهودة ورخامٌ أرقى من رخام الشرفة؛ كان بألوانٍ غير محددة ورغم كونه هناك بدا أنه يحيا في أماكن نائية.

نظرَتْ إليّ ألواحُ الزجاج المشطوفِ الحافةِ في الأبواب المؤدية إلى الفناء؛ لم يكن بالأبواب خشبٌ كثير وبدت كسيداتٍ بثياب سهرةٍ أو ذوات قوامٍ ضئيل؛ كانت الستائر رقيقةً وتُعطي الانطباع بأن المرء يُباغتُ الأبواب وهي بثيابها الداخلية. ووراء الأبواب كانت تُرى، وهي تميل بالكاد، نبتةُ سرخسٍ تكاد تبلغ طولَ نخلة.

مرت برهةٌ بعد أن ضغطتُ الجرس حين رأيتُ في عمق الفناء امرأةً ضخمة تظهر. وحتى فتحَت الباب لم أشأ الاقتناع بأن سيجارةً تتدلى من شفتيها. سألتْ، دون أن تحييني:

ـــ هل أتيت حضرتك من جمعية عازفي البيانو؟

لم أكد أجيبها حتى فتحَت الباب، استدارت وسارت نحو الفناء كأنها تُشير لي أن أتبعها. ظلَّت ملتصقةً بعيني، لا تزال، ذكرى فمها لحظة أن كلّمتني؛ كانت شفتاها ممتلئتين وبينهما تتأرجح السيجارةُ المشتعلة. أدخلتني إلى ركنٍ من الفناء لم يكن مَرئيا من البهو. وما أن جلستُ على كرسيٍ أشارَت لي إليه بنظرةٍ أسبلت فيها جفونها، حتى سألتُها:

ـــ هل حضرتك السنيورة مونييكا؟

ـــ لو سمعتكَ السنيورة مونييكا تقولُ لي هذا، لطردَتنا نحن الاثنين. لكن لا تحزن، فقد عملتُ حساب كل شيء.

فتحَت الباب المؤدي إلى غرفة الطعام. كان مرسوما على الزجاج منظرٌ لطيور اللّقلق. كانت رأس السيدة تحاذي ارتفاعا للزجاج تظهر فيه أيضا رأسُ طائر لقلقٍ في منقاره سمكةٌ على وشك أن يلتهمها.

بالكاد أُتيح لي الوقت للنظر إلى الفناء الكبير، المليء بالنباتات والقيشاني الملون؛ فعلى الفور عاودَت الظهور المرأةُ الشقراء بطبق حلوى صغير. جلسَت على كرسيٍ قريب من مقعدي ووضعت الطبق على كرسيٍ آخر. عندها قالت:

ــــ لن تتأخر كثيرا. عوَّدتُها أن ترِنَّ الجرسَ كلما وصلت. قلتُ لها أنها لو تركت البابَ مفتوحا فربما سرقوا منها شيئا.

كنت سأتكلم فلم أجد صوتي؛ تأخّرتُ كأنما توجّبَ عليّ البحثُ عن الصوت في بعض جيوبي.

ــــ كان ذوقُها جيدا ...

لم تدعني أكمل.

ــــ ليس الذوق ذوقها. هنا كان يعيش "دوتّور"(3). ماتت له ابنة فباع البيتَ إلى هذه، التي كانت أرملةً وثرية منذ شبابها.

ألقت رمادَ السيجارة في طبق الحلوى الصغير واعتقدتُ أن الطبق سيقع.

ــــ ما لم يكن لدي "الدتّور" هو البيانو. اشترته هذه؛ وكلّفها الشيءَ الفلاني.

نظرت إليها فاتحا عينيّ وربما فمي. بدا أنها تُعجبها طريقتي في الإنصات، لأنها بعد كثيرٍ من الصمت المُهين ظلّت تتحدث حتى جاءت صاحبةُ المنزل. كان أكثر ما يجعلها تتحادث هو ما يتعلق بالسنيورة مونييكا؛ فمهما بدأَت بالحديث عن شيءٍ آخر بدا أنها دون أن تدري تنزلقُ ببطء حتى تقع في نفس الموضوع.

سألتُها:

ــــ هل السنيورة مونييكا طويلةٌ مثل حضرتك؟

ضحكَت.

ــــ حين أتينا هنا كان عليّ أن أخفِض كل المرايا؛ ومن يجب أن تنحني هي أنا.

وفجأةً ودون مناسبة عاودَت الحديث عن البيانو: كان كأنه شيءٌ تركته يستوي على النار وعليها الآن أن تواصل تقليبه.

ـــ كلّفها البيانو الشيءَ الفلاني. اشترته حتى يعزفَ عليه خطيبٌ كان لها. ألَّفَ تانجو وسماه باسم "مونييكا"، من أجلها. وبعدها، ذات ليلةٍ كان سيذهبُ فيها إلى بوينوس آيريس ولم يُرِد أن نذهبَ لتوديعه، انتابتها نزوةٌ فذهبنا نحن الاثنتان. لكنه وصل متأخرا إلى الوابور(4)؛ أتي مُتأبِّطا ذراعَ أخرى وصعدا جريا "سلّم القطار".

قمتُ بحركةٍ من يُمسك بالطبق لحظة أن اعتقدتُ أنه سيقع. فهمَتْ وقالت لي ألاّ أخاف؛ لكن لأن الجرس رنّ خرجت تجري ومعها الطبق ودلفَت إلى ممر اللقالق.

بعد لحظاتٍ قليلة أستطعتُ رؤية بقعةٍ بنفسجية مُلتصقة بالباب المؤدي إلى البهو. كانت أظافرُ مُتعجِّلة تطرقُ الزجاج. حين فتحَت المرأةُ الضخمة، دخلت على الفور امرأةٌ ضئيلةٌ وبدأت تحدّثها عن الجزّار. وبدا لي أن إحدى عينيّ التي حضرَت لتوّها تنظرُ نحوي. كنت أراها جانبيا؛ ورغم أنها مُتقدِّمةٌ في السن، لم تبدُ قبيحةً؛ لكنني أذكر ما حدث حين بدأت تُديرُ وجهها ببطءٍ وبدأتُ أراها من الأمام؛ كانت من النحافة بحيث أنني كنت آخذُ مَقلَبا مثل ذلك الذي تُعطيه المنازلُ التي يراها المرءُ من الأمام وبعد أن يمرّ بها وينظرُ إليها من الجانب يتّضح أنها ليس لها عمقٌ وتنتهي بزاوية حادةٍ جدا. كان يمكن القولُ تقريبا أن ذلك الوجه لم يكن يوجدُ إلاّ جانبيا؛ ومن الأمام لم يكن به بعضُ العرضِ إلاّ حيث توجد العينان؛ كانتا زائغتين بحيث تنظرُ اليسرى إلى الأمام واليمنى إلى اليمين. ولتعويض ضيقِ الوجه كانت تصفّفُ شعرها صانعةً قمّةً ضخمة؛ وكانت تُظهر عدة ألوانٍ للشعر: أسودٍ، ومختلفِ ظلالِ الكستنائي، وخصلاتٍ قذرة تميلُ إلى البياض. وفوق كل هذا كان لها قُصّةٌ صغيرة كانت في توليفةٍ دقيقةٍ عَرضا لكل الألوان.

حين بدأت تسيرُ نحوي، نظرنا إلى بعضنا دون كلام؛ وهكذا طوال الوقت الذي استغرقَته في عبور الفناء.

ـــ حضرتك عازف البيانو؟ هل تتفضل؟

حملَت قمةَ الشَّعرِ صوب باب غرفة الطعام. ورغم كل ذلك الشَّعر لم تكد تبلغُ قدَمي طائر اللقلق الذي في منقاره السمكة. وحين جذبنا الكرسيين المجاورين للمائدة الكبيرة، أحدث الضجيجُ صدىً بدا زئيرا. فغرفة الطعام تلك، المعتمةُ

بأثاثها وضوئها القليل، كان لها صمتُها الخاص. وكان مما يبعثُ الأسى أن تنتهكُه تلك المرأة حين قالت لي:

ـــ في عائلتي (حرّكت عينيها ولم أدرِ إلى أيتهما أنظر، لأنني لم أدرِ كذلك أيٍ منهما تنظرُ إليّ)، في عائلتي، كان الجميعُ يحترمون الموسيقى. وأنا أريدُ في هذا المنزل، مرّتين أسبوعيا، أن تُعزَفَ الموسيقى.

نادوها على الفور لأن الجزّارَ قد جاء. نهضَت مُؤرجِحَةً سلسلةً مُذهّبةً ضخمة اهتزّت عدة مراتٍ على صدرها وانتهت أخيرا بأن صارت مشبوكةً بالجانب الأيسر من حزامها.

كان على المنضدة الجانبية صينيّتان بيضاويتان متوقّفتان تنظُران إلى الفناء ومنه تلتقطان الضوءَ الوحيد المتبقي في غرفة الطعام. كما أضفيتا بعضَ البياض على أسماك لوحةٍ تعلو المنضدة الجانبية. كانت راحة يدي مُتخدِّرة لأنني كنت أمرّرها فوق الدوسيه الذي يبدو الآن بلونٍ أخضر داكن. وحين عادت، حاولتُ التعجيل بالحوار.

ـــ أي نوعٍ من الموسيقي تريد سيدتي؟

ـــ ماذا تعني بأي نوعٍ من الموسيقى؟ التي يعزفها الجميع، التي على الموضة.

ـــ حسنٌ جدا. أيمكن أن أُجرِّب البيانو؟

ـــ كان يجبُ أن تكونَ قد فعلت.

ـــ أين هو؟

ـــ خلفك. ألا تراه حضرتك؟

ـــ لا، يا سيدتي، الضوء خافتٌ.

قرّبَت أباجورةً عالية من الركن الذي فيه البيانو. تعثّرَت وبدأت تُخشخِش. وحين وجدَت المقبس، سقط الضوءُ على لون الكرز لبيانو صغير. بعد أن جرَّبتُه وقلتُ "حسنٌ جدا" أخرى، خطرَ لي أن أسألها:

ـــ بأي فاصلٍ يجبُ أن أعزِف القِطع؟

ـــ ماذا تريدُ حضرتك أن تقول؟

ـــ كم دقيقةٍ يجب أن تمرَّ بعد إنهاء قطعة و ...؟

ـــ نفس الوقت الذي يستغرقونه في المقهى الياباني.

قلت آخرُ "حسنٌ جدا" ثم استأذنتُ حتى اليوم المحدَّد.

في المساء الذي ذهبتُ فيه لأعزف للمرة الأولى، لم تكن السنيورة مونييكا موجودة أيضا. أدخلتني المرأة الضخمة إلى غرفة الطعام وبدأت تسامرني. كان اسمها فيلومينا، لكنها منذ طفولتها جعلتهم ينادونها دولّلي؛ كان اسم تعيسة حظٍ ألقت بنفسها في البحر في أحد أفلام ذلك الزمن. وحسب ما استطعتُ التحقق فيما بعد، لم تكن لا هي ولا صاحبة المنزل تعرفان أن دولّلي، بالإنجليزية، تعني دُميةً صغيرة. ولا أدري لماذا خفتُ أن أخرجهما من ذلك الجهل. وأخيرا حدّثتني عن شقيق للسنيورة مونييكا. جعلته السيدةُ يحصل على وظيفة؛ وإذا ظل يتصرف "كما يجب"، فسوف تُوثِّقُ له، باسمه، منزلا صغيرا تملكه في إلبرادو بجوار شاليه تملكه هي أيضا.

تخدرت راحةُ يدي لأنني كنت أمرّرها على الجلد ذي النقش البارز لكرسي مجاور.

حين دقت السنيورة مونييكا الجرس حملتُ كرسيي إلى البيانو، ووضعت النوتات على المسند وانتظرتُ، جاهزا للبدء. ولم تكد تدخل، حتى رفعَت يديها إلى الجانب الأيسر وجذبَت طرف السلسلة، حيث كانت ساعةٌ صغيرة؛ كان ذلك غير متناسبٍ تماما كأنها ربطت كلبا صغيرا بسلسلة بئر. قالت لي: "يمكن لحضرتك أن تبدأ." ثم جلسَت على الطرف الآخر من المائدة وخطر لها، مثلما خطر لي، أن تُمرّر يدها فوق الدوسيه.

بدأت أعزفُ تانجو، وقبل أن أنتهي منه، ظهرت الضخمةُ؛ تحدثت بقوة لتُغطي على ضجيج البيانو.

ـــ مونييكا، أين تركتِ الغلاّية؟

كان لدى مونييكا معنىً آخر للأشياء التي تجري؛ كان قد خطر لها أن تُعزّف الموسيقى ودفعت ثمنها كشيء جاد، كأنها تجعل مسرحا يُقدَّم من أجلها؛ وتأتي هذه الأخرى لتُقاطع العزف

ولتكسر ذلك المعنى للكبرياء والأرستوقراطية الذي أرادت أن يكون في منزلها. عندها توقفت متضايقةً وقالت:

ـــ لا تأتي ثانيةً أبدا لتصرخي وتقاطعي الموسيقى.

استدارت الضخمةُ ومضت. لكن في نفس اللحظة تقريبا عاودت السنيورة مونييكا مناداتها صارخةً:

ـــ دولّلي!

وعلى الفور ردّت الأخرى:

ـــ مونييكا؟

ـــ جهِّزي شاي الماتى(5). الغلاية في الحمّام.

كنت قد أنهيتُ التانجو؛ أخذتُ أنظر إلى الموبيليات وأفكر في الدكتور. كان هذا المنزل يشبه قبرا مقدسا هُجِر على عجل. بعدها استقرت فيه هاتان المرأتان وأخذتا تدنِّسان الذكريات. فوق المنضدة الجانبية كانت لفافة عشب ماتى مستخدمة؛ وداخل دولاب الأواني الزجاجية، ولإدخال زجاجة نبيذٍ عادية، كانتا قد دفعتا الكؤوس الزجاجية فوق بعضها.

أحضرت دولّلي في صمت ما طُلِب منها؛ وبدأتُ أنا في عزف "فالس عاطفي" ولم يتكلم أحدٌ بعدها. كانت السنيورة مونييكا تتناول الماتى، وتنظر نحو الفناء وبدا أنها، مثل الصينيتين، لا تفعل سوى تلقِّي الضوء الأخير. لم أطلب إضاءة الأباجورة الواقفة. عزفتُ بعض القطع من الذاكرة وفي الفواصل فكّرتُ في شئوني. لم يبد أن السنيورة مونييكا لا تستمع إلى الموسيقى فحسب، بل إنها تركت الماتى وبقيت إحدى يديها ثابتةً فوق الدوسيه.

في الجلسات التالية، كنتُ قد جهّزت كل شيء. وبعد أن تتناول السنيورة مونييكا أكواب الماتى الأولى وأعزف أنا التانجوهات الأولى، كانت تظلُّ ساكنةً وكنتُ أفكر في شئوني.

عندما مر أكثر من شهر وأنا أعمل هناك، تصادف من جديد ألاّ يكون طقم الماتى مُعدّا للسنيورة مونييكا. وصلت عصبيةً بعض الشيء إلى حيث كنتُ وقالت لي أنها ستستمع إليّ مع ذلك من

غرفةٍ أخرى. ذلك المساء عاودَت القول لدولّلي أن تعد لها الماتى وأن الغلاية في الحمام. وحين عادت دولّلي لم تكن السيدة في غرفة الطعام. عندها انتهزَت الفرصة لتقول لي:

ـــ اليوم يمر عامان منذ رأينا خطيب مونييكا يصعد سلم الوابور وفي ذراعه الأخرى. إذن خذ أنت بالك وتصرَّف جيدا.

ترك فيّ انطباعا بالغ السوء أن ترفع التكليفَ وتخاطبني بصيغة "أنت" وتأهبت لتوبيخها حين وصلت السنيورة. ذلك المساء أخذت تظهرُ وتختفي مثل تلك الزخات من المطر التي تقطع الطقس الجيد.

بعد بضعة أيام أرسلوا يبحثون عني من جمعية عازفي البيانو وقال لي المدير:

ـــ كانت هنا السنيورة مونييكا لتطلب عازفَ بيانو آخر. قالت أنك نوعٌ حزين وموسيقاك لا تُبهج. فرددتُ عليها: "أنظري، يا سيدتي، هذا هو العازف الأول في الجمعية" وحاولتُ إقناعها قائلا لها أنك ستغيّر برنامجك وتعزف بحيوية أكبر.

كنت مكتئبا. وكان عنيفا بالنسبة لي أن أذهب إلى الجلسة التالية، فقد كان عليّ أن أعزف "بحيوية أكبر" وكذلك أن أقول لدولّلي ألا تنادني بأنتَ. لكن، حين وصلتُ إلى غرفة الطعام، وقعت أشياءٌ غير متوقّعة. كان شقيق السيدة مونييكا في زيارة وأتضح أنه من معارفي. وعلى الفور توقّف، وصافحني وقال:

ـــ كيف حال حضرتك، يا مايسترو؟ أُهنئك؛ عرفت أنك نلتَ نجاحا كبيرا في حفلك الموسيقي. رأيت المقالات والصور في الصحف.

أطلقت عينا مونييكا نظرات في كلّ اتجاه وبدا أن ذلك التشتتَ مقصودٌ للتشكّك في كل الناس. عندها قاطعتنا مندهشة:

ـــ ماذا؟ لم يقولوا لي أن حضرتك شخصٌ يظهر في الصحف!

فواصل الشقيق:

ـــ نعم، كيف لا! وذات مرة ظهرنا معا في نفس الصحيفة؛ لم يكن يفصلنا سوى عمودٍ واحد. كانت تلك المرة التي اختاروني فيها سكرتيرا للنادي.

تدخّلت مونييكا:

ـــ وهنّأك الرئيس. ـــ ثم قالت: ـــ تعال.

كنت أحني رأسي ورأيتُهما يخرجان من غرفة الطعام ، أولا الفستانُ البنفسجي، وعلى مسافة قريبة، البنطلون الأسود للشقيق.

ثم بدأتُ أتذكر المقهى الذي كنت أعزف فيه حين عرفتُ هذا الفتى. لا أدري لماذا كانوا يسمونه "أرانييتا"(6) ولماذا يتحمّل هو ذلك، لأنه شجاعٌ جدا. وأخذت الآن أُعانِدُ لإدخال السيدة مونييكا، بفستانها البنفسجي، في حكاية هذا الفتى. وصلَت هي متأخرةً إلى الفكرة التي لديّ عنه؛ ورغم أنه كان أكثر ارتياحا لي أن أترك هذا العمل ليومٍ آخر، لم أستطع المرور على ذلك دون أن أتخيّل من جديد كل ما أعرفة عن أرانييتا، لكن مع إضافة هذه الأخت. كذلك بدا لي أنها هي من تريدُ الدخولَ إلى الحكاية؛ وبالعافية مثلما في أوتوبيس مزدحم.

كان ذلك المقهى مختفيا خلف بضع شجرات وتحت دورٍ أول له شرفات. وكان كل من يحاول الدخول يتوقف عند الباب. ففور وضع اليد فوق المقبض، الذي كان كبيرا وأسود مثل مقبض مكواة الخياط، كان يدورُ في كل اتجاه دون مقاومة. كان يبدو أن الباب يسخرُ من المرء. ولو وُجِد شخصٌ على بعد خطوات قليلة من الزجاج ـــ فلو كان أبعد لن يسمح اتساخُ الزجاج برؤيته ـــ، يمكن للشخص أن يشير بذراعه كأنه يقول: "هيا! إدفع!" عندها يقوم المرء بدفعةٍ قوية فيُصرّ الباب، لكنه يستسلم. وبعد أن يكون المرءُ قد دخل ولم يكد يعطي ظهره للشارع، ينتقم الباب مُنغلقا بعنف.

كان الدخانُ يبتلع جزءا كبيرا من الضوء القليل الذي تبعثه بضعة مصابيح صغيرة وجزءا كبيرا من لون البذلات. وفضلا عن ذلك ، كان يبتلع الأعمدة الصغيرة التي ترتكز عليها المنصة حيث نعزف نحن. كنا ثلاثة: "كمنجة"، و

"فلوت" وأنا. بدا أيضا أن الدخان هو الذي رفع منصتنا حتى قرب السقف الأبيض. كأننا عاملين لدى السماء، نبعث عبر سحب الدخان تلك الموسيقى التي لم يكن يبدو أن من بالأسفل يستمعون إليها. وفور ختامنا لمقطوعةٍ، كانت تغزونا محادثاتُ كل أولئك الناس. كانت همهمةً قوية، متجانسة، وفي الشتاء تُفعِمنا بالنعاس. كنا نُطلُّ جالسين على شرفة المنصة ولا أدري ماذا كنا نفعل كل هذا الوقت وعيوننا على الأشياء. كنا سرعان ما ننظر، ببساطة، كيف تُطل الرؤوس هناك في الأسفل فوق الدوائر البيضاء للمناضد الرخامية، وترفع الأيدي إلى قرب الأنفِ القهوةَ، التي تظهر مثل بقعةٍ صغيرة سوداء. كان أحد الجرسونات قصيرَ النظر ويمضي خلف عدسات نظارةٍ سميكة جدا؛ كانت تنصحه ببطءٍ شديد أين يمكنه العثور على شيء؛ بعدها تتأرجح أنفُه مثل بوصلةٍ حتى تتوقف مشيرةً إلى مقصده. في إحدى يديه كان يحمل صينية وبالأخرى مضى يتحسَّس الناس. كان مُطلّقا، ومُتزوجا من جديد ولديه الكثير من الأطفال الصغار. وكنا نتأمله مثل قاربٍ بخاري صغير يُبحر بين الجزر، متوقِّفا كل برهةٍ أو مُفرغا الطلبات في موانيء خاطئة.

كان كل هذا يحدث في الليل. لكن كان الأمر مختلفا في قسم الماتينيه؛ ليس فقط لمعرفة أن تلك ساعةٌ من المساء وليس الليل؛ ولأن لها جمهورٌ آخر يتناول أشياء أخرى. في تلك الساعة كان يأتي أناسٌ النادي السياسي الواقع فوق المقهى. كانوا يملأون منضدتين في العمق وكانوا جميعهم تقريبا رفاقاً أو مُعجّبين بأرانييتا. وقبل أن يستطيعوا التحدث معه كانوا ينظرون إليه من بعيدٍ برهةً طويلة وينتظرون أن يفرغ من إعداد مشروبات الكوكتيل خلف منصة البار. في تلك الساعة، كان يُضاء فقط نورُ قوي جدا يُضيء بياض سترة، وقميص، وأسنان أرانييتا. ويتضادُّ مع هذا كله رباط عنقه، وحاجباه، وعيناه، وشعره، الذي كان فاحم السواد. و كان لونُ وجهه لوناً مُتصالحا ؛ كان زيتونيّا ومُظلَّلا بالكاد في بعض المواضع، خصوصا فوق الحاجبين، اللذين كان يمكن أن يكونا كثيفين لو لم يحلقهما تاركا بالكاد قطعتين شبيهتين برباط الحذاء.

لم يكن يبدو أن أي جزءٍ من سحنته يتحرك خلال الحفل؛ كما لم يكن معروفا ما اللحظة المضبوطة التي يُمسك أو يترك فيها زجاجةً؛ لم تكن النظرةُ لتستطيع مُزامَنةَ الوقتِ المضبوط الذي يدفعُ فيه شيئا والوقتِ الذي يُطيعُ فيه

الشيءُ. بدا أن الزجاجات، والأكواب، والثلج، وأدوات التقليب لها حياةٌ تخصّها وتَربَّت على نظام الحرية؛ لا يهم ألاّ تستجيب لحظيا: فهي مسئولةٌ وسيأتي كلُّ شيءٍ في وقته. واللحظة الوحيدة التي كان يمكن للعيون أن تُشبِعَ فيها ظمأها الخشن لتسوية الحساب كانت حين يهزُّ أرانييتا بقوةٍ زجاجةَ الكوكتيل. في إحدى تلك اللحظات استطعتُ المرور بجانب إحدي مناضد العمق وسمعت القول: "من المعروف أنه رجلٌ له شخصيةٌ، أليس كذلك؟"

كان أرانييتا يعرف أيَّ كوكتيلٍ سينجح أكثر في ساعةٍ بعينها. فكان إذن يعدُّ كؤوسا كثيرة في نفس الوقت. بعد هزّ زجاجة الكوكتيل كان يوزّعُ السائل في كل كأسٍ بنفس حركة الدفع؛ لكن الدقة كانت تبلغُ حدَّ دفعِ المرء للتفكير في أسرار الطبيعة؛ كانت كلُّ قطرةٍ تمضي إلى مأواها الزجاجي كأنما بغريزةٍ عائلية. بعد أن يكون قد أودع أول عبوة لزجاجة الكوكتيل ـــ التي يمكن أن تكون ذات قطراتٍ من جنسٍ داكن ـــ، كان يُعدُّ عبوةً أخرى من جنسٍ أبيض ويُودِع من جديد بنفس الطريقة العائلات الجديدة. عندها تأتي اللحظاتُ التي طال انتظارها من جانبنا. كان يأخذ ملعقةً ذات عنق طويل؛ وبضرباتٍ دورانيةٍ قليلة يعبُر بسرعةٍ العائلاتِ التي في كل كأس فينشأ ما ليس متوقّعا: كان كلُّ كأسٍ يُغني بصوتٍ مختلف وتبدأ موسيقى الصدفة. لأن الشيء الوحيد غير المتوقّع كل يوم كان توافقَ الكؤوس المتماثلة ظاهريا مع سرّ الأصوات المختلفة.

سرعان ما رأينا أرانييتا يرتدي سترته السوداء المحبوكة، والقبعة، ذات الحافة المستوية والصلبة كأنها من الصلب. دارَ حول الجانب الخارجي من منصة البار وقدَّم له صاحبُ المحل ذاته ـــ وهو صديقه وزميله في الحزب ـــ بيرة. أخذ السياسيون يخرجون وسينتظرونه في النادي. عدة مرات، في تلك الساعة تذكّرتُ شيئا عرفتُه عنه. كانت له خطيبةٌ طلبَت منه مرةً إذنا للذهاب إلى حفلٍ راقص؛ ورغم أنه رفض، ذهبت هي على أي حال. وبعد وقتٍ قصير عرف هو وقطع العلاقات بكلمات كانت ضرباتٍ قوية. وذات مساءٍ جاءت إلى المقهى؛ لكنه طلبَ منها مع جرسونٍ أن تنصرف. وبعد وقتٍ قصير سمَّمت نفسها.

في البداية كان بالغ الصداقة لنا؛ لكنه ذات صباحٍ جميل كفّ عن تحيتنا. كان في شرفة منصة المسرح الكثير من

اللمبات الصغيرة الملونة؛ وكان هو المسئول عن إنارتها حين تبدأ الأوركسترا. وذات يوم اكتشف "الكمنجة" أن أرانييتا يضيؤها بالضبط في نفس اللحظة التي ترنُّ فيها النغمة الأولى للقطعة التي نبدأ بها الحفل. عندها، بقصد أن نداعبه، عزفنا جميعنا ذات ليلة وفي نفس الوقت نغمةً واحدة دون تمييز. لفت دويُّ النغمة مع الضوء اهتمام الناس وصفَّق بعضهم. لكن أرانييتا تمشّى حانقا خلف منصة البار وبدا على وشك أن يقفز. لم يُعاود تحيتنا؛ لكن بعدها بزمنٍ طويل وحين لم أعُد أعزف في المقهى، رآني في الشارع، فأتى ليحييني بابتسامةٍ بالغة الإخلاص وعدنا لنصبح أصدقاء.

ذلك المساء في غرفة الطعام المعتمة جاء أيضا لتحيتي، قبل أن ينصرف، وقال لي:

ـــ لا تشغل بالك. في هذا المنزل وظيفتك مضمونة.

الحمد لله. كان ذلك واحدا من نتائج الحفل الموسيقي. لكنني على الفور فكرت أن لديّ انشغالا لا أذكرُ ما هو في تلك اللحظة. وسرعان ما وجدته. كان أن دولّلي لا يجب أن تخاطبني بضمير "أنت". وفي تلك اللحظة بالضبط دخلَت هي مادّة لي يدها. كانت قد جاءت مسرعةً على أطراف أصابعها. لم أملك سوى أن أصافحها. عندها قالت لي:

ـــ أهنئك. ـــ وخرجَت مسرعة.

في الجلسات التالية عاودت مونييكا الجلوسَ صامتةً وتناول الماتى في غرفة الطعام واستطعتُ التفكير في شئوني كما يتراءى لي.

بعد أن رتَّب أرانييتا وضعي في منزل شقيقته، قضت مونييكا وقتا طويلا دون أن تُقاطع أفكاري. كانت تتناول الماتى حتى يبرد الماء وبعدها، تاركة عينيها الشاردتين ساكنتين، كانت بدورها تنظر إلى ذكرياتها. ورغم ذلك، فذات مساء كانت فيه غرفة الطعام معتمةً جدا وبقي القليل على ختام

الجلسة، كلمتني مونييكا. في تلك اللحظة كنت أبعدَ ما يكون عن التفكير فيها. وحين اصطدمَت كلماتُ مونييكا بي وتهاوَى الصمتُ، قمتُ بحركةٍ مفاجئة بقدميّ فرفست البيانو؛ أخذ صندوقُ الرنين يُدوّي وعلى الفور أطلقَت مونييكا قهقهةً مبتذلة. وبعدها كرّرت كلماتها:

ـــ سألتُك ما اسم هذا التانجو الذي عزفتَه.

كان رد فعلي الأول أن أقولَ لها اسمه؛ لكن فكرتُ بعدها أنني لو قلته لها ـــ كان اسم التانجو "مَضيتَ أنت؟ ها، ها ... " ـــ، ستظن أنه تلميحٌ إلى من مضى مع أخرى على "سلم" القطار. عندها أضأتُ النور وهممتُ أن أحمل إليها النوتة؛ لكنها، وقد فهِمَت قصدي، قاطعتني:

ـــ لا، لا، قل لي حضرتك فقط.

نطقتُه بصوتٍ غريب؛ فلم تجعلني أكرره وقالت على الفور:

ـــ ياللمسيح! يبدو اسما لكرنفال!

لم أُرِد أن يجلب لها ذلك الاسم ذكرياتٍ سيئة. ورغم ذلك كانت تجتذبُني درامات منازل الآخرين وكان أحد الآمال التي أثارها حفلي الموسيقي أن أقيم علاقات جديدة تُتيح لي دخولَ منازل مجهولة.

وذات مساء وأنا أفكر في دراما الآخرين شممتُ في غرفة الطعام المعتمة رائحةً قوية لخنزيرٍ رضيع مُتبّل. فقلت لدولّلي:

ـــ يالها من رائحة خنزيرٍ رضيع! لماذا لا تُخرجينه من هنا؟ إنها لحسرة ... غرفةُ طعامٍ بهذا الجمال ...!

تضايقت:

ـــ أليس الخنزيرُ الرضيع رائحةً لغرفة الطعام؟ أتريد أنت أن أضعه في الصالة؟

كان هناك، فوق المنضدة الجانبية، في إناءٍ مطلي بالمينا بلون أزرقٍ ويغطّيه قماشٌ أبيض. كانت دوللي قد انصرفت على الفور؛ لكنها عادوت الدخول بعد برهة وقالت لي:

ــــ أنا عارفة ، أنت تريد أن تأكل خنزيرا رضيعا .

بدأتُ أحتجّ بقوة. لكنها كانت تداعبني، أرادت التغطيةَ على صوتي وحاولت أن تجذبَ يديّ. وبينما أراوغ يديها وتطاردُ هي يديّ، كنا نرسم دون قصدٍ رسوما في الهواء وشعرتُ على وجهي المحتقن باللّفحة التي تصنعها الأيدي الأربعة. وفي النهاية وضعتُ يديّ خلف ظهري وسلّمتُ بأن تتكلم دوللي:

ــــ شوف: الساعة العاشرة ليلا تعال من الشارع الخلفي؛ هناك شجرةٌ ذات أغصانٍ سميكة تؤدي إلى شباك المطبخ. أنا لا أدعك تدخلُ من الأمام منعا للنميمة، ولديَّ خطيبٌ وأودُّ الزواج.

أردتُ مقاطعتها، لكنها أفلحت في الإيقاع بإحدى يديّ. انتزعتُها بعنف وبينما بقيتُ أفكر في حركتي الخشنة، واصلَت هي الشرح:

ــــ تسلّق أنت الشجرة وادخل الساعة العاشرة؛ سأجهّز الخنزير الرضيع، ولِتراً من النبيذ وسترى أي احتفالٍ سنصنع.

أخيرا تركتني أقول:

ــــ وإذا سمعَتني مونييكا؟ سأفقد وظيفتي من أجل قطعة خنزير رضيع؟

نظرت إليّ للحظاتٍ مُستغرِبةً وفي صمت. ثم قالت:

ــــ في التاسعة والنصف أكونُ قد وضعت مونييكا في فراشها مستغرقةً في النوم ويمكن حتى تجريدُها من ثيابها حتى صباح الغد.

ــــ كيف؟ هل نومها ثقيلٌ إلى هذا الحد؟

بدأت دوللي تضحك صاخبةً؛ ثم جلست، أخرجت قدميها من حذاء أحمر، وأدارته حول سيقان الكرسي وقالت لي:

فور أن تذهب أنت، تبدأ هي في شرب النبيذ؛ بعدها تأكل وهي تشرب النبيذ؛ وبعد الحلو تواصلُ شرب النبيذ وحين تصبح سكرانةً تماما أحملها إلى الفراش.

نظرت دوللي إلى سحنتي، وتحمّست وواصلَت الحديث:

ـــ تُكثِرُ من الحديث عن عمل الأشياء كما يجب، الكثيرُ من الأرستوقراطية، الكثيرُ من منعي من التحدث مع أي أحدٍ يزورها، ولا حتى شقيقها، وبعدها تسكرُ مثل خنزيرة.

أحنيتُ رأسي فعاجلتني بالسؤال:

ـــ على ماذا اتفقنا؟ هل تأتي لتأكلَ الخنزير الرضيع أم لا؟

بدأتُ أرتجلُ أعذارا حمقاء؛ وكان أحد أسوئها أنني يمكن أن أسقطَ من الشجرة؛ ففهمَت هي، ولَوَت فمها إلى جانبٍ، وارتدت حذاءها ولحظة ذهابها قالت لي:

ـــ ويحك، ويحك؛ لقد اقتلعوكَ أخضرا.

ذات مساءٍ، بعد ذلك بقليل، لم تخرج دوللي لاستقبالي؛ ظهر خادمٌ بسوالف، وصديري وأذرعِ قميصٍ مخطَّطة. سلّمني رسالة تُبلغني فيها مونييكا بإنهاء خدماتي وتوصِّل لي النقود التي تَدينُ لي بها.

بعد هذا قضيتُ بعض الوقت دون عمل، وفكّرتُ حتى في تسلّق الشجرة بهدف أن أرى دوللي.

وذات صباحٍ صيفي كنتُ شديد التشاؤم وأفكر في كل إخفاقاتي. فالحفل الموسيقي لم يَعُد عليّ بنقودٍ بل ولم يجلب عليّ شيئا مما كنت أنتظر. ولا حتى علاقاتٍ تجعلني أدخلُ منازل مجهولة؛ وكان المنزلُ الوحيد هو منزلُ غرفةٍ الطعام المعتمة؛ وهناك شككتُ بالكاد في دراما حين عرفتُ أن مونييكا كانت تسكر؛ ولم تبدُ دوللي امرأةً يكون لديها دراما.

أخذت أُجرجِر ببطءٍ هذه الأفكار وأنا أتمشّى ويداي خلف ظهري في أحد شوارع إلبرادو، حين شعرتُ بمن يُدغدِغ راحة إحدى يديّ. استدرتُ فوجدت دوللي. قالت لي:

ـــ رأيتُك تمرُّ على منزلي فتبعتُك.

ـــ كيف؟ ألم تعودي حضرتك في منزل مونييكا؟

ـــ تلك العجوزُ ستتذكرني طوالَ حياتها. ذات مساءٍ قلت لها: "إبحثي لنفسِك عن أُخرى لأنني سأذهب غدا." وردّت عليّ: "وأنا، ماذا فعلتُ لك، الآن؟" فأطلقتُ في وجهها هذا: "الآن لا شيء؛ لكنني سأتزوّجُ ... من شقيقِك." انتابتها رعدةٌ غريبة وبدأت

تُخرِج من فمها رغوةً؛ لأنها ذلك الصباح ذاتَه كانت قد وثّقَت هذا المنزل باسم شقيقها.

كنا قد واصلنا المشي. لكن حين قالت ما يتعلّق بأرانييتا توقّفتُ لأنظرَ إليها. أمسكت إحدى يديّ وقالت لي:

ـــ تعال أُريكَ المنزل. في هذه الساعة يكون أرانييتا دائما في عمله.

سحبتُ يدي وقلت لها:

ـــ لا، في يومٍ آخر.

عاودها الحنقُ الذي انتابها حين لم أرغب في تسلُّق الشجرة وزَمّت شفتها العليا لتقول لي:

ـــ ويحك، ويحك، ياعازف البيانو البائس.

---

(1) تشيه: نداء تحبُّب.

(2) مونييكا: تعني دمية. والسنيورة تعني السيدة بالاسبانية.

(3) دُتُّور: نطق عامي لكلمة "دكتور".

(4) الوابور: تسمية عامية للقطار. وكذا لأي آلة بمحرك بخاري.

(5) الماتى: عشب أمريكي لاتيني يقوم مقام الشاي.

(6) أرانييتا: تصغير عنكبوت.

باستثناء خوليا

في عامي الأخير بالمدرسة كنتُ أرى دائما رأسا كبيرةً سوداء مستندةً على حائطٍ أخضر ملوّنٍ بالألوان الزيتية. لم يكن الشعرُ الأجعد لذاك الصبي بالغَ الطول؛ لكنه غزا رأسَه كأنه نباتٌ متسلّق؛ كان يحجِبُ جبهتَه، الشديدةَ البياض، ويغطّي وجنتيه، ويتناثرُ فوق أذنيه ويهبطُ مع العنق حتى يدخل في السترةِ القطيفة الزرقاء. كان هادئا دوما ولم يكن يحلُّ واجباتِه أو يُذاكر دروسَه على الإطلاق تقريبا. وذات مرةٍ طردته المعلمة إلى منزله وسألَت من منا يريد أن يُرافقه ويقول لأبيه أن يأتي ليتحدَّث معها. استغربَت المعلمةُ حين وقفتُ أنا وعرضتُ نفسي، فالمهمة مُنفِّرة. بدا لي ممكنا أن أفعل شيئا وأنقذَ ذلك الرفيق؛ لكنها بدأت تتشكّك فينا، وتستبقُ أفكارنا وتفرضُ علينا شروطا. ورغم ذلك، حين خرجنا من هناك، ذهبنا إلى الحديقة وتعاهدنا كلانا ألاّ نذهب أبدا إلى المدرسة.

وذات صباحٍ العامَ الماضي طلبت مني ابنتي أن أنتظرها على ناصيةٍ أثناء دخولها بازارا والخروج منه. ولما تأخّرَت، ذهبتُ للبحث عنها لأجدَ أن صاحب البازار هو صديقُ طفولتي. ومن ثم شرعنا نتحدث واضطرت ابنتي للانصراف بدوني.

من طريقٍ يغيبُ في أعماق البازار أتت فتاةٌ حاملةً شيئا في يديها. قال لي صديقي أنه قضى الجزء الأكبر من حياته في فرنسا. وهناك، تذكر هو أيضا الإجراءات التي كنا قد اخترعناها لنجعل آباءنا يصدّقون أننا نذهب إلى المدرسة. والآن يحيا وحده؛ لكن في البازار تحيط به أربع فتيات تتعاملن معه كأب. كانت القادمة من عمق البازار تحمل كوبَ ماءٍ وحبة دواء لصديقي. بعدها أضاف هو: ـــ هن طيباتٌ جدا معي؛ وتغفرن لي ...

هنا ساد صمتٌ وبدأت يدُه تُحلِّق دون أن تدري أين ستستقر؛ لكن وجهه صنع ابتسامةً. قلت له مُداعبا بعض الشيء:

ــــ إذا كان لديك نوعٌ من ... الغرابة يُسبّب لك عدمَ الراحة، فلدي طبيبٌ صديق ...

لم يدعني أُكمل. كانت يده قد استقرّت على حافة جرّة للزينة؛ رفع سبابته وبدا أن ذلك الإصبع سيُغنِّي. ثم قال صديقي:

ــــ أنا أحب ... مرضي أكثر من الحياة. أحيانا أفكر أنني سأُشفى فينتابني يأسٌ قاتل.

ــــ لكن ما ... ما هذا الشيء؟

ــــ ربما استطعتُ أن أقول لك يوما ما. إذا اكتشفتُ أنك من الأشخاص الذين يمكن أن يُفاقموا ... دائي، فسوف أهدي لك ذلك الكرسي المُطعم بالصدف الذي أعجب ابنتك كثيرا.

نظرتُ إلى الكرسي ولا أدري لماذا فكرتُ أن مرض صديقي جالسٌ فوقه.

يومَ قرَّر أن يقول علّته كان يوم سبت وقد أغلق البازار لتوّه. ذهبنا لنأخذ أوتوبيسا يمضي إلى خارج المدينة وخلفنا جاءت الفتياتُ الأربع وشخصٌ ذو سوالفٍ كنتُ قد رأيته في عمق البازار بين كتبٍ على مكتب.

ــــ الآن سنذهب جميعا إلى منزلي الريفي ــــ قال لي ــــ، وإذا أردتَ أن تعرف ذلك الشيء فعليك أن ترافقنا حتى الليل.

بعدها توقّف حتى اقترب الآخرون وقدّمني إلى موظفيه. كان الرجل ذو السوالف يدعى إليخاندرو ويخفضُ بصرَه كتابعٍ أمين.

حين خرج الأوتوبيس من المدينة وأصبحت الرحلة رتيبةً، طلبت من صديقي أن يقول لي شيئا مُقدّما ... فضحك وأخيرا قال:

ــــ سيحدث كلُّ شيء في نفق.

ــــ هل ستُنبِّهني قبل أن يمر الأوتوبيس عنده؟

ــــ لا؛ هذا النفق في منزلي الريفي وسندخل إليه على الأقدام. سيكون ذلك عند حلول الليل. ستكون الفتيات منتظراتٍ في الداخل، راكعاتٍ على مساند على طول الحائط الأيسر وعلى رأسهن قماشٌ داكن. وعلى اليمين ستكون أشياءُ فوق منصَّة طويلة وعتيقة. سألمسُ أنا الأشياء وأحاولُ تخمينها. كذلك سألمس وجوهَ الفتيات وأفكر أنني لا أعرفهن ...

بقي لحظةً صامتا. كان قد رفع يديه وبدا أنهما تنتظران أن تقترب منهما أشياءُ أو ربما وجوه. وحين انتبه أنه صمتَ، ضمّ يديه؛ لكنه فعل ذلك بحركة رؤوسٍ تختبيءُ خلف نافذة. أراد أن يعود إلى الشرح، لكنه اكتفى بالقول:

ــــ أتفهم؟

بالكاد استطعتُ أن أردَّ عليه:

ــــ سأحاول الفهم.

نظر إلى المنظر الطبيعي. استدرتُ خِفيةً ودقّقتُ النظر في وجوه الفتيات: كنّ تجهلن ما نتحدث فيه، وبدا سهلا اكتشاف براءتهن. وبعد لحظاتٍ قليلة لمست مِرفق صديقي لأقول له:

ــــ إذا كنّ في الظلام، فلماذا تضعن أقمشةً على رؤوسهن؟

أجاب شاردَ الذهن:

ــــ لا أدري ... لكنني أفضل أن يكون كذلك.

وعاود النظر إلى المنظر الطبيعي. وضعتُ أنا أيضا عينيّ على النافذة؛ لكنني اهتممتُ برأس صديقي السوداء؛ ظلّت كسحابةٍ ساكنة على جانب السماء وفكرتُ أنا في مواضع السماوات الأخرى التي تكون قد عبرتها. والآن، حين عرفتُ أن تلك الرأس بها فكرة النفق، فهمتُها بطريقة أخرى. ربما في صباحات المدرسة تلك، حين كان يتركُ رأسَه هادئةً متكئة على الحائط الأخضر، أخذ يتشكّل فيها نفقٌ ما. لم يدهشني أنني لم أفهم ذلك حين كنا نتمشّى في الحديقة؛ لكنني مثلما كنت في ذلك الوقت أتبعه دون فهم، يجب أن أفعلَ الآن. على أية

حال كنا لا نزال نحتفظ بنفس التعاطف ولم أكن قد تعلّمتُ معرفةَ الأشخاص.

كانت ضوضاءُ الأوتوبيس والأشياءُ التي أراها تشتِّت ذهني؛ لكن من آنٍ لآخر لم أملك سوى التفكيرَ في النفق.

حين وصلنا صديقي وأنا إلى المنزل الريفي، كان أليخاندرو والفتيات يدفعون بوابةً حديدية. كانت أوراق الأشجار الضخمة قد سقطت فوق الشجيرات وتركتها مثل سلال أوراقٍ ممتلئة. وفوق البوابة والأوراق، بدا أن نشارة صدأٍ قد سقطت. وبينما نفتش عن الدروب بين النباتات الصغيرة، رأيتُ على البعد منزلا عتيقا. وحين بلغناه أصدرَت الفتياتُ تعجُّباتِ أسى: على جانب السلم كان أسدٌ مُحطّم: كان قد وقع من الشرفة. شعرتُ بالمتعة لاكتشاف أركان ذلك المنزل؛ لكنني وددتُ لو كنتُ وحدي لأمكث طويلا في كل موضع.

من المِطَلِّ رأيت جدولا ينساب. قال لي صديقي:

ـــ هل ترى حظيرةَ السيارات تلك ذات البابِ الضخم المغلق؟ حسنا؛ داخلها فمُ النفق؛ يجري في نفس اتجاه الجدول. وهل ترى تلك التعريشة القريبة من السلم الخلفي؟ هناك يختفي ذيل النفق.

ـــ وكم تستغرق في عبوره؟ أعني حين تلمسَ الأشياءَ والوجوه ...

ـــ آه! قليلا. خلال ساعةٍ سيكون النفقُ قد ابتلعنا جميعا. لكنني بعدها أستلقي على أريكةٍ وأبدأ في استحضار ما تذكرته أو ما جرى هناك. الآن يصعُبُ عليّ الكلام في ذلك. فهذا الضوءُ القوي يؤذي لديّ فكرةَ النفق. إنه مثل الضوء الذي يدخل كاميرات المصوّرين الفوتوغرافيين حين لا تكون الصورُ ثابتةً. وفي لحظة النفق يؤذيني حتى تذكّرُ الضوءِ القوي. كل الأشياء يُنتزَعُ عنها الوهم مثل بعض الديكورات المسرحية غداة العرض.

كان يقول لي ذلك ونحن متوقّفون عند زاوية مظلمة من السلم. وحين واصلنا النزول، رأينا من أعلى غبشَ غرفة الطعام؛ في وسطها كان يطفو مفرشٌ أبيضٌ ضخم بدا شبحا ميتا تثقبه الأشياء.

جلست الفتياتُ الأربع عند رأس المائدة وجلسنا نحن الرجال عند الأخرى. وبين الفريقين بضعةُ أمتار من المفرش الأبيض،

فقد اعتاد الخادمُ العجوز خدمة المائدة كلها منذ الحقبة التي كانت تسكن فيها هنا عائلة صديقي الكبيرة. تحدثنا أنا وهو فقط. ظل أليخاندرو بوجهه النحيل المضغوط بين السالفين ولا أدري إن كان يفكر: "أنا لا آخذُ الثقةَ التي لا يمنحونني إياها" أو "لن أكون أنا من يمنحُ الثقةَ لهؤلاء". وعند رأس المائدة الأخرى كانت الفتيات تتحدثن وتضحكن دون جلبةٍ كبيرة. وعلى هذا الجانب كان صديقي يقول لي:

ـــ ألا تحتاجُ، أحيانا، أن تكون في عزلةٍ ضخمة؟

بدأت أبتلعُ الهواء لأطلق زفرةً ضخمة ثم قلت:

ـــ في مواجهة غرفتي هناك جاران براديو؛ ما أن يستيقظا حتى يضعا أنفسهما بجهازي الراديو في غرفتي.

ـــ ولماذا تدعهما يدخلان؟

ـــ لا، أود القول أنهما يشغّلانهما بصوتٍ عالٍ كأنهما يدخلان إلى غرفتي.

كنت سأحكي أشياءَ أخرى؛ لكن صديقي قاطعني:

ـــ قد تعرفُ أنني حين كنت أتمشّى في منزلي الريفي وسمعت صياح راديو، فقدتُ معنى الأشجار ومعنى حياتي. غيّر ذلك الضيقُ فكرتي عن كل شيء: لم يبد أن بيتي الريفي ذاتَه ملكي وفكرت مرات كثيرة أنني قد وُلدتُ في قرنٍ خطأ.

تمالكتُ الضحكَ بصعوبة لأن أليخاندرو في تلك اللحظة، وجفونه مُسدلةٌ على الدوام، انتابه نوعٌ من الزُغُطَّة [الفواق] فانتفخت أوداجُه مثل عازف كلارينيت. لكنني قلت لصديقي على الفور:

ـــ والآن لم يعد يضايقك ذلك الراديو؟

كانت المحادثة حمقاءَ ووعدتُ نفسي بأنني سأركز في الطعام. استمر صديقي يقول:

ـــ جاء الشخصُ الذي كان يملأ المنزلَ الريفي بالضجيج ليطلب مني أن أضمنَه في قرضٍ ...

طلب أليخاندرو الإذنَ للنهوض لحظةً، أشار إلى فتاةٍ وبينما ينصرفان عاودته الزُغُطَّةُ التي جعلت سالفيه يتحركان: بديا كشمعتين سوداوين لسفينة قراصنة. واصل صديقي:

ــــ عندها قلت له: "أنا لا أضمن حضرتك فقط، بل أدفع لك الأقساط. لكن على حضرتك أن تطفيء لي ذلك الراديو أيام السبت والأحد". ــــ بعدها، ناظرا إلى الكرسي الخاوي لأليخاندرو، قال لي: ــــ هذا رجلي؛ يُركِّبُ النفق مثل سيمفونية. نهض الآن حتى لا ينسى شيئا. في السابق كنت أُبدِّد عمله كثيرا، لأنني حين لا أخمِّن شيئا كنت أسأله؛ فكان يفكّك كل الأشياء ليصنع أخرى جديدة. والآن، حين لا أخمِّن شيئا أتركه لجلسةٍ أخرى وحين أملّ لمسه دون أن أعرف ما هو، أُلصق به بطاقةً أحملها في جيبي فيسحبه هو من الدورة لبعض الوقت.

حين عاد أليخاندرو، كنا قد تقدمنا كثيرا في الطعام والنبيذ. عندها ربّت صديقي كتف أليخاندرو وقال لي؛

ــــ هذا رومانسيّ عظيم؛ إنه شوبرت النفق. وعلاوةً على ذلك لديه حَياءٌ أكبر وسوالف أكبر من شوبرت. تخيّل أنه يعشقُ فتاةً لم يرها مطلقا ولا يعرف ما اسمها. يحملُ الكتبَ في كوخٍ بعد العاشرة ليلا. تُبهجه العزلة والسكون بين روائح الأخشاب. وذات ليلة قفز فوق الكتب لأن التليفون دقّ؛ ومن أخطأت الرقم، ظلت تخطئه كل ليلة؛ وهو، بالكاد يلمسها بمسامعه ونواياه.

كانت سوالف أليخاندرو السوداء محاطةً بالخجل الذي صعد إلى وجهه، وبدأتُ أتعاطف معه.

بعد أن أنهينا الطعام، خرج أليخاندرو والفتيات ليتمشّوا؛ لكن صديقي وأنا استلقينا على الأريكتين اللتين في غرفته. وبعد القيلولة، خرجنا نحن أيضا وتمشّينا طيلة المساء. وكلما ازدادت الظلمةُ تكلم صديقي أقل وصارت حركاته أبطأ. الآن كان الضوء ضعيفا والأشياءُ تُصارع معه. سيصبح الليلُ حالكَ الظلمة؛ كان صديقي يتحسّس بالفعل الأشجار والنباتات وقريبا سندخلُ النفق بذكرى كلِّ ما شوّشه الضوءُ قبل أن يغيب. أوقفني عند باب حظيرة السيارات وقبل أن يحدثني استمعتُ أنا إلى الجدول. بعدها قال لي صديقي:

ــــ في الوقت الراهن لن تلمسَ وجوهَ الفتيات: فهن لا يعرفنك جيدا. لن تلمس سوى ما على يمينك وفوق المنصة.

كنت قد سمعتُ خطوات أليخاندرو. تحدث صديقي بصوتٍ خفيض وكلّفني من جديد:

ـــ لا يجب أن تفقدَ في أية لحظةٍ موقعك، بين أليخاندرو وبيني.

أضاء مصباحا صغيرا وأراني أولى درجات السلم، التي كانت طينية وبينها نُدف عشبٍ كالح. وصلنا إلى بابٍ آخر فأطفأ المصباح. وقال لي مرة أخرى:

ـــ أنت تعرف الآن، المنصة على اليمين وستجدها فور أن تسير خطوتين. هنا حافتها، وهنا فوقها، القطعة الأولى: لم أخمّنها أنا أبدا وأتركُها تحت تصرّفك.

بدأتُ بأن وضعتُ يديّ على صندوقٍ صغير مربع يبرزُ منه سطحٌ منحنٍ. لم إدرِ إن كانت تلك المادةُ بالغةَ الصلابة؛ لكنني لم أتجاسر على خدشِها بظفري. كان بها ثَلْمٌ ناعم، وجزءٌ خشنٌ بعض الشيء وقرب إحدى حواف الصندوق بُقع .. أو حبيبات. تلقيت انطباعا سيئا فسحبت يديّ. سألني:

ـــ هل فكرت في شيء؟

ـــ هذا لا يعنيني.

ـــ من رد فعلك أرى أنك قد فكرت في شيء ما.

ـــ فكرتُ في الحبيبات التي كنت أراها حين كنت طفلا في ظهر ضفادع بالغة الضخامة.

ـــ آه!، استمر.

بعدها وجدتُ نفسي مع كومةٍ من شيءٍ يُشبه الدقيق. وضعت يديّ برغبةٍ. فقال لي:

ـــ عند حافة المنصة هناك قطعةُ قماشٍ معلقة بمسمار كي تنظِّف يديك بعدها.

فأجبته، بمكر:

ـــ ودِدْتُ لو وُجِدَت شواطيءُ من الدقيق ...

ـــ حسنا، استمر.

بعدها وجدتُ قفصا له شكل پاجودا [معبد ياباني]. هززته لأرى إن كان فيه طائر. وفي تلك اللحظة ظهر وميضٌ خافت؛ لم أدرِ من أين يأتي وما حكايته. سمعتُ خطوةً لصديقي فسألته:

ـــ ماذا يجري؟

فسألني بدوره:

ــــ ماذا بك؟

ــــ ألم تر وميضا؟

ــــ آه، لا تشغل بالك. لما كانت الفتياتُ قليلاتٍ على نفقٍ بهذا الطول، يجب أن تتوزعن على مسافة كبيرة؛ ومن ثم، بذلك المصباح تُنبّهني كلُّ واحدة إلى مكان وجودها.

استدرتُ ورأيتُ الوميض يضيء عدة مرات كأنه حشرةٌ مضيئة. في تلك اللحظة قال صديقي:

ــــ انتظرني هنا.

وعند ذهابه نحو الضوء غطّاه بجسده. عندها فكرت أنه يبذُر أصابعَه في الظلمة؛ ثم يحصدها من جديد فتجتمع كلها على وجه الفتاة.

وسرعان ما سمعته يقول:

ــــ هذه ثالثُ مرةٍ تضعين فيها نفسَك في أول مكان، يا خوليا.

لكن صوتا خافتا أجابه:

ــــ لستُ خوليا.

في تلك اللحظة سمعت خطوات أليخاندرو تقترب فسألته:

ــــ ماذا في ذلك الصندوق الأول؟

تأخر في إجابتي:

ــــ غلافُ يَقطينة [قرعة].

فزِعت حين سمعت الصوت الغاضب لصديقي:

ــــ سيكون مناسبا ألاّ تسال أليخاندرو عن شيء.

مرَّرتُ تلك الكلمات بابتلاع اللعاب ووضعت يديّ على المنصة. قمنا ببقية الجلسة في صمت. أما الأشياء التي تعرّفت عليها، فكانت بالترتيب التالي: غلافُ يقطينة، كومةٌ من الدقيق، قفصٌ دون طائر، فردَتى حذاءِ طفل، حبةُ طماطم، عوينات، جوربُ امرأة، آلةٌ كاتبة، بيضةُ دجاجة، مشبكٌ من الصلب، مثانةٌ منتفخة، كتابٌ مفتوح، زوج من الأغلال، وعلبة

أحذية تحتوي على ديكٍ منتوف الريش. تحسّرتُ على وضع أليخاندرو للديك في المرتبة الأخيرة، فقد كان غير سارٍ تماما إحساسُ تحسّس جلده البارد المحبّب. فور أن خرجنا من النفق أضاء لي أليخاندرو السلالم المؤدية إلى التعريشة. عند وصولنا إلى ضوء ممرٍ وضع صديقي يده على رقبتي بإعزازٍ ليقول لي: " إغفر حدّتي اليوم"، لكنه في نفس الوقت أدار رأسَه إلى ناحيةٍ أخرى كأنه يقول: "ومع ذلك فأنا الآن في شأنٍ آخر ويجب أن أستمر فيه".

قبل أن يذهب إلى غرفته أشار لي بسبّابته أن أتبعه؛ ثم رفع نفس الإصبع إلى فمه ليطلب مني الصمت. في غرفته بدأ يُعدُّ الأريكتين بحيث ينظرُ كل واحدٍ في اتجاه معاكس ولا نرى وجهي بعضنا . أراح جسدَه على أريكة وأنا على الأخرى. أسلمتُ نفسي لأفكاري وأقسمتُ داخليا، أن أفعل كلَّ ما يمكن، في هذا الشأن.

بعد برهة فاجأني أخفضُ صوتٍ لصديقي، قائلا لي:

ـــ سيروقُني أن تقضي يوم الغدِ كله هنا؛ لكنني آسف على اضطراري لعرض ذلك بشرط ...

انتظرتُ بضع ثوانٍ ثم أجبته:

ـــ إذا قبلتُ أنا، يجب أن يكون ذلك، أيضا، بشرط.

في البداية ضحك، ثم قال:

ـــ أنظر، فليدوّن كلُّ واحدٍ شرطَه في ورقة. هل تقبل؟

ـــ حسنٌ جدا

أخرجتُ بطاقة. ثم، لما كانت رأسانا قريبتين، تبادلنا البطاقات دون أن ننظر إلى بعضنا. كانت بطاقة صديقي تقول: "أنا أحتاج إلى التجوُّل وحيدا، في أنحاء المنزل الريفي، خلال اليوم بطوله". وبطاقتي تقول: "ودِدتُ لو قضيتُه محبوسا في غرفة". عاود الضحك. ثم نهض وخرج بضع دقائق. وعند عودته، قال:

ـــ غرفتُك ستكون فوق هذه. والآن إلى المائدة.

هناك قابلت أحد المعارف: ديك النفق.

وعند نهاية العشاء قال لي:

ــــ أدعوك إلى سماع رباعية الدون كلاوديو.

استظرفتُ أُلفتَه مع ديبوسي. استلقينا على الأريكتين؛ وفي إحدى مرات تغييره للاسطوانة، توقف والاسطوانة بيده ليقول لي:

ــــ حين أكون هنا، أشعر أن أفكارا تحتكُّ بي وهي ذاهبةٌ إلى مكانٍ آخر.

انتهت الاسطوانة وواصل هو القول:

ــــ لقد عشتُ قرب أشخاصٍ آخرين واحتفظتُ في ذاكرتي بذكرياتٍ لا تخصّني.

تلك الليلة لم يقل لي المزيد وحين صرتُ في غرفتي، بدأتُ أتمشّى فيها؛ شعرتُ أنني في إثارةٍ هانئة وفكرت أن صديقي هو أكبرُ شيءٍ في النفق. بالضبط، في تلك اللحظة صعد هو السلم متعجلا. فتح الباب، وأطلّ برأسه بابتسامةٍ وطلب مني:

ــــ خطواتك لا تتركني هادئا؛ إنها مسموعةٌ جدا، هناك تحت ...

ــــ أوه، إعذرني!

فور أن انصرف نزعتُ الحذاء وبدأت أتمشى بالجورب. فلم يتأخر في معاودة الصعود: ــــ الآن أسوأ، يا عزيزي. خطواتك كأنها نبضات. لقد شعرت في مراتٍ أخرى بقلبي كأن أعرجَ يمشي في جسدي.

ــــ آه! كم ستندم على تقديم منزلك لي.

ــــ على العكس. كنت أفكر أنني فيما بعد لن يعجبني أن أعرف أن الغرفة التي كنتَ فيها خالية.

أجبته بابتسامةٍ مصطنعة فمضى على الفور.

نمتُ على الفور لكنني استيقظتُ بعد برهة. كان ثمة بروقٌ ورعودٌ بعيدة. نهضتُ وأنا أطأ برفق ومضيتُ لأفتح النافذة وأنظر إلى الضوء المائل إلى البياض لسماءٍ تُريد أن تنقضّ على المنزل بسُحبها السمينة. وسرعان ما رأيتُ على طريقٍ رجلا مُقرفصا يبحث عن شيءٍ بين النباتات الزاحفة. بعد بضع لحظات خطا بضع خطواتٍ جانبية، دون أن ينهض فقررتُ الذهاب لأنبّه صديقي. طقطقَت السلالم فانتابني الخوف أن يستيقظ

ويحسب أنني اللص. كان باب غرفته مفتوحا وفراشه خاليا. وحين عدتُ إلى أعلى لم أرَ الرجل. استلقيتُ وعاودت النوم. في اليوم التالي، بينما أنزلُ لأغتسل، أحضر لي الخادمُ طاقم شاي الماتى إلى أعلى؛ وبينما أتناوله، تذكرتُ ما حلمتُ به: كنا صديقي وأنا واقفين أمام مقبرة؛ وقال هو لي: "أتعرف من يَثوي هنا؟ الديكُ في صندوقه". لم يكن لدينا أي إحساسٍ بالموت. كانت تلك المقبرة مثل ثلاجةٍ تُقلِّد قبرا ببراعة ونعرف نحن أن فيها يستقرُّ كل الموتى الذين سنأكلهم فيما بعد.

كنت أتذكر هذا، وأنظرُ إلى المنزل الريفي عبر الستائر المصفرَّة وأتناولُ الماتى. فجأةً رأيتُ صديقي يعبر دربا ودون رغبةٍ قمتُ بإيماءةِ جاسوس. ثم قررتُ عدم النظر إليه؛ وحين فكرت أنه لا يسمعني بدأت أذرع الغرفة. وفي إحدى المرات التي وصلتُ فيها إلى النافذة رأيت أن صديقي يمضي نحو حظيرة السيارات؛ لكنه انعطف بعدها إلى موضعٍ فيه غسيلٌ منشور ووضع يدا مفتوحة وسط ملاءةٍ افترضتُ أنها ندية.

لم نر بعضنا إلاّ ساعة العشاء. قال لي:

ـــ حين أكون في البازار أرغب في هذا اليوم؛ وهنا أعاني أوجه سأمٍ وحزنٍ مُرعبة. لكنني أحتاج الوحدة وألاّ أرى كائنا بشريا. أوه، إعذرني! ...

عندها قلت له:

ـــ الليلة الماضية لابد أن كلابا انطلقت في المنزل الريفي ... هذا الصباح رأيتُ زهورَ نرجسٍ ملقاة في طريق.

ابتسم:

ـــ كنتُ أنا؛ يروقني أن أفتِّش عنها بين الأوراق قبل الفجر بقليل. ـــ ثم نظر إليّ بابتسامةٍ جديدة وقال لي: ـــ كنتُ قد تركتُ الباب مفتوحا، وعند عودتي وجدته مغلقا.

ابتسمت أنا أيضا:

ـــ خفتُ أن يكون لصا ونزلتُ لأنبّهك.

تلك الليلة عدنا إلى وسط المدينة وكانَ على ما يرام.

يوم السبت التالي كنا في المطلِّ وفجأة رأيتُ إحدى الفتيات تأتي نحوي. اعتقدتُ أنها تريد أن تقول لي سرًّا فأملتُ رأسي

إلى جانبٍ؛ عندها قبّلتني الفتاةُ في وجهي. بدا ذلك أمرا متوقّعا فقال صديقي:

ـــ ما هذا؟

فأجابته الفتاة:

ـــ لسنا الآن في النفق.

ـــ لكننا في منزلي ـــ قال هو.

كانت الفتيات الأخريات قد أتين؛ قلن لنا أنهن كن يتراهنّ وتلك القبلة عِقابٌ. فقلت أنا، حتى أخفي الأمر:

ـــ مرة أخرى لا توقّعن عقوبات بهذه الفداحة!

فأجابتني فتاةٌ ضئيلة:

ـــ هذه العقوبة تمنّيتُها لنفسي!

انتهى الأمر على خير؛ لكن صديقي ظل متضايقا.

في الساعة المعتادة دخلنا النفق. صادفتُ من جديدٍ غلافَ اليقطينة؛ لكن صديقي كان قد ألصق عليها بطاقة حتى يتم سحبُها من المنصة. بعدها بدأتُ ألمس كتلةً كبيرة من مادةٍ رملية. لم يهمني ذلك؛ تشتَّت انتباهي وأنا أفكر أنه سرعان ما يُضاء ضوءُ أول امرأة؛ لكن يديّ ظلتا مُشتّتتين على الكتلة. بعدها لمستُ بضعة أشياء ذات حوافٍ وسرعان ما انتبهتُ أنها قفازات. ظللتُ أفكر في مغزى ذلك بالنسبة للأيدي وفي أن الأمر يتعلق بمفاجأةٍ لها وليس لي. وبينما ألمسُ زجاجا خطر لي أن الأيدي تُريد أن تجرِّب القفازات. تأهبت لعمل ذلك؛ لكنني توقفت من جديد: بدا أنني ابٌ لا يريد أن يوافق على كل نزوات بناته. وعلى الفور بدأ يجتاحني شكٌّ آخر. كان صديقي مُتقدما على نحوٍ مفرط في عالم الأيدي ذاك. ربما يكون قد جعلها تُطوِّر ميولا تُتيح لها أن تحيا حياةً مفرطةَ الاستقلال. فكرتُ في الدقيق التي كانت يداي قد لمستاه برغبةٍ بالغة خلال الجلسة السابقة وقلت لنفسي: "الأيدي يروقُها الدقيقُ الخام". عندها صنعتُ كل ما يمكن للتخلّي عن تلك الفكرة وعدتُ إلى الزجاج الذي لمستُه من قبل؛ خلفه كانت دعامة. أيكون ذلك صورةً شخصية؟ وكيف يمكنُ أن نعرف؟ كذلك يمكن أن يكون مرآة ... لكن مع ذلك. وجدتُ أن خيالي مخدوعٌ مع بعض السخرية من جانب الظلمة.

وعلى الفور تقريبا رأيتُ وميضَ الفتاة الأولى. ولا أدري لماذا، في تلك اللحظة، فكرت في الكتلة التي لمستُها في البداية وفهمتُ أنها رأس الأسد. كان صديقي يقول لإحدى الفتيات:

ـــ ما هذا؟ رأسُ دمية؟ ... كلب؟ ... دجاجة؟

ـــ لا ـــ أُجيبَ ـــ ؛ إنها واحدةٌ من تلك الأزهار الصفراء التي ...

قاطعها:

ـــ ألم أقل لكن ألا تجلبن شيئا؟ ...

قالت الفتاة:

ـــ أحمق!

ـــ ماذا؟ من أنتِ؟

ـــ أنا خوليا ـــ قال صوتٌ حازم.

ـــ لا تجلبي شيئا مرة أخرى في يديك ـــ رد صديقي بوهن.

حين عاد إلى المنصة، قال لي:

ـــ يروقُني أن أعرف أن بين هذه الظلمة زهرة صفراء.

في تلك اللحظة أحسستُ بمن يحتكّ في السترة وكان أول تفكيري في القفازات وكأنما يمكنها أن تسير وحدها. لكنني في نفس الآن تقريبا فكرتُ في شخصٍ ما. عندئذ قلت لصديقي:

ـــ احتكّ شخصٌ بسترتي.

ـــ مستحيلٌ تماما. أنت تهلوس. عادةً ما يحدث هذا في النفق!

وفي أقل الأوقات توقُّعا سمعنا ريحا عاتية. صرخ صديقي:

ـــ ما هذا؟

الغريب أننا سمعنا الريحَ ولم نشعر بها في أيدينا ولا في وجوهنا. عندها قال أليخاندرو:

ـــ إنها ماكينةٌ لتقليد الريح أعارني إياها عاملُ مسرح.

ــــ حسنٌ جدا ــــ قال صديقي ــــ، لكن هذا ليس للأيدي ...

بقي صامتا بضع لحظات وفجأة سأل:

ــــ من أدار الماكينة؟

ــــ الفتاةُ الأولى؛ ذهبَت إلى هناك بعد أن لمستَها حضرتُك.

ــــ آه! ــــ قلتُ ــــ، أرأيتَ؟ كانت هي من احتكت بي.

تلك الليلة، بينما يغير الاسطوانات، قال لي:

ــــ اليوم تمتعتُ جدا. خلطتُ بين الأشياء، فكرتُ في أشياء أخرى مختلفة وعاودتني ذكرياتٌ غير متوقعة. لم أكد أبدأ تحريك جسدي في الظلمة حتى بدا لي أنني سأتعثرُ في شيءٍ غريب، أن جسدي سيبدأ الحياة بطريقةٍ أخرى وأن رأسي على وشك أن تفهم شيئا هاما. وفجأة، حين تركتُ شيئا واستدار جسدي ليلمس وجها، اكتشفتُ من غشّني في تجارةٍ.

ذهبت إلى غرفتي وقبل أن أنام فكرت في قفازات شامواه لا تكاد تُبرِزها يدا امرأة. بعدها سأسحبُ القفازات كأنني أعرّي اليدين. لكن بينما أدخلُ في الحلم تحولت القفازاتُ إلى قشر موز. ولابد أن برهة طويلة قد انقضت وأنا نائمٌ حين شعرتُ بأيدٍ تلمس وجهي. استيقظتُ صارخا، وبقيتُ لحظاتٍ طافيا في الظلمة وأخيرا انتبهتُ أنني قد انتابني كابوس. صعد صديقي السلالم جريا وسألني:

ــــ ماذا بك؟

بدأت أقول له:

ــــ رأيتُ حلما ...

لكنني توقفتُ؛ لم أُرِد أن أحكي له الحلم لأنني خشيتُ أنه قد يلمسُ وجهي. انصرف هو على الفور وبقيتُ مستيقظا؛ لكن بعد برهةٍ قصيرة سمعتُ الباب يُفتحُ ببطء فصرختُ بصوتٍ مشروخ:

ــــ من هناك؟

في تلك اللحظة ذاتها سمعت ظِلفًا يهبط السلم. وحين صعد صديقي من جديدٍ قلتُ له أنه ترك الباب مفتوحا فدخل كلب. بدأ يهبط السلّم.

يوم السبت التالي، لم نكد ندخل النفق، حتى صدرَت بعضُ الأنّات المُدلَّلة ففكرتُ في كلب. بدأت واحدةٌ من الفتيات في الضحك وعلى الفور ضحكنا جميعا. تضايق صديقي كثيرا وقال كلماتٍ غير لائقة؛ سكتنا جميعا على الفور؛ لكن خلال فاصلٍ بين كلمات صديقي سُمِعت أنّاتُ الكلب الصغير بصورةٍ أقوى فعدنا نضحك جميعا. عندها صرخ صديقي:

ــــ إذهبوا جميعا! بَــرَّه! إخرجوا جميعا!

من كنَّا قريبين منه سمعناه يلهثُ؛ وعلى الفور، بصوتٍ أشد وهنا، كأنما يُخفي وجهه في الظلمة، سمعناه يقول:

ــــ باستثناء خوليا.

خطر لي شيءٌ لم أستطع الكفَّ عن فعله: أن أبقى في النفق. انتظر صديقي أن يخرجَ الجميعُ. بعدها، من بعيد، بدأت خوليا تُصدر إشارات بمصباحها. ظهر الضوءُ على فتراتٍ منتظمة، مثل ضوءِ فنار، سار صديقي وهو يخطو بقوة وحاولتُ أنا أن تتطابق ضجةُ خطواتي مع خطواته. وحين كنتُ قريبا من خوليا، قالت:

ــــ هل تتذكر حضرتُك وجوها أخرى حين تلمسُ وجهي؟

جعل الــــ "نون" تطِنُّ برهةً قبل أن يقول "نعم". وأضاف على الفور:

ــــ ... أعني ... الآن أفكر في امرأة من فيينا كانت في باريس.

ــــ هل كانت صديقةً لك؟

ــــ كنت صديقا للزوج. لكن ذات مرة أوقعه حصانٌ خشبي ...

ــــ هل حضرتُك تتكلم بجد؟

ــــ سأشرح لكِ. كان ضعيفا وطلبت منه عمةٌ غنية تحيا في الريف أن يمارسَ الرياضة. كانت هي قد ربّتهُ. كان يرسل لها صورا فوتوغرافية وهو بزيِ الرياضة؛ لكنه لم يفعل أبدا سوى القراءة. وبعد زواجه بقليل أراد عملَ صورةٍ وهو على ظهر حصان. كان شديد الفخر بقبعته ذات الحافة العريضة؛ لكن الحصان كان من خشبٍ نخره السوس؛ وفجأة انكسرت ساقُه، وعلى الفور سقط الفارسُ وكسرت ذراعُه.

ضحكت خوليا قليلا وتابع هو:

ـــ ومن ثم، لهذا السبب، ذهبتُ إلى منزله وتعرَّفتُ على السيدة ... في البداية كانت تحدثني بابتسامة ساخرة. كان الزوج بذراعٍ معلَّقة ومحاطا بالزوار. أحضرَتْ له حساءً فقال أنه في حالته تلك ليست لديه أية شهية. قال كل الزوَّار أن هذا يحدث حقا حين يكون المرء في تلك الحال. ظننتُ أن كل الزائرين أصيبوا بكسور وتخيّلتهم في غبش تلك الغرفة بسيقانٍ وأذرع بيضاء ومنتفخة بالضمادات.

(في أقل الأوقات توقُّعا عدنا لسماع أنات الكلب فضحكت خوليا. خشيتُ أن يمضي صديقي ليمسك بها فيتعثّر بي. لكنه تابع حكايته بعد لحظات.)

ـــ حين استطاع النهوض كان يسيرُ ببطء وذراعه معلّقةٌ بجبيرة. وبالنظر إليه من الخلف، مرتديا أحد أكمام السترة دون الأخر، كان يبدو أنه يحمل أرغُنا يدويا ويتنبأ بالحظ. دعاني للذهاب إلى البدروم لإحضار زجاجةٍ من أفخر النبيذ. لم تُرِد السيدة أن يذهب وحده. مضي هو في المقدمة؛ حاملا شمعة؛ أحرق اللهب نسيجَ العنكبوت فهربت العناكب؛ ومضت هي خلفه، ثم أنا ...

توقف صديقي فسألته خوليا:

ـــ قلت حضرتك منذ لحظات أن تلك السيدة، في البداية، كانت تقابلك بابتسامة ساخرة. وبعد ذلك؟

بدأ صديقي يشعر بعدم الارتياح:

ـــ لم تكن ساخرةً معي فقط؛ لم أقل ذلك!

ـــ حضرتك قلت أنها كانت كذلك في البداية.

ـــ حسنا ... وبعد ذلك استمرت مثل البداية.

زام الكلب وقالت خوليا:

ـــ لا تعتقد أن ذلك يشغلني؛ لكن ... لقد جعلتَ وجهي يلتهب.

سمعت صوتَ جذبِ المسند وخطواتِهما وهما يخرجان وإغلاقَ الباب. عندها جريتُ وسارعتُ بالخبط على الباب بقبضتي وقدمي. فتح صديقي وسأل:

ــــ من؟

أجبته فتلعثم ليقول لي:

ــــ لا أريدُك أن تأتي أبدا إلى النفق ...

همَّ بأن يضيف شيئا، لكنه فضّل الانصراف.

تلك الليلة أخذتُ الأوتوبيس مع الفتيات وأليخاندرو؛ مضوا هم في المقدمة وأنا إلى الخلف. لم ينظر إلىّ أيُّ أحدٍ منهم وسافرتُ مثل خائنٍ.

بعد بضعة أيام أتي صديقي إلى منزلي؛ كان الوقت ليلا وكنت قد أويت إلى فراشي. طلب مني أن أغفرَ له جعلي أنهض وما قاله لي عند مخرج النفق. ورغم ابتهاجي، كان مشغولَ البال. وسرعان ما قال لي:

ــــ اليوم أتى إلى البازار والدُ خوليا: لا يريدُني أن ألمسَ وجه ابنته ثانيةً؛ لكنه ألمح لي أنه لن يقول شيئا لو كان ثمة ارتباط. نظرتُ إلى خوليا وفي تلك اللحظة كانت عيناها منكّستين وتخدشُ الطلاءَ من أحد أظافرها. عندها انتبهتُ أنني أحبها.

ــــ هذا أفضل ــــ أجبتُه أنا ــــ. ألا تستطيعُ أن تتزوَّجها؟

ــــ لا. فهي لا تريدُني أن ألمسَ المزيدَ من الوجوه في النفق.

كان صديقي جالسا ومرفقاه متكئين على ركبتيه وسرعان ما أخفى وجهه؛ في تلك اللحظة بدا لي صغيرا مثل وجه خروف. هممتُ أن أضع يدي على كتفه ودون قصدٍ لمستُ رأسه الجعداء. عندها فكرت أنني احتككتُ بأحد أشياء النفق.

لم يُضيء أحدٌ المصابيح

منذ زمنٍ بعيد كنتُ أقرأ قصةً في قاعةٍ عتيقة. في البداية
كان قليلٌ من أشعة الشمس يدخل من خلال أحد المصاريع.
بعدها أخذ يسقط ببطء على بعض الأشخاص حتى بلغ منضدةً
عليها صور موتى أعزاء. كان يُجهدني إخراج الكلمات من
جسدي مثلما من آلةٍ ذات منفاخٍ مكسور. في الكراسي الأولى
جلست أرملتان تملِكان المكان؛ كانتا مُتقدمتين في السن،
لكن ما زالت تبرز قمة شعرهما. كنت أقرأ دون رغبة وأرفع
رأسي كثيرا عن الورقة؛ لكن كان عليّ أن أراعي ألاّ أنظر
دائما إلى نفس الشخص؛ وكانت عيناي قد تعوّدتا على التوجّه
كل لحظة إلى المنطقة الشاحبة الواقعة بين رداء وقمة شعر
إحدى الأرملتين. كانت وجها هادئا لابد أنه سيواصل تذكّر

نفس الماضي لبعض الوقت. وفي بعض اللحظات بدت عيناها زجاجا مُضبّبا ليس خلفه أحد. سرعان ما فكرتُ في أهمية بعض المدعوين وبذلت جهدا للدخول في حياة القصة. وفي إحدى مرات شرودي رأيتُ عبر المصاريع حماماتٍ تتحرك فوق تمثال. بعدها رأيتُ، في مؤخرة الصالة، امراةً شابة قد أسندت رأسها إلى الحائط؛ كانت كتلةُ شعرها المتموِّج بالغةَ التشعُّث فجُلتُ بعينيّ فيها كأنني أرى نبتةً قد نمت مستندةً على جدار منزلٍ مهجور. أجهدني أن أضطّر لفهم تلك القصة من جديد وأنقل مغزاها؛ لكن أحيانا كانت الكلماتُ وحدها وعادَةُ قولها تُنتجان تأثيرا دون أن أتدخّل ويدهشني ضحك المستمعين. عاودتُ تمرير عينيّ على الرأس المستندة إلى الحائط وفكرت أن المرأة ربما تكون قد انتبهت؛ عندها، حتى لا أكون وقحا، نظرت نحو التمثال. ورغم أنني واصلتُ القراءة، فكرتُ في البراءة التي يجب أن يمثِّل بها التمثال شخصيةً لا يفهمها. فربما يمكنه التفاهم أكثر مع الحمامات؛ إذ بدا موافقا على أن تحلّق في دوائر فوق رأسه وتحطّ على الاسطوانة التي تسند عليها الشخصية جسدها. فجأة وجدت أنني عاودت النظر إلى الرأس المستندة إلى الحائط وأنها في تلك اللحظة قد أغمضت عينيها. بعدها بذلتُ جهدا لتذكّر الحماس الذي كان لديّ في المرات الأولي لقراءة تلك القصة؛ كان فيها امرأةٌ تذهب كل يوم إلى جسرٍ بأمل أن تتمكّن من الانتحار لكن كانت العقبات تنشأ كل يوم. ضحك المستمعون حين عرض شخصٌ عليها الزواج في إحدى الليالي فمضت المرأة، المرعوبة، جريا إلى منزلها.

ضحكت إمرأة الحائط أيضا وقلّبت رأسها على الجدار كأنها مستلقيةٌ على وسادة. عندها كنت قد تعودّت انتزاع بصري من تلك الراس وإلقائه على التمثال. أردتُ التفكير في الشخصية التي يُمثِّلها التمثال؛ لكن لم يخطر لي شيءٌ جاد؛ ربما تكون روحُ الشخصية قد فقدت هي الأخرى الجدية التي كانت لها في حياتها وتأخذُ الآن في اللعب مع الحمامات. اندهشتُ حين عادت بعض كلماتي لتثير الاستحسان؛ نظرتُ إلى الأرملتين ورأيت أن أحداً قد أطلّ من العينين المضبَّبتين لمن بدت الأكثر حزنا. وفي إحدى المناسبات التي انتزعت فيها بصري من الرأس المستندة إلى الحائط، لم أنظر إلى التمثال بل إلى غرفةٍ أخرى اعتقدت أنني أرى فيها ألسنةَ لهبٍ فوق منضدة؛ تابع بعضُ الأشخاص حركتي؛ لكن فوق المنضدة

لم يكن سوى إبريق به زهور حمراء وصفراء تقع عليها بعض أشعة الشمس.

حين أنهيتُ قصتي اشتعل الضجيج وأحاط بي الناس؛ إبدوا تعليقات وبدأ أحد السادة يحكي لي قصةً عن امرأةٍ أخرى انتحرت. كان يريد التعبير جيدا عن نفسه لكنه يتأخر في العثور على الكلمات؛ كما يقوم بالتفافاتٍ وتراجعات. نظرتُ إلى الآخرين ورأيت أنهم يستمعون بصبرٍ نافد؛ كنا جميعا ساكنين ولا ندري ماذا نفعل بأيدينا. اقتربت المرأةُ ذات موجات الشعر المشعثة. وبعد أن نظرتُ إليها، نظرتُ إلى التمثال. لم أكن أودّ سماع القصة لأن جهد ذلك الرجل لمطاردة الكلمات كان يؤلمني: كأن التمثال قد أخذ يتحسَّس الحمامات.

لم يستطع من يحيطون بي الكف عن سماع سيِّد القصة؛ فقد كان يقصّها بإصرارٍ أحمقٍ كأنه يريد أن يقول: "أنا سياسي، أعرف كيف أرتجل خطبةً وكذلك كيف أقصُّ قصةً تكون مثيرةً للاهتمام".

بين المستمعين كان شابٌ في جبهته شيءٌ غريب: كان شريطا داكنا عند منبتِ الشعر؛ وجعل له هذا اللونُ ذاته ـــ مثل لون لحيةٍ كثيفةٍ حديثة الحلاقة وتُغطّيها البودرة ـــ اتساعا كبيرا في جبهته. نظرتُ إلى المرأة ذات الشعر الأشعث ورأيت بدهشةٍ أنها أيضا تنظرُ إلى شعري. عند ذلك أنهى السياسيُّ وصفَّق الجميع. لم أتشجَّع لتهنئته وقالت إحدى الأرملتين: "اجلسوا، من فضلكم". ففعلنا جميعا وساد تنهيدٌ عام؛ لكنني اضطررت للنهوض من جديد لأن إحدى الأرملتين قدّمتني للشابة ذات الشعر المتموِّج: اتضح أنها ابنة أختها. دعوني إلى الجلوس على أريكةٍ ضخمة تسع ثلاثةً؛ وعلى جانبٍ جلست ابنة الأخت وعلى الجانب الآخر الشابُ ذو الجبهة الحليقة. بدأت ابنة الأخت الحديث، لكن الشاب قاطعها. كان قد رفع يداً بأصابع إلى أعلى ـــ مثل هيكل مظلّةٍ لواها الريح ـــ وقال:

ـــ أخمّنُ في حضرتكَ شخصيةً مستوحدة يمكنُ أن تَرضى بصداقة شجرة.

فكرتُ أنه قد حلق هكذا حتى تصبح جبهته أعرضَ، وشعرت بشرٍّ أن أجيبه:

ـــ لا تظن ذلك؛ فالشجرة لا يمكن دعوتها للتمشّي.

ضحكنا ثلاثتنا. أرجع جبهته الحليقة إلى الوراء وواصل:

ـــ حقيقي؛ الشجرة هي الصديقُ الذي يبقى دائما.

نادت الأرملتان على ابنة الأخت. فنهضَت بإيماءةِ ضيقٍ؛ نظرتُ إليها بينما تمضي، وعندئذ فقط انتبهتُ إلى أنها قويةٌ وعنيفة. وحين أدرتُ رأسي وجدتُني مع شابٍ قدّمه لي ذو الجبهة الحليقة. كان قد صفَّف شعره حديثا وعلى أطراف شعره قطراتُ ماء. ذات مرة صفّفتُ شعري هكذا، حين كنتُ طفلا، فقالت لي جدّتي: :يبدو كأن البقر قد لعَقَك". جلس الحديثُ الوصولِ مكان ابنة الأخت وشرع يتكلم:

ـــ آه، يا إلهي، سيد القصة ذاك، ياله من عنيد!

عن طيب خاطرٍ كان يمكن أن أقول له: "وحضرتك؟"، "يالك من أنثوي؟" لكنني سألته:

ـــ ما اسمه؟

ـــ من؟

ـــ السيد ... العنيد.

ـــ آه، لا أذكر. له اسمٌ أرستوقراطي. إنه سياسيٌ ودائما ما يضعونه عضوا في المسابقات الأدبية.

نظرتُ إلى ذي الجبهة الحليقة فصنع لي إيماءةً كأنه يقول "وماذا سنفعل له!"

حين جاءت ابنة أخت الأرملتين انتزعت "الأنثوي" من الأريكة جاذبةً إياه من ذراعه وجاعلة قطراتٍ من الماء تسقط على سترته. ثم قالت على الفور: ـــ أنا لا أتفق مع حضراتكم.

ـــ لماذا؟

ـــ ... أستغربُ ألاّ تعرفوا حضراتكم كيف تفعلُ الشجرةُ لتتمشّى معنا.

ـــ ماذا؟

ـــ تُكرِّرُ نفسَها على خطواتٍ كبيرة.

امتدحنا فكرتها فتحمّست:

ـــ تكرِّر نفسَها في جادّةٍ لتُشير لنا إلى الطريق؛ بعدها تجتمع جميعا على البعد وتُطلُّ لترانا؛ وكلما اقتربنا تنفصل عن بعضها وتدعنا نمرُّ.

قالت هذا كله بنوعٍ من الإعزاز الفَكِه وكأنها تُخفي فكرةً رومانسية. وجعلها الخجلُ والمتعة تتورّد. قاطع الأنثويُ ذلك الانشراح:

ـــ ورغم ذلك، حين يحلُّ الليل في الغابة، تُهاجمنا الأشجار من كل مكان؛ تنحني بعضها كأنما لإفساح ممرٍ والانقضاض علينا؛ كذلك تقطع علينا الطريق وتخيفنا فاتحةً ومغلِقةً] أغصانها.

لم تستطع ابنة أخت الأرملتين التحكُّم في نفسها:

ـــ يا يسوع، تبدو كأنك سنووايت[بيضاء الجليد]!

وبينما نضحك، قالت لي أنها تودّ أن تسألني سؤالا ومضينا إلى الغرفة التي فيها الإبريق ذو الأزهار. اتكأتْ على المنضدة حتى انغرست قُرصَتها في جسدها؛ وبينما تضع يديها في شعرها، سألتني:

ـــ قل لي الحقيقة: لماذا انتحرت المرأة في قصتك؟

ـــ أوه، كان يجب أن تسأليها هي.

ـــ وحضرتك، ألم تستطع أن تفعل؟

ـــ سيكون مستحيلاً مثل سؤال صورة حلمٍ عن شيء. ابتسمَت وخفضت عينيها . عندها استطعتُ النظر إلى كلٍّ فمها، الذي كان بالغ الضخامة. وبدا أن حركة الشفتين، الممتدَّتين نحو الجانبين، لن تنتهي أبدا؛ لكن عينيّ جابتا بسرورٍ كلَّ تلك المسافة من الأحمر الرطب. ربما كانت تَرى من خلال الجفنين؛ أو تفكر أنني في ذلك الصمت لن أفعل شيئا طيبا، لأنها خفضت رأسها كثيرا وأخفت وجهها. الآن كانت تُظهر كل كتلة شعرها؛ وفي زوبعةٍ من الأمواج لم يكن يظهر منها سوى القليل من الجلد، فتذكّرتُ دجاجةً كانت الريح قد نكشَتَ ريشاتِها وظهرَ لحمُها. أحسست بالمتعة لتخيُّل أن تلك الرأس دجاجةٌ آدمية، كبيرة ودافئة، ستكون حرارتها رقيقةً جدا وأن الشعرَ ضربٌ رهيفٌ جدا من الريشات.

جاءت إحدى الخالتين ــ التي ليست عيناها مُضبَّبَتين ــ لتحضر لنا كأسين من الليكير. رفعت ابنةُ الأخت رأسها فقالت لها الخالة:

ــ يجب الحذر مع هذا؛ إنظري فله عينا ثعلب.

عاودتُ التفكير في الدجاجة وأجبتها:

ــ سيدتي! لسنا في خِنّ دجاج!

حين أصبحنا وحدنا من جديد وبينما أُجرِّب الليكير ــ كان مُفرِط الحلاوة وبَعثَ فيَّ الغثيان ــ، سألتني:

ــ ألم يكن لدى حضرتك فضولٌ أبدا بشأن المستقبل؟

كانت قد ضمّت فمها كأنها تُريد أن تحفظه داخل الكأس.

ــ لا، لدي فضولٌ أكبر لمعرفة ما يحدثُ في نفس هذه اللحظة لشخصٍ آخر؛ أو لمعرفة ماذا يمكن أن أفعل الآن لو كنتُ في مكانٍ آخر.

ــ قل لي، ماذا كنت تفعل حضرتك الآن لو لم أكن موجودةً؟

ــ بالصدفة أعرف ذلك: سأُفرِغُ هذا الليكور في إبريق الأزهار.

طلبوا مني أن أعزف البيانو. وحين عدت إلى القاعة كانت الأرملة ذات العينين المضبّبتين محنية الرأس تتلقى في مسامعها ما تقوله أختها بإصرار. كان البيانو صغيرا، وعتيقا، وغير مُدوزَنٍ. لم أدرِ ماذا كنتُ أعزف؛ لكن فور أن بدأت أُجرِّبه انخرطَت الأرملةُ ذات العينين المُضبّبتين في البكاء فصمتنا جميعا. أخذتها الأخت وابنة الأخت إلى الداخل؛ وبعد برهة جاءت ابنة الأخت وقالت لنا أن خالتها لم تُرِد سماع الموسيقى منذ وفاة زوجها ــ فقد أحبّا بعضهما حتى بلغا البراءة.

بدأ المدعوون في الانصراف. ومن بقينا أخذنا نتحدثُ بصوتٍ يزداد انخفاضا بقدر ما يخفُت الضوء. لم يُضيء أحدٌ المصابيح.

كنتُ بين آخر من انصرفوا، أتعثّرُ في الأثاث، حين استوقفتني ابنة الأخت:

ــ يجب أن أُكلّفك بشيء.

لكن لم تقل شيئا: أسندت رأسها إلى حائط القاعة وأمسكَت كمَّ سترتي.

التمساح

ذات ليلة خريفية كان الجو حارا رطبا وكنت قد ذهبتُ الى مدينةٍ تكاد تكون مجهولةً بالنسبة لى؛ كانضوء الشوارع الخافت كابيا بفعل الرطوبة وبعض أوراق الشجر. دلفتُ الى مقهى قرب كنيسة، وجلستُ الى طاولةٍ فى العمق وفكرتُ فى حياتى. كنت أعرفُ كيف أعزلُ ساعاتِ السعادة وأحبِس نفسى فيها؛ كنت أولا أسرق بعينىّ أىَّ شىءٍ مُهمل فى الشارع أو داخل البيوت ثم أحمله الى وحدتى. وكانت متعتى بإعادة تفقُّدِه تبلغُ حدَّ أن الناس لو عرفوا لكرهونى. ربما لنيتبقى لى وقت طويل للسعادة. كنت قد عبرت تلك المدن من قبل مقدما حفلات عزف على البيانو؛ كانت ساعات الهناء نادرة، فقد كنت أعيش فى عذاب تجميع أناس يودّون إنجاح تقديم حفل موسيقى؛ كان علىّ أن أنسق بينهم، وأجعلهم يؤثرون فى بعضهم، وأحاول العثور على رجل يكون نشيطا. وكان ذلك على الدوام تقريبا أشبه بالصراع مع مخمورين بطيئين وشاردى الذهن:فحين أنجح فى إحضار أحدهم يفلت منى الآخر. وعلاوة على ذلك كان علىّ أن أدرس وأن أكتب مقالات فى الصحف.

منذ بعض الوقت لم أعد أحمل ذلك الهم: فقد استطعتُ الانضمام الى شركةٍ ضخمة لجوارب السيدات. فكّرت أن الجوارب أكثر ضرورة من الحفلات الموسيقية ومن الأسهل إلباسُها]. قال أحد أصدقائى للمدير أن لى علاقات نسائية كثيرة، لأننى عازف بيانو وجُبتُ مدنا كثيرة: ومن ثم يمكننى استغلال نفوذ الحفلات الموسيقية فى إلباس الجوارب.

تقلّصت أساريرُ المدير؛ لكنه قَبِل، ليس بسبب نفوذ صديقى فحسب، بل لأننى فُزت بالمرتبة الثانية فى شعارات الدعاية لتلك الجوارب.كانت ماركة الجوارب "*حلم*".وكانت عبارتى: "منذا لا يُربِّتُ ، اليوم، على جورب *حلم* ؟". لكن بيع الجوارب اتضح أيضا أنه بالغ الصعوبة بالنسبة لى وكنت أتوقّع من لحظة لأخرى أن يستدعونى من المركز الرئيسى ويقطعوا عنى مصروف الجيب. فى البداية بذلت جهدا كبيرا.(فلم يكن لبيع الجوارب علاقة بحفلاتى الموسيقية : وكان علىّ أن أتفاهم بشأنها مع التجار وحدهم). وحين أصادف معارف قدماء كنت أقول لهم أن تمثيل شركة تجارية كبرى يتيح لى أن أسافر باستقلالية ولا أضطرُّ أصدقائى لرعاية حفلات موسيقية حين لا تكون الحفلات مواتية. ولم تكن حفلاتى الموسيقية مواتية أبداً.وفي هذه المدينة ذاتها كانوا قد تذرّعوا لي بذرائع غير مألوفة: كان رئيس النادي معتكر المزاج لأنني جعلته ينهض عن طاولة اللعب وقال لي أنه بسبب وفاة شخصٍ له أقارب كثيرون، كان نصف المدينة في حداد. والآن قلت لهم: سأبقى بضعة أيامٍ لأرى هل ستنشأ بشكلٍ طبيعي الرغبة في حفلٍ موسيقي؛

لكن حقيقة أن يبيع عازفُ موسيقى الجوارب أعطتهم انطباعا سيئا.
أما بالنسبة لإلباس الجوارب، فكنتُ كل صباح أحفزُ معنوياتي وكل مساءٍ تَفتر معنوياتي؛ فكأنني أرتدي ثيابي وأخلعها. وأجهدني أن أُجدِّد في كل لحظةٍ قوةً خشنةً معينة ضرورية للإلحاح أمام تجّارٍ مُتعجِّلين دوما. لكنني الآن كنت قد قنعتُ بانتظار أن يفصلوني وأحاول الاستمتاع طالما بقي مصروف الجيب.

وفجأة انتبهتُ أن أعمى بقيثارةٍ قد دخل المقهى؛ كنت قد رأيته في المساء. قرّرت الانصراف قبل أن أفقد الرغبة في الاستمتاع بالحياة؛ لكن عند مروري بقربه عاودتُ رؤيته بقبّعة ذات جناحين سيّئي الطيّ وهو يُدير عينيه صوب السماء بينما يبذل جهده ليعزف؛ كانت بعض أوتار القيثارة مُضافةً وكان خشبُ الآلة الفاتح والرجلُ كله مكسوَين بقذارةٍ لم أرها مطلقا. فكّرت في نفسي وشعرت باكتئاب.

حين أضأتُ النور في غرفتي بالفندق، رأيت سريري في تلك الأيام. كان مفتوحا وجعلتني أعمدتُه المطلية بالنيكل أفكر في شابّة مجنونة تُسلِم نفسها لأي شخص. وبعد أن استلقيتُ أطفأتُ النور لكنني لم أستطع النوم. عاودتُ إضاءته فظهر المصباح تحت مظلته مثل كرة عينٍ تحت جفنٍ داكن. أطفأتُه على الفور وأردتُ التفكير في تجارة الجوارب لكنني ظللت أري للحظةٍ، في الظلام، مظلةَ الضوء. استحالت إلى لونٍ فاتح؛ ثم، بدأت هيئتها، كأنها روح المظلة المُعذَّبة، تمضي إلى جانبٍ وتتلاشى في الظلام. جرى هذا كله في الوقت الذي تستغرقه ورقة نشّاف في امتصاص الحبر المسكوب.

وصباح اليوم التالي، بعد أن ارتديتُ ثيابي وحفزتُ معنوياتي، مضيتُ لأرى إن كان قطار المساء قد حمل إليّ أنباءً سيئة. لم أجد خطابا ولا برقية. قررت أن أمرّ على متاجر أحد الشوارع الرئيسية. عند طرف ذلك الشارع يقع متجر. عند دخولي وجدت نفسي في حجرة مليئة حتىالسقف بالأقمشة والحليّ التافهة. لم يكن ثمة سوى مانيكانٍ عار، من القماش الأحمر، له بدل الرأس مقبضٌ أسود. صفّقتُ وعلى الفور ابتلعت الأقمشةُ الضوضاء. وخلف المانيكان ظهرت طفلة، في حوالي العاشرة، قالت لي بطريقة فظة:

ـــ ماذا تريد؟

ـــ صاحب المحل موجود؟

ـــ لا يوجد صاحب محل. الرئيسة هي أمي.

ـــ أليست موجودة؟

ـــ ذهبت عند دونيا بيثنتا وسوف تعود حالا.

ظهرطفلٌ في حوالي الثالثة. تشبّث بجونلّة أخته ولبرهة ظل المانيكان، والطفلة، والطفل في طابور. قلت:

ـــ سأنتظر.

لم تردّ الطفلة. جلستُ على صندوق وشرعتُ ألعب مع الأخ الصغير. تذكرت أن معي قطعة شوكولاته من تلك التي اشتريتها في السينما فأخرجتها من جيبي. اقترب الطفلُ بسرعة وانتزعها مني. عندها وضعت كفيّ على وجهي وتظاهرت بالبكاء منتحبا. كانت عيناي مُغَمّاتَينوفي ظلمة تجويف يديّ فتحتُ فرجات صغيرة وبدأت أنظر إلى الطفل. ظل ينظر إليّ بلا حراك وأنا أبكي بقوةٍ متزايدة. وأخيرا قرّر أن يضع لي قطعة الشوكولاته على ركبتي. عندها ضحكتُ وأعطيتها له. لكنني في نفس الوقت انتبهت أن سحنتي مبتلّة.

خرجت من هناك قبل أن تأتي صاحبة المحل. وعند مروري بمحل مجوهرات نظرتُ إلى نفسي في مرآة فوجدت عينيّ جافتين. وبعد الغداء كنت في المقهى؛ لكنني رأيت الأعمى يقلّب عينيه إلى أعلى فخرجت على الفور. ثم مضيتُ إلى ميدانٍ منعزلٍ في موقع غير مأهول وجلست على دكةٍ أمامها جدارٌ من النباتات المتسلقة. هناك فكرت في دموع الصباح. أثارت حيرتي حقيقة أنها قد سالت مني؛ وأردت أن أكون وحدي كأنني أختبيء لتشغيل لعبةٍ جعلتُها تعملُ دون قصد، منذ ساعاتٍ قليلة. كان بي بعض الخجل من نفسي لانخراطي في البكاء دون ذريعة، ولو على سبيل الدعابة، كما حدث في الصباح. قطّبت أنفي وعينيّ، ببعض الحياء لأري إن كانت ستنسال مني الدموع؛ لكن بعدها فكرت أنني لا يجب أن أسعى إلى البكاء كمن يعتصر خرقة؛سيتوجب عليّ أن أكرس نفسي للفعل بإخلاصٍ أكبر؛ عندها وضعتُ كفّي على سحنتي. كان بذلك الوضع شيءٌ من الجدّية؛ تحركت مشاعري بصورة غير متوقّعة؛ شعرت ببعض الأسى على نفسي وبدأت الدموع تنسال. مضت برهة وأنا أبكي حين رأيتُ ساقي امرأة ترتديان جورب "*حلم*" شبه لامعٍ تهبطان من أعلى الجدار. وعلى الفور لاحظت جونلّةً خضراء تختلط مع النباتات المتسلقة. لم أكن قد سمعت السلّمَيُوضع في مكانه.كانت المرأة في درجة السلّم الأخيرة فجففتُ دموعي بسرعة؛ لكنني عاودت خفض رأسيكأنني غارقٌ في التأمل. اقتربت المرأةُ ببطء وجلست إلى جانبي. كانت قد هبطت وظهرها تجاهي فلم أدرِ كيف يبدو وجهها. وأخيرا قالت لي:

ــــ ماذا بك؟ أنا شخصٌ تستطيعُ أن تثق به ...

انقضت بضع لحظات. قطّبت ما بين حاجبيّ كأنما لأخفي نفسي وأظل أنتظِر. لم أكن قد قمت أبدا بهذه الإيماءة وارتجف جفناي. ثم حرّكت يدي كأنما لأشرع في الكلام ولم يخطر بعد بذهني ماذا يمكنني أن أقول. بادرَت هي بالحديث من جديد:

ــــ تكلّم، تكلم فقط. كان لي أبناءُ وأعرف ضروب التعاسة.

كنت قد تخيلت وجها لتلك المرأة وتلك الجونلّة الخضراء. لكنها حين ذكرت الأبناء وضروب التعاسة تخيّلتُ أخرى. وفي نفس الوقت قلتُ:

ــــ من الضروري أن أفكر قليلا.

فردّت:

ـــ في هذه الأمور، كلما فكر المرء أكثر صار الأمرُ أسوأ.

وفجأةً شعرتُ بسقوط خرقة مبلّلة، بالقرب مني. لكنها كانت ورقة موز ضخمة مثقلة بالرطوبة. وبعد قليل عاودَت هي السؤال:

ـــ قل الحقيقة، كيف حال فتاتك؟

في البداية وجدتُ الأمر مسليا. ثم خطرت بذاكرتي خطيبةٌ كانت لي. حين كنت لا أرغبُ في مرافقتها للسير على ضفة جدول ـــ كانت تتمشّى عندها مع أبيها حين كان على قيد الحياة ـــ كانت خطيبتيتلك تبكي في صمت. وعندها، رغم سأمي من المضي دائما عبر نفس المكان، كنت أوافق. وبالتفكير في ذلك خطر لي أن أقول للمرأة التي بجواري الآن:

ـــ كانت امرأة تبكي كثيرا.

وضعت هذه المرأة يديها الضخمتين والملونتين بعض الشيء فوق الجونلّة الخضراء وضحكت وهي تقول لي:

ـــ حضراتكم تصدقون دائما دموع النساء.

فكرتُ في دموعي؛ وشعرتُ بشيء من الحيرة، نهضت من الدكة وقلت لها:

ـــ أظن أن حضرتك مخطئة. لكنني أشكر لك مواساتك.

ومضيت دون أن أنظر إليها.

وفي الغد، حين تقدم النهار، دخلت واحدا من أهم المتاجر. فرَد صاحب المتجر جواربي على منصة العرض وأخذ يربِّت عليها بأصابعه المربّعة برهة طويلة. وبدا أنه لا يسمع كلماتي. كان الشيبُ يخطُّ سوالفه كأنه ترك فيها صابون الحلاقة. في تلك اللحظات دخلت عدة نساء؛ وقبل أن يتركني، أشار إليّ أنه لن يشتري مني، بأحد تلك الأصابع التي كانت تربّت على الجوارب. ظللت ساكنا وفكرت في الإلحاح؛ ربما استطعت الدخول في نقاشٍ معه، فيما بعد، حين ينصرف الناس؛ عندها سأحدثه عن عُشبةٍ بإذابتها في الماء يمكن أن تصبغ سوالفه. لم ينصرف الناس وانتابني نفاد صبر غير معهود؛ تمنّيتُ أن أخرج من هذا المتجر، من تلك المدينة، ومن تلك الحياة. فكرت في بلدي وفي أمورٍ كثيرة أخرى. وفجأة، حين كنت أهدّيء نفسي، خطرت لي فكرة: "ماذا يمكن أن يحدث إذا شرعتُ في البكاء هنا، أمام كل الناس؟". بدا لي ذلك أمرا بالغ العنف؛ لكن كانت لدي رغباتٌ، منذ بعض الوقت، في اختبار العالم بفعلٍ غير معهود؛ كذلك كان يجب أن أبرهن لنفسي أنني قادرٌ على الكثير من العنف. وقبل أن أندم جلستُ على كرسي صغير مُستند على منصة العرض؛ ومحاطا بالناس، وضعت كفيّ على سحنتي وبدأت أصدر ضجيج شهقات. وفي نفس الوقت تقريبا أطلقت امرأةٌ صرخةً وقالت: "رجلٌ يبكي". وبعدها سمعت الضوضاء ونتفٍ من النقاش: "يا ابنتي، لا تقتربي" ... "ربما تلقّى الخبر عن طريق

برقية" ... "ومن بين أصابعي رأيت امرأةً سمينة تقول: "لابد أن نرى حال الدنيا. إذا لم يرني أبنائي، لبكيت بدوري!". في البداية، كنت يائسا لأن الدموع لا تسيل مني؛ وظننت حتى أنهم سيعتبرونها سخرية ويأخذوني إلى السجن. لكن الكرب والجهد الهائل الذي بذلته سبّبا لي احتقانا وأتاحا الدمعات الأولى؛ شعرت بيدٍ ثقيلة تستقر على كتفي وحين سمعت صوت صاحب المتجر تعرفت على الأصابع التي ربّتت على الجوارب. كان يقول:

ـــ لكن يا رفيق، على الرجل أن يمتلك عزيمة أكبر ...

عندها نهضت كأنما بفعل زنبرك؛ أزحت يديّ عن وجهي، واليد الثالثة عن كتفي، وقلت ووجهي مازال مبتلا:

ـــ لكنني على ما يرام! ولدي الكثير من العزيمة! المسألة أنني أحيانا ما ينتابني هذا؛ إنه مثل ذكرى ...

ورغم التوقع والصمت اللذين أبدوهما لكلماتي، سمعت امرأة تقول:

ـــ آي! يبكي بسبب ذكرى ...

بعدها أعلن صاحب المتجر:

ـــ سيداتي، انقضى كل شيء.

ابتسمتُ ومسحت وجهي. وعلى الفور تحرك جمع الناس وظهرت امرأة ضئيلة، لها عينا مجنونة، قالت لي:

ـــ أنا أعرف حضرتك. يبدو أنني رأيتك في مكان آخر وكنتَ متوترا.

فكرت أنها ربما رأتني في حفل موسيقي وأنا أنتزع نفسي في نهاية البرنامج؛ لكنني التزمت الصمت.

احتدم النقاش بين كل النساء وبدأ بعضهن في الانصراف. بقيت معي التي تعرفني. واقتربت مني أخرى قالت لي:

أنا أعرف أن حضرتك تبيع الجوارب. وبالمصادفة فإنني وبعض صديقاتي ...

تدخّل صاحب المتجر:

ـــ لا تشغلي بالك، يا سيدتي (ومتوجّها نحوي): تعال بعد الظهر.

ـــ سآتي بعد الغداء. هل تريد دستتين؟

ـــ لا، نصف دستة ستكون ...

ـــ الشركة لا تبيع أقل من واحدة ...

أخرجت دفتر المبيعات وبدأت أملأ فاتورة الطلب وأنا أكتب مستندا على زجاج أحد الأبواب دون أن أقترب من صاحب المتجر. أحاطت بي نساء تتناقشن بصوت مرتفع. كن أخشى أن يندم صاحب المتجر. وأخيرا وقّع فاتورة الطلب وخرجتُ بين الأشخاص الآخرين.

سرعان ما عُرف أنني ينتابني "ذلك" الذي كان في البداية مثل ذكرى. بكيتُ في متاجر أخرى وبعت جوارب أكثر من المعتاد. وبعد أن بكيت في مدنٍ متعددة صارت مبيعاتي مثل مبيعات أي بائعٍ آخر.

وذات مرة استدعوني في المقر الرئيسي ــ كنت قد بكيت في كل أرجاء شمال ذلك البلد ــ كنت أنتظر دوري للتحدث مع المدير وسمعت من الغرفة القريبة ما يقوله بائعٌ متجوّل آخر:

ــ أنا أفعل كل ما أستطيع؛ لكنني لن أشرع في البكاء حتى يشتروا مني!

فأجابه الصوت الواهن للمدير:

ــ يجب عمل كل شيء؛ بما في ذلك البكاء ...

فقاطعه البائع الجوّال:

ــ لكن الدموع لا تخرج مني!

وبعد فترة صمت، قال المدير:

ــ كيف، ومن قال لك؟

ــ نعم! هناك واحد يبكي بدموع غزيرة ...

بدأ الصوت الواهن يضحك بجهد تقطعه فواصل سعال. بعدها سمعت دعابات وخطوات تبتعد.

وبعد فترة نادوني وجعلوني أبكي أمام المدير، ورؤساء الأقسام، وبقية المستخدمين. في البداية، حين أدخلني المدير وأتضحت الأمور، ضحك بصورة مؤلمة وطفرت منه الدموع. طلب مني، بتهذيبٍ بالغ، أن أقدم عرضا؛وما كدت أشرع حتى دخل بعض المستخدمين الذين كانوا خلف الباب. حدثت جلبة كبيرة وطلبوا مني ألاّ أبكي على الفور. ومن وراء ساتر، سمعت من يقول:

ــ أسرع، سيبكي أحد الباعة الجائلين.

ــ ولماذا؟

ــ ما أدراني!

كنتُ جالسا بجوار المدير، على مكتبه الكبير؛ واستدعوا أحد المالكين، لكنه لم يستطع المجيء. لم يصمت الفتيان وصاح أحدهم: "فكر في والدتك، بهذا تبكي أسرع".

عندها قلت للمدير:

ــ حين يلتزمون الصمت، سأبكي.

هدّدهم هو، بصوته الواهن، وبعد بضع لحظات من الصمت النسبي نظرتُ من إحدى النوافذ إلى قمة شجرة ــ كنا في الدور الأول ــ، ووضعت كفيّ على سحنتي وحاولت البكاء. تملّكني نوعٌ من النفور. دائما عندما كنت أبكي كان الآخرون يجهلون مشاعري؛لكن أولئك الأشخاص كانوا يعرفون أنني سأبكي وسبّب لي هذا كبتا. وحين انسالت مني الدموع أخيرا نزعت يدا عن وجهي لآخذ المنديل وليروا وجهي المبتل. ضحك بعضهم وظل آخرون جادين؛عندهاحرّكت وجهي بعنف فضحك

الجميع. لكنهم صمتوا على الفور وبدأوا يضحكون. أخذت أجفّف الدموع بينما يكرر الصوت الواهن: "حسن جدا، حسنٌ جدا". ربما خاب أمل الجميع. وشعرت أنني مثل زجاجة فارغة وقذرة؛ أردت أن أردّ، كان مزاجي معتكرا وبي رغبة في أن اكون شريرا. عندها اقتربت من المدير وقلت له:

ــ أريد ألاّ يستخدم أي واحدٍ منهم نفس الإجراء من أجل بيع الجوارب وأودّ أن تعترف الشركة بـــ ... مبادرتي وتمنحني امتيازا حصريا لبعض الوقت.

ــ تعال غدا وسنتحدث عن ذلك.

وفي الغد كان السكرتير قد أعد المستند وقرأ: "تلتزم الشركة بعدم استخدام وباحترام نسق الدعاية المتمثل في البكاء ..." هنا ضحك الاثنان وقال المدير أن هذه الصيغة سيئة. وبينما يعيدون صياغة المستند، أخذت أتمشى حتى منصة العرض. خلفها كانت فتاةٌ حدثتني ناظرةً إليّ وبدت عيناها مُلوّنتين من الداخل.

ــ هكذاتبكي حضرتك بمزاجك؟

ــ صحيح.

ــ إذن أنا أعرف أكثر من حضرتك. أنت نفسك لاتعرفأن لديكوجيعة.

في البداية ظللت متأملا؛ ثم قلت لها:

ــ أنظري: ليس الأمر أنني من أسعد الناس؛ لكنني أعرف كيف أتكيف مع شقائي وأكاد أكون محظوظا.

وبينما كنت أنصرف ــ فقد ناداني المدير ــ استطعت رؤية نظرتها: كانت قد ألقتها فوقي كأنها تركت يدها على كتفي.

وحين استأنفتُ البيع، كنت في مدينة صغيرة. كان يوما حزينا ولم أكن أرغب في البكاء. وددت لو أنني بقيت وحيدا، في غرفتي، أستمع إلى المطر وأفكر أن الماء يعزلني عن العالم كله. كنت أسافر متخفيا خلف وجه دامع؛ لكن وجهي كان منهكا.

وفجأة شعرت بأن أحدا قد اقترب مني سائلا:

ــ ماذا بك؟

عندها، مثل مُستخدَم ضبطوه لا يعمل، أردت استئناف مهمتي وواضعا كفي على وجهي بدأت في إصدار الشهقات.

ذلك العام بكيتُ حتى ديسمبر، وكففتُ عن البكاء في يناير وجزءٍ من فبراير، وبدأتُ البكاء من جديد بعد الكرنفال. أفادتني تلك الراحة وعاودت البكاء برغبة. في هذه الأثناءكنت قد استغربت نجاح دموعي وتولّد فيّ نوع من الفخر بالبكاء. البائعون كثيرون؛ لكن ممثّلا يقدم شيئا دون سابق إنذار ويقنع الجمهور بالنحيب ...

ذلك العام الجديد بدأت أبكي في الغرب ووصلت إلى مدينة كانت حفلاتي الموسيقية قد لاقت فيها نجاحا؛ وفي ثاني مرة لي هناك، كان

الجمهور قد استقبلني بتصفيق شغوفٍ وممتدّ؛ كنت أظهر امتناني واقفا بجوار البيانو ولا يدعونني أجلس لأبدأ الحفل الموسيقي. ومن المؤكد أنني يمكن أن أقدم الآنحفلاواحدا، على الأقل. بكيت هناك، للمرة الأولى، في أفخم فندق؛ كانت ساعة الغداء في يوم مشرق. كنت قد أكلت وتناولت قهوة، حين غطيت وجهي بيديّ، ومِرفقيّ على المائدة. وبعد لحظات قليلة اقترب بعض أصدقاءٍ كنت قد حيّيتهم؛تركتهم وافقين لبرهة وفي هذه الأثناء، جلست عجوزٌ بائسة ـــ لا أدري من أين جاءت ـــ إلى مائدتي وأخذت أنظر إليها من بين أصابعي المبتلة فعلا. نكّسَتْ رأسها ولم تقل شيئا؛ لكن وجهها كان حزينا إلى درجة تبعث الرغبة في البكاء ...

يوم أن قدمتُ حفلي الموسيقي الأول كنت أشعر ببعض العصبية بحيث داهمني الإجهاد؛كنت في آخر عمل من جزء البرنامج الأول وعزفت إحدى الحركات بسرعة مفرطة؛ حاولت أن أتمالك؛ لكنني فقدت مهارتي ولم يسعفني التوازن الكافي ولا القوة؛ ولم يعد أمامي سوى الاستمرار؛ لكن يداي تعبتا، وفقدت الدقة، وانتبهت إلى أنني لن أبلغ الختام. عندها، وقبل أن أفكر، نزعتُ يديّ من لوحة المفاتيح ووضعتهما على وجهي؛ وكانت أول مرة أبكي على المسرح.

في البداية علت همهمات الدهشة ولا أدري لماذا حاول شخصٌ التصفيق، لكن الآخرين تهكّموا فنهضت. حجبت عينيّ بإحدى يديّ وبالأخرى تحسّست البيانو وحاولت الخروج من المشهد. صرخت بعض النساء لاعتقادهن أنني سأسقط في الصالة وكنت في سبيلي إلى عبور بابٍ في الديكور، حين صرخ فيّ شخص، من الشرفة العليا:

ـــ تمسسساااح!!

سمعتُ ضحكات؛ لكنني مضيتُ إلى غرفة الممثلين، غسلت وجهي ثم ظهرت على الفور وبيدين منتعشتين أنهيت الجزء الأول. وفي النهاية أتى لتحيتي أشخاصٌ كثيرون وجرى التعليق على موضوع "تمساح". فقلت لهم:

ـــ يبدو لي أن من صرخ فيَّ بذلك على حق: أنا في الحقيقة لا أدري لماذا أبكي؛ يجتاحني البكاء ولا أستطيع شفاءه، الأرجح أنه طبيعيٌ تماما بالنسبة لي مثلما بالنسبة للتمساح. وفي النهاية، لا أدري أيضا لماذا يبكي التمساح.

كان لأحد الأشخاص الذين قدّموني راسٌ مستطيلة؛ ولما كان يمشِّط شعره تاركا الشعر واقفا، كانت رأسه تثير التفكير في فرشاة الشعر. أشار إليه آخر من الدائرة وقال لي:

ـــ هذا الصديق، هنا، طبيب. ماذا تقول حضرتك، يا دكتور؟

صرتُ شاحبا. نظر إليّ بعيني مُحقِّق بوليسي وسألني:

ـــ قل لي شيئا واحدا: متى تبكي حضرتك أكثر ، بالنهار أم بالليل؟

تذكرت أنني لم أبك أبدا بالليل لأنني لا أبيع في ذلك الوقت، فأجبته:

ـــ أبكي بالنهار فقط.

لأ أتذكر الأسئلة الأخرى. لكنه نصحني في النهاية:

ـــ لا تأكل اللحم. فلدى حضرتك تسمُّمٌ قديم.

بعد أيام قلائل أقاموا لي احتفالا في النادي الرئيسي. استأجرت بذلة فراك بصديري أبيض لا تشوبه شائبة ولحظة أن نظرت إلى نفسي في المرآة فكرت: "لن يقولوا أن بطن هذا التمساح ليست بيضاء. مرحى! أظن أن لهذا الحيوان لُغدٌ مثل لغدي. وهو شرِهٌ ..."

عند وصولي إلى النادي صادفت قلّة من الناس. فانتبهت أنني وصلتُ مبكرا أكثر مما يجب. رأيت سيدا من اللجنة فقلت له أنني أريد العمل قليلا على البيانو. بهذه الطريقة أخفي تبكيري. عبرنا ستارة خضراء فوجدت نفسي في صالة خاوية ومجهّزة للرقص. وفي مواجهة الستارة وعلى الطرف الآخر من الصالة كان البيانو. اصحبني إلى هناك السيدُ من اللجنة والبواب؛ وبينما يفتحان البيانو ـــ كان للسيد حاجبان أسودان وشعرٌ أبيض ـــ قال لي أن الاحتفال سينال الكثير من النجاح، وأن مدير الليسيه ـــ صديقي ـــ سيُلقي خطابا جميلا جدا وأنه قد سمعه بالفعل؛ حاول تذكّر بعض العبارات، لكنه قرّر بعدها أن من الأفضل ألاّ يقول لي شيئا.وضعت يدي على البيانو وانصرفا. وبينما أعزف فكرت: "هذه الليلة لن أبكي ... سيكون أمرا قبيحا جدا ... يستطيع مدير الليسيه أن يتمنى أن أبكي لإظهار نجاح خطبته. لكنني لن أبكي مقابل أي شيء في العالم".

مرّت برهة وأنا أري الستارة الخضراء تتحرك؛ وفجأة ظهرت من بين طياتها فتاةٌ طويلة ذات شعر مفكوك؛ زرَّرت عينيها كأنما لتنظر لبعيد؛ أخذت تنظرُ إليّ وتتجه صوبي حاملة شيئا في إحدى يديها؛وخلفها ظهرت خادمةٌ لحِقت بها وبدأت تحدثها عن قرب. انتهزت أنا الفرصة لأنظر إلى ساقيها وانتبهت أنها ترتدي فردة جورب واحدة؛ وفي كل لحظة كانت تقوم بحركات تشير إلى نهاية النقاش؛ لكن الخادمة استمرت تحدثها وتعودان إلى الموضوع كأنما إلى قطعة حلوى. واصلت أنا العزف على البيانو وبينما تتحادثان أتيح لي الوقت للتفكير: "ماذا تريد بفردة الجورب؟ .. أتكون قد وجدتها سيئة ولمعرفتها أنني بائع متجول ...؟ وفي هذا الوقت المتأخر في هذا الحفل!"

وأخيرا أتت وقالت لي:

ـــ آسفة، يا سيدي، وددت لو وقّعت لي على فردة جورب.

في البداية ضحكتُ؛ وعلى الفور حاولت التحدث معها كأن الناس قد طلبوا مني هذا الطلب في مراتٍ أخرى. بدأت أشرح لها كيف أن فردة الجورب لا تتحمَّل القلم الحبر؛ وأنني قد حللت هذه المشكلة

بالتوقيع على بطاقة لاصقةٍ وبعدها تلصقها من يهمُّها الأمر على فردة الجورب. لكنني بينما أقدّم هذه التوضيحات أظهرتُ خبرة تاجرٍ قديم تحوّل بعدها إلى عازف بيانو. وبدأ القلق يغزوني، حين جلسَتْ هي على مقعد البيانو، وقالت لي وهي ترتدي فردة الجورب:

ـــ يؤسفني أن أكتشف أن حضرتك كذّاب كبير ... كان يجب أن تشكرني على الفكرة.

كنت قد ثبّتُّ عيني على ساقيها؛ ثم انتزعتهما وتشوّشت أفكاري. ساد صمتٌ كريه. برأسٍ مائلة، تركت شعرها ينسدل؛ وتحت تلك الستارة الشقراء، تحركت يداها كأنهما تهربان. ظللتُ صامتا وبدا أنها لن تنتهي أبدا. وفي النهاية قامت الساقُ بحركة رقص، وارتدت القدمُ، على طرف أصابعها، الحذاءَ في لحظة نهوضها، ضمّت اليدان الشعرَ وحيتني تحيةً صامتة ومضت.

حين بدأ الناس يدخلون مضيتُ إلى البار. خطر لي أن أطلب ويسكي. ذكر لي البارمان أسماء ماركات عديدة ولما كنت لا أعرف أيّها قلت له:

ـــ أعطني من هذه الأخيرة.

اعتليتُ أحد مقاعد البار وحاولت ألاّ أكرمش ذيل الفراك. بدل التمساحِ لابد أنني بدوتُ ببغاءً أسود. كنت صامتا، أفكر في فتاة الجورب وأزعجنيتذكر يديها المتعجلتين.

شعرت بأن مدير الليسيه يقودني إلى الصالون. توقّف الرقصُ للحظة وألقي خطابه. نطق عدة مرات كلمتي "تقلبات" و "واجب". وحين صفّقوا رفعت ذراعيّ كقائد أوركسترا قبل أن "ينقضّ" وما أن صمتوا حتى قلت:

ـــ الأن حين يجب البكاء لا أستطيع. كذلك لا أستطيع الكلام ولا يمكنني أن أترك من اجتمعوا للرقص منفصلين وقتا أطول ـــ. وأنهيت بمجاملة.

بعد جولتي، عانقتُ مديرَ الليسيه ومن فوق كتفه رأيت فتاة الجورب. ابتسمت لي ورفعت جونلتها من الجانب الأيسر وفرّجتني على موضع فردة الجورب حيث لصقَت صورةً شخصية صغيرة لي قصّته من برنامج. شعرتُ أنني ممتليءٌ بالبهجة لكنني قلت حماقةً كرّرها الجميع:

ـــ حسنٌ جدا، حسن جدا، ساقُ القلبِ.

ورغم ذلك شعرت أنني محظوظ ومضيت إلى البار. اعتليتُ مقعدا من جديد وسألني البارمان:

ـــ ويسكي الحصان الأبيض؟

وأنا، بحركة فارسٍ يستلُّ سيفا:

ـــ الحصان الأبيض أو الببغاء الأسود.

وبعد قليل جاء فتى يُخفي يدا خلف ظهره:

ـــ قال لي *البدين* أن حضرتك لا يسيئك أن يطلقوا عليك "تمساح".

ـــ صحيح، يعجبني.

عندها أخرج يده من خلف ظهره وفرّجني على رسم كاريكاتوري. كان تمساحا ضخما شديدَ الشبه بي؛ له يدٌ صغيرة في فمه، حيث أسنانهُ لوحةُ مفاتيح؛ومن يده الأخرى تتدلى فردة جورب؛ عليها تجفُّ الدموع.

حين أوصلني الأصدقاء إلى فندقي فكرت في كل ما بكيتُه في ذلك البلد وشعرت بمتعةٍ خبيثة لأنني خدعتُهم؛ اعتبرت نفسي بورجوازيا للعذاب.لكن حين أصبحتُ وحيدا في غرفتي، خطر لي شيءٌ غير متوقع: أولا نظرتُ إلى نفسي في المرآة؛كان الرسم الكاريكاتوري في يدي وأخذت أنظر بالتبادل إلى التمساح وإلى وجهي. وفجأةً ودون أن أقترح على نفسي تقليد التمساح، شرعت سحنتيتبكي، من تلقاء ذاتها. أخذت أنظر إليها مثلما إلى أختٍ كنتُ أجهلُ شقاءَها. كان بها تجاعيدٌ جديدة ومن بينها انسابت الدموع. أطفأتُ النور واستلقيت في الفراش. ظلت سحنتي تبكي؛ كانت الدموع تنزلق على الأنف وتسقط على الوسادة. وهكذا نمت. وحين استيقظتُ أحسستُ حرقةَ الدموع التي جفت. أردتُأن أنهض وأغسل عينيّ؛ لكنني خِفت أن تشرع السحنة في البكاء من جديد. ظللتُ هادئا وجعلت عينيّ تدوران في الظلمة، مثل ذلك الأعمى الذي يعزف القيثارة.

المـــــــنزل الـــــــــغارق

من تلك الأيام أتذكر دوما الدورات فى قاربٍ حول جزيرةٍ صغيرة للنباتات. كانيتم تغيير النباتات كل فترةٍ وجيزة؛ لكنها لم تكن تنمو جيدا هناك. كنت أجدّفُ مستقرّاً خلف الجسد الهائل للسيدة مارجاريتا. لو أطالت النظر الى الجزيرة،لأمكن أن تقول لى شيئا؛ لكنه ليس ما وعدَتنى به؛فلم تتحدث سوى عن النباتات وبدا أنها تريد أن تُخفى بينها أفكارا أخرى. تعبتُ من التعلق بالآمال ورفعتُ المجدافين كأنهما يدين سئمتا عدَّ نفس القطرات دوما. لكننى كنت أعرف أننى، فى دورات أخرى للقارب، سأعاود، من جديد، اكتشاف أن ذلك التعب كان كذبةً صغيرة مختلطةً بقليل من السعادة. حينها كنت أقنعُ بانتظار الكلمات التى ستأتينى من ذاك العالم، شبه الأبكم، الذى يدير ظهره تجاهى وينزلق بجهد يدىّ المكدودتين.

ذات مساء، قبل حلول الليل بقليل، انتابنى الشكُّ فى أن يكون زوج السيدة مارجاريتا مدفونا فى الجزيرة. ولذا كانت تجعلنى أقوم بدوراتٍ حولها وتدعونى بالليل ـــ إن كان ثمة قمرـــ للقيام بدورات من جديد. إلاّ أن الزوج لا يمكن أن يكون فى تلك الجزيرة؛ فقد قال لى ألثيدس، ـــ خطيب ابنة أخت السيدة مارجاريتا ـــ أنها فقدت زوجها فى جرف بسويسرا. كما تذكّرتُ ما حكاه لى المراكبى ليلة أن وصلت الى المنزل الغارق.كان يجدّف ببطء بينما نجوب "جادّة الماء"، بعرض شارعٍ وتحفّها أشجار موز ذات شُرَّابات. عرفت بين أشياء أخرى أنه وعاملٌ يدوى قاما بملء نافورة الفناء بالطين لتصبح بعدها جزيرة. كذلك اعتقدتُ أن حركات رأس السيدة مارجاريتا ـــ فى الأمسيات التى تنتقل فيها نظرتُها من الكتاب الى الجزيرة ومن الجزيرة الى الكتاب ـــ لا علاقة لها بميتٍمخبوء تحت النباتات.كذلك من المؤكد أننى ذات مرة رأيتُهافيهامن الأمام تخلّف لدى الانطباع بأن الزجاج السميك لعويناتها قد علّم عينيها الإخفاء وأن السقيفةالزجاجية الضخمة المنتهية بقبةٍ والتى تُغطّى الفناء والجزيرة الصغيرة، كانت كأنما لتحبس الصمت الذى يحفظ الموتى.

بعدها تذكّرتُ أنها لم تأمر بصنع السقيفة الزجاجية. وراقتنى معرفة أن ذلك المنزل، مثل كائنٍ بشرى، توجّب عليه تولّى مهام مختلفة؛ ففى البداية كان منزلاً ريفياً؛ ثم معهداً فلكياً؛ لكن لما كان التليسكوب الذى طلبوه من أمريكا الشمالية قد أغرقه الألمانُ فى قاع البحر، فإنهم قرروا أن يُقيموا صوبةً فى ذلك الفناء؛ وأخيرا اشترته السيدة مارجاريتا لتُغرِقه.

الآن، بينما ندور حول الجزيرة، كنت ألفُّ هذه السيدة بشكوكٍ لم تناسبها أبداً. لكن جسدها الهائل، الذى تُطوّقه بساطةٌ عارية، كان يُغرينى بتخيّل ماضٍ داكن له. فى الليل كان يبدو أضخمَ،كان الصمتُ

يكسوه مثل فيلٍ نائم وأحيانا ما كانت تُطلق نَحنَحةً غريبة، مثل تنهيدةٍ أجشّة.

كنتُ قد بدأتُ أحبها، لأنني، بعد التغيير المفاجيء الذي جعلني أنتقلُ من البؤس إلى تلك الوفرة، كنتُ أعيش في هدوءٍ سخي وقد أعارت هي نفسَها ــ كما تُعير أنثى فيلٍ بيضاء ظهرَها لرحالةٍ ــ لتخيُّلِ حماقاتٍ مسلّية. وفضلا عن ذلك، ورغم أنها لم تسألني شيئا عن حياتي، فإنها لحظة أن تقابلنا، رفعت حاجبيها كأنهما سيطيران، وبدا أن عينيها، من خلف زجاج النظارة، تقولان: "كيف الحال يا بنيّ؟"

لذا أخذتُ أشعرُ تجاهها بصداقةٍ مرتبكة؛ وإذا كنتُ الآن أُطلِقُ سراح ذاكرتي فإنها تَصدُقُ على هذه السيدة مارجاريتا الأولى؛ لأن الثانية، الحقيقية، التي عرفتُها حين حكت لي حكايتها، في نهاية الفترة، كانت لها طريقةٌ غريبة في جعل نفسها عصيَّةً على البلوغ.

لكنني الآن يجب أن أجتهدَ في أن أبدأ هذه الحكاية من بدايتها الحقيقية، وألاّ أتوقفَ أكثرَ مما يجب عند تفضيلات الذكريات.

قابلني ألثيدس في بوينوس آيريس في يومٍ كنتُ فيه بالغَ الضعف، ودعاني إلى حفل عرسٍ وجعلني آكلُ من كل شيء.ولحظة شعائر الزواج، فكّر في أن يحصُل لي على عمل، وحدّثني، مخنوقا من الضحك، عن "مهبولة سخية" يمكن أن تساعدني. وأخيرا قال لي أنها أمرت بإغراق منزلٍ وفق نظام مهندسٍ معماري من أشبيلية أغرق أيضا منزلا آخر لعربيٍّ أراد التخلص من جفاف الصحراء. بعدها ذهب ألثيدس مع خطيبته إلى منزل السيدة مارجاريتا، وحدّثها كثيرا عن كتبي وفي النهاية قال لها أنني "مُسرنمٌ جديربالثقة". قررت هي، على الفور، أن تساهم بنقود؛ وفي الصيف المقبل، إذا كنتُ أعرفُ التجديف، ستدعوني إلى المنزل الغارق. لا أدري السبب في أن ألثيدس لم يأخذني إلى هناك أبدا؛ ثم مرضَت هي. وذلك الصيف لم يذهبوا إلى المنزل الغارق قبل أن تتعافى السيدة مارجاريتا وقضوا الأيام الأولى في جفاف. لكن حين أدخلوا الماء أرسلوا يستدعوني.ركبتُ قطارا أخذني إلى مدينةٍ إقليمية صغيرة، ومن هناك ذهبت إلى المنزل بالسيارة. بدا لي هذا الإقليم مُجدِبا، لكن عند حلول الليل فكرتُ بإمكان وجود أشجارٍ تُخفيها الظلمة. تركني السائقُ مع حقائبي في مرفأٍ صغير تبدأ عنده القناة، "جادّة الماء"، وضرب الجرس، المعلّق في شجرة موز؛ لكن كان قد بدأ ينبعث من المنزل ضوءُ شاحب يجلبه القارب. ظهرت قبةٌ مضاءة وإلى جانبها وحشٌ داكنٌ طويلٌ بارتفاع القبة. (كان خزان الماء). وتحت الضوء أتى قاربٌ مائلٌ إلى الاخضرار ورجلٌ يرتدي الأبيض بدأ يكلمني قبل أن يصل. حادثني طوال المسار (كان هو من قال لي عن النافورة المملوءة بالطين). وفجأة رأيتُ ضوء القبة ينطفيء. في تلك اللحظة كان المراكبي يقول لي: "إنها لا تريد أن يُلقوا أوراقا أويلوثوا طابق الماء. لا يوجد بابٌ بين غرفة الطعام وبين غرفة نوم

السيدة مارجاريتا وذات صباح استيقظَت فيه مبكرةً، رأت رغيفَ خبزٍ سقط من زوجتي يأتي سابحا من غرفة الطعام. أشعل ذلك غضب صاحبة المنزل فقالت لها أن ترحل على الفور فليس ثمة ما هو أقبح في الحياة من رؤية رغيف خبز يسبح".

كانت واجهةُ المنزل مكسوةً بنباتات متسلقة. بلغنا بهواً ضيقا ذا ضوءٍ كابٍ ومن هناك كان يُرى جزءٌ صغير من فناء الماء الضخم والجزيرة. كان الماء يدخل الغرفة على اليسار من تحت بابٍ مغلق. ربط المراكبي حبلَ القارب إلى ضفدعٍ ضخمٍ من البرونز مُثبّت في الرصيف الأيمن ومن هناك ذهبنا مع الحقائب إلى سلمٍ من الأسمنت المسلّح. كان في الدور الأول ممرٌ به واجهاتٌ زجاجية ضائعة في بخار مطبخٍ ضخم، خرجت منه امرأةٌ بدينة في مقدمة شعرها أزهار. بدت إسبانية. قالت لي أن السيدة، سيدتها، ستستقبلني في اليوم التالي؛ لكنها ستحادثني تليفونيا تلك الليلة.

كانتقطع أثاث غرفتي، الضخمة والداكنة، تبدو أنها تحس بعدم الارتياح بين حوائط بيضاء يهاجمها ضوء مصباحٍ كهربائي غير مُصنفر ومعلقٍ عاريا، في منتصف الغرفة.رفعت الإسبانية حقيبتي فأدهشها ثقلها. قلت لها أنها كتب. عندها بدأت تحكي لي الضرر الذي أوقعته بسيدتها، "كل تلك الكتب"، وأنها "حتى جعلتها صماء، ولا يروقها أن يصرخوا فيها". لابد أنني قمت بإيماءةٍ ما بسبب مضايقة الضوء. ـــ حضرتك أيضا لا يريحك الضوء؟ مثلها تماما.

مضيتُ لأضيء أباجورة؛ لها غطاء أخضر وتمنح ظلا مريحا. ولحظة إضاءتها رن التليفون الموضوع خلف الأباجورة، فردت عليه الإسبانية. قالت كثيرا كلمة "نعم" وصاحبت الأزهارُ البيضاء الصغيرة منفعلةً حركات مُقدِّمة شعرها. ثم أخذت تدعم الكلمات التي تخرج من فمها بمقطعٍ أوبهسهسة.وحين وضعت السماعة تنهّدت وخرجت من الغرفة في صمت.

أكلتُ وشربت نبيذا جيدا. كانت الإسبانية تحادثني لكنني، لانشغالي بكيف سيمضي الأمر معي في ذلك المنزل، لم أكد أجيبها هازّا رأسي مثل قطعة أثاث على أرضيةٍ رخوة. ولحظة استعادتها لفنجان القهوة من بين الضوء المشبّع بدخان سيجارتي، عاودَت القول بأن السيدة ستحادثني تليفونيا. ظللتُ أنظر إلى الجهاز منتظرا الجرس باستمرار، لكنه رنّ في لحظةٍ لم أكن أنتظره فيها. سألتني السيدة مارجاريتا عن رحلتي وعن تعبي بصوت رائقٍ وناعم. وكنت أجيبها بقوة فاصلا بين الكلمات.

ـــ تكلم بصورةٍ طبيعية ـــ قالت لي ـــ؛ سأشرح لك لماذا قلت لماريا (الإسبانية) أنني صمّاء. بودِّي أن تكون حضرتك هادئا في هذا المنزل؛ فأنت ضيفي؛ سأطلب منك فقط أن تُجدِّف في قاربي وأن تتحمّل شيئا يجب أن أقوله لك. ومن جانبي سأقدّم مساهمةً شهريةً في مدخراتك

وأحاول أن أكون مفيدة لك. قرأتُ قصصك كلما كانت تُنشر. ولم أشأ الحديث عنها مع ألثيدس خشية أن نختلف، أنا حساسة: لكننا سنتحدث ...

غلبتني تماما. حتى أنني قلت لها أن تطلبني في اليوم التالي في السادسة. تلك الليلة الأولى، في المنزل الغارق، كنت واقعا في أحبولة ما يمكن أن تقوله لي السيدة مارجاريتا، وانتابني توترٌ غريب فلم أستطع أن أغرق في النوم. لا أدري متي نمت. وفي السادسة صباحا، جعلتني رنّةُ جرسٍ صغيرة، مثل قَرْصة حشرةٍ، أقفز في الفراش. انتظرت، بلا حراك، أن يتكرر ذلك. وهكذا كان. رفعتُ سماعة التليفون. ــ هل أنت مستيقظ؟

حقا.

بعد الاتفاق على ساعة التقائنا قالت لي أنني يمكن أن أنزل بالبيچاما وأنها ستنتظرني عند أسفل السلم. في تلك اللحظة شعرتُ مثل الموظف الذي يُعطونه لحظةَ راحة.

في الليلة السابقة، بدَّت لي الظلمة كأنها كلها أشجار؛ والآن، عند فتح النافذة، فكّرتُ أن تلك الأشجار قد انصرفتعند الشروق. لم يكن ثمة سوى سهلٍ منبسطٍ شاسع بهواء صافٍ وكانت الأشجار الوحيدة هي أشجار الموز على القناة. كانت ريحٌ خفيفة تجعلها تُحرِّك بريق أوراقها؛ وفي نفس الوقت كانت تُطلُّ على "جادة الماء" وقممها تتلامس خفيةً. ربما أمكنني هنالك أن أبدأ في العيش من جديد ببهجةٍ كسولة. أغلقتُ النافذة بعناية، كأنني أحتفظ بالمنظر الطبيعي الجديد لأنظر إليه فيما بعد.

رأيت، في آخر الممر، بابَ المطبخ المفتوح فذهبت لأطلب ماءً ساخنا للحلاقة لحظة أن كانت ماريا تقدِّم القهوة لرجل شاب قال "نهارك سعيد" بتواضع؛ كان رجلَ الماءِ وتحدّث عن الموتورات. أمسكتني الإسبانيةُ من ذراعي، بابتسامة، وقالت لي أنها ستُحضر كل شيء إلى غرفتي. وعند رجوعي، عبر الممر، رأيت عند أسفل السلم ــ المرتفع الشديد الانحدار ــ السيدة مارجاريتا. كانت بالغةَ الضخامة وجسدُها يبرزُ من قاربٍ صغير مثل قدمٍ سمينة من حذاءٍ ذي فتحةٍ واسعة. كان رأسها محنيّا لأنها تقرأ بعض الأوراق، وأوحت ضفيرتُها، المُلتفّة حول رأسها، بفكرة تاجٍ ذهبي. أخذتُ أتذكّر هذا بعد نظرةٍ سريعة، فقد خشيتُ أن تكتشف أنني أراقبها. ومنذ تلك اللحظة حتى لحظة مقابلتها ظللتُعصبيا. ولم أكد أطأ السلّم حتى بدأت تنظر دون ادّعاء ونزلتُ أنا بصعوبة سائلٍ كثيف خلال قُمعٍ ضيق. مدّت لي يدا قبل أن أصل إلى أسفل بكثير. وقالت لي: ــ حضرتك لست كما كنت أتخيلك ... دائما ما يحدث لي ذلك ... سيُجهِدُني كثيرا أن أوفِّق بين قصصك وبين وجهك.

أما أنا، دون أن أتمكّن من الابتسام، فأخذت أقومُ بحركات تأكيدٍ مثل حصانٍ تُضايِقه الشكيمة. وأجبتها:

ـــ لديّ فضولٌ كبيرٌ للتعرّف على حضرتك ومعرفة ما سيحدث.

أخيرا وجدتُ يدها. لم تُفلِتني حتى مررتُ إلى مقعد المجاديف، وظهرُه تجاه مُقدِّمة القارب. تحركت السيدةُ مارجاريتا بنَفَس مُتهدِّج، بينما تستقرُّ في المقعد الذي يُوجِّه مسنده تجاهي. قالت لي أنها تدرسُ ميزانيةً لملجأٍ للأمهات ولن تستطيع التحدث معي لبرهة. أخذتُ أُجدّف، وتتحكّم هي في الدفة، وننظر كلانا إلى أثر المَخْرِ الذي نُخلّفه وراءنا. للحظةٍ انتابتني فكرة وجودِ خطإٍ كبير؛ فأنا لستُ مراكبيا وذلك الثِقَل وحشيٌّ. واصلت هي التفكير في ملجأ الأمهات دون أن تضع في حسبانها حجم جسدها وصِغَر يديّ. وفي عناءِ الجهدوجدتُ عينيّ شبه ملتصقتين بمسند مقعدها؛ وجعلني الورنيشُ الداكن والحصيرة الصغيرة المليئة بالثقوب، مثل ثقوب قرصِ عسل، أتذكر دكانَ حلاقة كان يأخذني إليه جدِّي حين كنت في السادسة. لكن تلك الثقوب كان يملؤها غلافٌ أبيض وبدانةُ السيدة مارجاريتا. قالت لي:

ـــ لا تتعجل؛ فسوف تتعب على الفور.

خفّفتُ قبضتيّ عن المجدافين فجأة، سقطتُ في خواءٍ هانيء وشعرت للمرة الأولى بأنني أنزلقُ معها في صمت الماء. بعدها انتابني وعيٌ معين بأنني بدأت أُجدّف من جديد. لكن لابد أن وقتا طويلا انقضى. ربما أيقظني الإرهاق. بعد برهة أشارت لي بيدها، مثلما حين يُقال وداعا، لكن من أجل أن أتوقّف عند أقرب ضفدع. على طول كل الرصيف الذي يطوِّق البحيرة، كانت ضفادع برونزيةٌ متناثرة لربط القارب. بجهدٍ كبير وكلماتٍ لم افهمها، انتزعتْ جسدها من المقعد ووضعتهُ على أقدامها على الرصيف. وسرعان ما بقينا ساكنين، عندها أطلقت للمرة الأولى النحنحةَ الغريبة، كأنها تجذبُ شيئا، في حنجرتها، لا تريد بلعَه وهو في النهاية تنهيدةٌ أجشّة. نظرتُ إلى الضفدع الذي ربطنا به القارب لكنني رأيت قدميها أيضا،ثابتتين مثل الضفدعين الآخرين. كان كلُّ شيءٍ يدفع إلى التفكير في أن السيدة مارجاريتا ستتكلم. لكن قد يحدث أيضا أن تُطلق النحنحة الغريبة. لو أطلقتها أو بدأت تتحدث فسوف أطلقُ الهواء الذي أحبِسه في رئتيّ حتى لا تضيعَ مني الكلمات الأولى. بعدها أخذ الانتظار يستطيل فتركت النَفَس يهرب كأنني أفتح باب غرفةٍ ينام فيها أحدٌ. لم أدر إن كان ذلك الانتظارُ يعني أن عليّ أن أنظر إليها؛ لكنني قررت أن أبقى ساكنا مهما طال الوقت. وجدتُني من جديد مع الضفدع والقدمين، وركّزتُ انتباهي فيهما دون أن أنظر مباشرة. كان الجزءُ المحبوس في الحذاء صغيرا؛ لكن بعده يفيضُ مِشطُ القدم الأبيض الضخم والساقُ الملتفَّة والطريّة برقةِ رضيعٍ يجهلُ هيئته؛ وكانت فكرة الضخامة الموجودة فوق هاتين القدمين مثل الحلم الفانتازي لطفل. قضيتُ وقتا أطول مما يجب

منتظرا النحنحة؛ ولا أدري في أية أفكارٍ كنت مستغرقا حين سمعتُ كلماتها الأولى. عندئذ خطرت لي فكرة أن جَرَّةً هائلة كانت قد أخذت تمتلىء في صمت والآن يتساقط منها الماء بوشوشاتٍ صغيرة متقطعة.

ـــ وعدتُك بأن أتكلم ... لكنني لا أستطيع اليوم ... لديّ عالمٌ من الأشياء لأفكر فيه ...

حين قالت "عالم"، تخيلتُ، دون أن أنظر إليها، مُنحنيات جسدها. تابَعت هي:

ـــ وفضلا عن ذلك ليس لحضرتك ذنبٌ، لكن يضايقني كونُك بكل هذا الاختلاف.

ضاقت عيناها وانفتحت في وجهها ابتسامةٌ غير متوقّعة؛ انسحبت الشفةُ العليا إلى الجانبين مثل بعض ستائر المسرح وتقدّمت، في صفٍ منتظم، أسنانٌ كبيرة لامعة.

ـــ أما أنا، فيُسعِدني أن تكوني حضرتِك كما أنت.

لابد أنني قلتُ هذا بابتسامةٍ مستفزة، لأنني فكرت في نفسي كأنني عديمُ حياءٍ من حقبةٍ أخرى بريشةٍ في قلنسوته. ثم بدأتُ أبحث عن عينيها الخضراوين خلف العوينات. لكن في قاع تلكما البحيرتين الزجاجيتين، البالغتي الصغر بموجاتٍ بالغة الثبات، كان الجفنان قد انغلقا وبَرَزا بحياء. بدأت الشفتان تُغطيان الأسنان من جديد وأخذ الوجهُ كله يمتلىءُ بلون مائلٍ إلى الحمرة كنتُ قد رأيته من قبل في المصابيح الصينية. ساد صمتٌ مثل صمت سوءِ تفاهمٍ وتعثّرت إحدى قدميها في ضفدعٍ عند محاولتها الصعودَ إلى القارب. وددتُ لو عدتُ بضع لحظات إلى الوراء وأن يكونَ كلُّ شيء مختلفا. كانت الكلمات التي قلتُها تُظهر خلفيةً من التلميح الفظّ ملأني بالمرارة. صارت المسافةُ بين الجزيرة وبين السقيفة الزجاجية فضاءً مُهانا وتبادلت الأشياءُ النظرَ فيما بينها كأنما لترفضني. كان ذلك خسارة، لأنني كنت قد بدأت أحبها. لكن فجأة قالت السيدة مارجاريتا:

ـــ توقف حضرتك عند السلم واذهب إلى غرفتك. أظن أنني فيما بعد سيكون لدي الكثير من الرغبة في التحدث معك.

عندها نظرتُ إلى بعض الانعكاسات في البحيرة ودون أن أرى النباتات انتبهتُ إلى أنها أثيرةٌلديّ؛وصعدت راضيا ذلك السلم الأبيض تقريبا، من الأسمنت المسلّح، مثل صبيٍّ يدوس على فقرات حيوانٍ مِمّا قبل التاريخ.

شرعتُ في ترتيب كتبي بجدِّيةٍ بين رائحة الخشبِ الجديد لصوانِ الملابس حين رنَّ التليفون:

ـــ من فضلك، اهبط برهةً أخرى؛ سندورُ بضع دوراتٍ في صمت وحين أشيرُ لك ستتوقف حضرتك عند أسفل السلم، وتعود إلى غرفتك ولن أضايقك أكثرحتى يمر يومان. جرى كل شيء كما توقّعت هي، رغم أنها

في لحظةٍ كنا ندور فيها قريبا من الجزيرة ونظرت هي إلى النباتات بدا أنها ستتكلم.

حينئذ، بدأت تتكرَّر بضعةُ أيامٍ غير محدّدة من الانتظار والكسل، من السأم في ضوء القمر وتنويعاتِ الشكوك في أن زوجها تحت النباتات. كنت أعرفُ أن لديّ صعوبةٌ كبيرة في فهم الآخرين وحاولت التفكير في السيدة مارجاريتا تارةً مثل ألثيدس وتارةً أخرى مثل ماريا؛ لكنني كنت أعرف أيضا أن الكسل سينتابُني من مواصلة التشكّك. عندئذ تركتُ نفسي لطريقة أنانيني؛ حين أكونُ معها أنتظرُ، بحسن نيةٍ وحتى بكسلٍ مُحِبٍّ، أن تقول لي ما تشاء وأن يدخل بارتياحٍ في فهمي. وإن لم يحدث، فربما حدث أنني، بينما أحيا قريبا منها، بإهمالٍ بهيج، سيتشكّل ذك الفهمُ ببطءٍ، داخلي، ويطوِّق شخصها برمته. وحين أكون في غرفتي، منهمكا في قراءاتي، يمكن أيضا أن أنظر إلى السهل المنبسط، دون أن أتذكر السيدة مارجاريتا. ومن هناك، دون أية ضغينةٍ، أسرقُ لنفسي منظر المكان وأحمله معي عند انتهاء الصيف. لكن حدثت أشياءُ أخرى. .

ذات صباحٍ كان مع رجلِ الماءِ خريطةٌ زرقاء فوق المائدة. كانت عيناه وأصابعه تتتبّع المنحنيات التي تمثّل أنابيبَ الماء المحفورة على الحوائط وتحت الأرضيات مثل ديدانٍ يمكن أن تأكلها. لم يكن قد رآني، رغم أن شعراته المنكوشة بدت متشككّةً وتُشيرُ في كل الاتجاهات. وأخيرا رفع عينيه. تأخّر في تغيير فكرةِ أن ينظُرَ إليّ بدل النظر إلى ما في الخرائط ثم بدأ يشرحُ لي كيف أن الماكينات، بواسطة الأنابيب، تمتصُّ وتتقيأُ ماء المنزل لتنتج إعصارا اصطناعيا. لم أكن قد شهدتُ أي إعصار؛ بل رأيت فقط ظلالَ بعض الألواح الحديدية التي اتضح أنها فوّهَاتٌ تنفتح وتنغلق بالتبادل، بعضها تبتلع الماء وأخرى تنفثه. أجهدني فهمُ تركيبِ بعض الصمامات؛ وأراد الرجلُ أن يشرح لي كل شيءٍ من جديد. لكن ماريا دخلت.

ـــ أنت تعرفُ أنكَ لا يجب أن تُظهر تلك الأنابيب الملتوية. فهي تبدو لها أمعاءً ... ويمكن أن تصِلَ حتى هنا، مثل السنة الماضية ... ومتوجهةً إليّ: من فضلك، إسمع حضرتك، ياسيدي، وأغلق فمك. هل كنت تعرف أنه سيكون لدينا الليلة "سهرٌ بالشموع"velorio[1]. نعم، تضع هي شموعا في بعض صحون الپودينج[2] التي تتركها طافيةً حول الفراش فينشأ الوهم بأنه "السهر بالشموع"على جثمانها هي.بعدها تجعلُ الماء يجري حتى يحمل التيارُ صحون البودينج.

عند حلول الليل سمعتُ خطوات ماريا،وقرعِ الجرس لإطلاق الماء وضجيج الموتورات. لكنني كنت سَئِما ولم أُرِد أن أندهش من شيء.

في ليلةٍ أخرى أكلتُ وشربت فيها أكثر مما يجب، بدا لي التجديفُ خلفها دائما حلماً مُبالَغا فيه؛ كان عليّ أن أظل مختفيا خلف الجبل، الذي ينزلقُ في الوقت ذاته بالصمت المُفترضِ في الأجرام السماوية؛

ومع كل هذا راق لي أن أفكر أن "الجبل" يتحرك لأنني أحمله في القارب. بعدها أرادت هي أن نظل ساكنين ومُلتصقين بالجزيرة. ذاك اليوم كانوا قد وضعوا بعض النباتات التي تُطِلُّ مثل شمسيات مائلة والآن تحجب عنّا الضوءَ الذي يجعله القمرُ يمرُّ من بين ألواح الزجاج. كنت أعرقُ من الحرارة، وانقضَّت علينا النباتات. أردتُ أن أغمسَ نفسي في الماء، لكن لما كانت السيدة مارجاريتا ستنتبه إلى أن القاربَ يفقِدُ ثِقلا، تخلَّيتُ عن تلك الفكرة. تسلَّت رأسي بالتفكير في أشياءٍ تخصُّها: "إسمها مثل جسمها؛ المقطعان الأولان يُشبهان كلَّ تلك الحمولة من البدانة ويشبه المقطعان الأخيران رأسَها وتقاطيعها الضئيلة ... ". تبدو هذه كذبةٌ، الليل بالغُ الروعة، في الريف، ونحن هنا، شخصان بالغان، بالغا القرب من بعضنا ونفكر فيما لا أدريه من حماقاتٍ مختلفة. لابد أنها الثانية فجرا ... ونحن مستيقظان بلا جدوى، تخنُقنا هذه الأغصان ... لكن ما أصلب وحدة هذه المرأة ...

فجأةً، لا أدري في أية لحظةٍ، خرج من بين الأغصان زئيرٌ جعلني أرتجف. تأخَّرتُ في إدراك أنه نحنحتها وبضع كلمات : ــ لا تسألني أيّ سؤال ...

هنا توقفَتْ. اختنقتُ وصعدت قربَ فمي كلماتٌ بدت كأنها لرفيقٍ قديم في الأوركسترا يعزف الأكورديون: "مَن لا يسألك أي سؤال؟ ... من الأفضل أن تتركيني أذهب لأنام ...".

وأنهت هي كلامها:

ــ ... حتى أكونَ قد حكيتُ لك كل شيء.

أخيرا ستظهر الكلماتُ الموعودة ــ الآن حين لم أكن أتوقّعها ــ. لفّنا الصمت بقوةٍ تحت الأغصان لكنني لم أتشجّع على دفع القارب إلى الأمام. اتسع لي الوقت للتفكير في السيدة مارجاريتا بكلماتٍ أسمعها داخلي وكأن وسادةً تخنقها. "المسكينة، قلتُ لنفسي، لابد أن لديها حاجةً للتواصل مع أحد. ولأنها حزينة سيصعب عليها التعامل مع ذلك الجسد ...".

بعد أن بدأت تتكلم، بدا لي أن صوتها أيضا يرنُّ في داخلي كأنني أنطق كلماتها. لذا ربما أخلطُ الآن بين ما قالته لي وبين ما فكرتُ فيه. كما سيصعب عليّ جمع كل كلماتها ولن يسعني سوى أن أضع هنا الكثير من كلماتي.

"منذ أربع سنوات، عند مغادرة سويسرا، كان ضجيجُ القطارِ غير محتملٍ بالنسبة لي. فتوقفتُ في مدينةٍ صغيرة بإيطاليا ...".

بدا أنها ستقول مع مَن، لكنها توقفت. مضت برهةٌ طويلة واعتقدتُ أنها تلك الليلة لن تقول أكثر. كان صوتها يُجرجِر نفسَه بتوقّفات تدفع للتفكير في أثَرِ حيوانٍ جريح. وفي الصمت، الذي بدا أنه يمتلىء بكل تلك الأغصان المتشابكة، خطر لي أن أراجِع ما سمعته لتوي. ثم فكرت أنني قد بقيتُ، دون داعٍ، مع عذاب صوتها في ذاكرتي،

حتى أحملُه فيما بعد إلى وحدتي وأربِّتُ عليه. لكن على الفور، كما لو أن أحداً يُجبِرني على إفلات تلك الفكرة، انزلقت أفكارٌ أخرى. لابد أن ذلك حدثَ مع من كان من قبل في المدينة الصغيرة بإيطاليا. وبعد فقدانه، في سويسرا، ربما تكون قد غادرت هناك دون أن تعرفَ أنه لم يتبقَّ أمامها سوى القليلِ من الأمل (كان ألثيدس قد قال لي أنهم لم يعثروا على بقاياه) وعند ابتعادها عن ذلك المكان، لابد أن ضجيجَ القطار قد أصابها بالجنون. عندها، لرغبتها في عدم الابتعادِ كثيرا، قرّرَت الهبوط في المدينة الصغيرة بإيطاليا، والأسوأ أنها في ذلك المكان الآخر صادفَت، بلا شك، ذكرياتٍ سببَّت لها نوبات يأسٍ جديدة. الآن لا يمكنها أن تقول لي هذا كلَّه، بدافع الخجل، أو ربما لاعتقادها أن ألثيدس قد حكى لي كل شيء. لكنه لم يقل لي أنها على هذا النحو بسبب فقدان زوجها، بل ببساطة: "مارجاريتا كانت مخبولةً طوال حياتها"، وأرجعت ماريا غرابة سيدتها إلى "كل تلك الكتب".ربما أخطأ الإثنان لأن السيدة مارجاريتا لم تحدثهما عن ألمها. وأنا نفسي، لو لم أعرف شيئا من ألثيدس، لما كنتُ فهمتُ شيئا من حكايتها، فالسيدة مارجاريتا لم تقل لي أبدا كلمةً واحدة عن زوجها.

واصلتُ مع افكارٍ كثيرةٍ كهذه، وحين عادت كلماتُها، بدا أن السيدة مارجاريتا مُستقِرَةٌ في غرفةٍ بالطابق الأول من فندق، في المدينة الصغيرة بإيطاليا، التي وصلتها ليلا. بعد برهةٍ من استلقائها في الفراش، نهضَتْ لأنها سمعت جلبةً، ومضت صوب نافذةٍ في ممرٍ يطل على الفناء. هناك كان ثمة انعكاساتٌ للقمر ولأضواءٍ أخرى. وفجأة، كأنها صادفت وجها كان يُراقبها، رأت نافورةَ ماءٍ. في البداية لم تستطع معرفة إن كان الماءُ نظرةً زائفةً في الوجه الداكن للنافورة الحجرية؛ لكن بعد ذلك بدا لها الماءُ بريئا ؛ وعند ذهابها إلى الفراش حملَتهُ في عينيها ومشت بعنايةٍ حتى لا تَرُجَّه. وفي الليلة التالية لم تكن ثمة جلبةٌ لكنها نهضتْ أيضا. تلك المرة كان الماءُ قليلا، وقذرا وعند ذهابها إلى الفراش، مثلما في الليلة السابقة، بدا لها من جديدٍ أن الماءَ يُراقبها، الآن من بين أوراق شجرٍ لا تستطيعالعوم. واصلت السيدة مارجاريتا النظر إليه، داخل عينيها ذاتهما وتوقّفت نظراتُ الاثنين على نفس التأمل. ولذا ربما، حين أوشكت السيدة مارجاريتا على النوم، تملّكها هاجسٌ مُسبَق لم تدر إن كان يأتيها من روحها أم من قاع الماء. لكنها شعرت أن أحداً يريدُ التواصل معها، أنه ترك إنذارا في الماء ولذا كان الماءُ يُصِرّ على أن ينظُر وأن يُنظَر إليه. عندها هبطت السيدة مارجاريتا من الفراش وسارت هائمةً، حافيةً ومذهولة، في غرفتها وفي الممر؛ لكن الآن، كان الضوءُ وكل شيء مختلفا، كأن شخصا أمر بتغطية الفضاء الذي تسيرُ فيه بهواءٍ آخرٍ ومعنىً آخرٍ للأشياء. هذه المرة لم

تتشجع على النظر إلى الماء؛ وعند عودتها إلى فراشها أحسّت، في قميص نومها، بانهمار دموعٍ حقيقية ومُنتظرةٍ منذ وقتٍ بعيد.
وفي الصباح التالي، عند رؤيتها الماءَ شاردَ الذهن، بين نساءٍ يتحدثن بصوتٍ عالٍ، انتابها الخوفُ من أن يكون صمتُ الليل قد خدعَها وفكرت أن الماء لن يمنحها أي إنذارٍ ولن يقيم لها تواصلا مع أحد. لكنها سمعت بانتباهٍ ما تقوله النساء والتفتت إلى أنهن يستخدمن أصواتهن في كلماتٍ حمقاء، ليس للماء ذنبٌ في أنهن يُلقِينها فوقه كأنها أوراقٌ قذرة، وأنه لن يترك نفسَه ينخدع بضوء النهار. ورغم ذلك، خرجت تتمشّى، فرأت عجوزا بائسا في يدهإناءٌ لرشِّ الماء وحين أمالهُ ظهرمخروطٌ من الماء يتصاعد منه البخار، يُغمغم كأن خُطواتٍ تحرّكه. عندها، منفعلةً، فكرت: "لا، لا يجب أن أتخلّى عن الماء؛ لسببٍ ما يصرُّ مثل طفلةٍ تعجزُ عن شرح ماتريد". تلك الليلة لم تذهب إلى النافورة بسبب صداع هائل في رأسها وقررت أن تأخذ قرصا لتخففه. ولحظة أن رأت الماءَ بين زجاج الكوب وضوءِ الغبش القليل، تخيّلت أن نفس الماء قد ابتكر نفسَه ليقترب ويضعَ سرًّا على الشفاه التي ستشرب. عندئذ قالت السيدة مارجاريتا لنفسها: "لا، هذا أمر خطيرٌ جدا؛ثمة من يُفضّل الليلَ ليجلب الماءَ إلى روحي".
عند الفجر ذهبت لترى بمفردها ماءَ النافورة لتلاحظ بدقةٍ ما بين الماءِ وبينها. وفور أن وضعت عينيها على الماء انتبهت إلى أن فكرةً هبطت عبر نظرتِها. هنا قالت السيدة مارجاريتا هذه الكلمات نفسها: "فكرةٌ لا يهمُّ تسميتُها الآن"، وبعد نحنحةٍ طويلة، "فكرةٌ مشوَّشةٌ وكأنها تمزَّقت من فرطِ عَصْرِها. بدأَتْ تغوصُ، ببطء فتركتُها تستقر. منها وُلدت انعكاساتٌ استخلصَتها نظراتي من الماء فملأت عينيّ وروحي. عندها عرفتُ،لأول مرة، أنه يجب زرعُ الذكريات في الماء، أن الماء يُطوِّرُ ما ينعكسُ فيه ويتلقى التفكير. وفي حالة اليأس لا يجب تسليمُ الجسدِ إلى الماء؛ بل تسليمُه التفكير؛ يخترقه الماءُ فيغيِّر التفكيرُ معنى الحياة". كانت هذه، تقريبا، كلماتها.
بعدها ارتدت ملابسها، وخرجت تتمشى، ورأت عن بعدٍ جدولا، ولأول وهلةٍ لم تتذكّر أن الماء يجري في الجداول ــــ وهو شيءٌ من العالم يمكنها هي وحدها التواصل معه ــــ. وحين بلغَت الضفة، تركت نظرتها في التيار، وعلى الفور خطرت لها فكرةٌ، رغم ذلك، أن هذا الماء لا يتوجّه إليها؛ وأنه فضلا عن ذلكيمكنه أن يحمل ذكرياتها إلى مكانٍ بعيد، ويُبلِيها. أجبرتها عيناها على مُراقبة ورقةِ شجرٍ سقطت لفورها من شجرة؛ مضت للحظةٍ على السطح ولحظة غوصها سمعت السيدة مارجاريتا خطواتٍ مكتومة، بنبضاتٍ. انتابها قلقُ توقُّعاتٍ غير مُحدّدةٍ فغامت رأسُها. كانت الخطوات لحصانٍ اقترب بثقةٍ مَلولةٍ بعض الشيء وغمر خَطمه في التيار؛بدت أسنانُه مُكبّرةً من خلال زجاجٍ متحرك، وحين رفع رأسه تساقط الماءُ من شُعيرات خطمه دون أن يَفقِد شيئا من

كبريائه. عندها فكرت في الخيول التي تشرب الماء في بلدها، وفي اختلاف الماء هناك.

تلك الليلة، في قاعة طعام الفندق، أخذت السيدة مارجاريتا تحدِّقُ كل لحظةٍ في إحدى السيدات اللاتي كن يتحدثن صائحاتٍ قرب النافورة. بينما ينظرُ إليها الزوجُ، كالعبيط، كانت ابتسامةُ المرأة متهكِّمةً، وحين همّت برفع كأسٍ إلى شفتيها، فكرت السيدة: "في أية أفواهٍ يمضي الماء". وعلى الفور شعرتْ بالتوعُّك، مضت إلى غرفتها وانتابتها نوبةُ دموعٍ. بعدها نامت نوما ثقيلا وعند الثانية فجرا استيقظت منفعلةً وذكرى الجدول تملأُ روحَها. عندها خطرت لها أفكارٌ لصالح الجدول: "ذلك الماءُ ينسابُ مثل أملٍ مُتجرِّدٍ عن الهوى ولا يمكن لشيءٍ أن يغلِبه. وإذا كان الماءُ الذي ينساب قليلا، يمكن لأي بئرٍ أن يُعدّ له فخّاً ويحبِسه: عندها يحزن، ويمتليء بصمتٍ عكِر، وذلك البئر مثل رأس مجنونٍ. يجب أن تكون لديّ آمالٌ مثل مسارٍ، يُسبِّبُ الدُّوار، إذا أمكن، وألاّ أفكر كثيرا في أن تتحقق؛ ذلك يجب أن يكون، أيضا، معنى الماء، ميله الغريزي. يجب أن أكون مع أفكاري وذكرياتي مثلما في ماءٍ ينسابُ باندفاعٍ شديد ...". ارتفع بسرعةٍ هذا المدُّ من الأفكار فنهضت السيدة مارجاريتا من الفراش، وأعدَّت الحقائبَ وبدأت تتمشى في غرفتها وفي الممر دون رغبة في النظر إلى ماء النافورة. عندها فكرت: "الماء هو نفسُه في كل مكانٍ ويجب أن أزرع ذكرياتي في أي ماءٍ في العالم". انقضى بعضُ الوقت القلقِ قبل أن تستقِرَّ في القطار. لكن ضجيج العجلات بعدها أصابها بالكآبة وشعرت بالأسى على الماء الذي تركته في نافورة الفندق؛ تذكّرت الليلة التي كان فيها قذِرا ومليئا بأوراق الشجر، مثل طفلةٍ فقيرة، تطلبُ إحسانا وتقدِّم لها شيئا؛ وإذا لم تكن قد أوفت بوعد أملٍ أو إنذار، فذلك يرجع إلى شقاوةٍ طبيعية للبراءة. بعدها وضعت السيدة مارجاريتا فوطةً على وجهها، وبكت فأفادها ذلك. لكنها لم تستطع التخلي عن أفكارها عن الماء الساكن: "لابد أنني أفضّلُ، واصلَت التفكيرَ، الماءَ المُحتَجَز في الليل حتى يتمدَّد الصمتُ ببطءٍ فوقه ويمتليءُ كلُّ شيءٍ بالحلم وبنباتات متشابكة. هذا أكثرُ شبَهاً بالماء الذي أحمِله داخلي، وإذا أغمضت عينيّ أحسّ كأن يديّ امرأةٌعمياء تتحسَّس سطحَ مائِها الخاص وتتذكر، بصورةٍ غائمة، ماءً بين نباتاتٍ رأتهُ في طفولتها، حين كان لا يزال لديها القليلُ من البصر".

هنا توقفَتْ برهةً، يكفي أنني انتبهتُ إلى أننا عُدنا إلى الليل الذي كنّا فيه تحت الأغصان؛ لكنني لم أدرِ جيدا إن كانت تلك الأفكارُ الأخيرة قد خطرَت للسيدة مارجاريتا في القطار، أم خطرَت لها الآن، تحت هذه الأغصان. بعدها أشارت لي لأمضي إلى أسفل السلّم.

تلك الليلةُ لم أُضيء نورَ غرفتي، وبينما أتحسَّسُ قطعَ الأثاث عاودتني ذكرى ليلةٍ أخرى كنت قد سكِرتُ فيها سكراً خفيفا بشرابٍ تناولته للمرة الأولى. الآن تأخرتُ في خلع ملابسي. ثم وجدتُني مُثبَّتَ العينين في حرير الناموسية وعاودتني من جديدٍ الكلماتُ التي انفصلت عن جسد السيدة مارجاريتا.

في نفس لحظة الحكي انتبهتُ ليس فقط إلى أنها تنتمي إلى الزوج، بل كذلك إلى أنني قد أفرطتُ في التفكير فيها؛ وأحيانا بطريقةٍ مُذنِبةٍ. عندها بدا أنني من يُخفي الأفكارَ بين النباتات. لكن منذ اللحظة التي بدأت فيها السيدة مارجاريتا في الكلام شعرتُ بالانقباض كأن جسدَها يغوصُ في ماءٍ يجذبُني أنا أيضا؛ ظهرت أفكاري المذنبةُ بطريقةٍ عابرة مع فكرة أن الوقتَ لا يتسع للتفكير فيها ولا تستحقُ العناء؛ وكلما تقدمَت الحكايةُ أخذ الماءُ يُقدّمُ نفسَه على أنه روحُ ديانةٍ تدهشُنا بأشكالٍ مختلفة، وللخطايا، في ذلك الماء، معنىً آخر ولا يهمُّ مغزاها كثيرا. كان شعورُ ديانةٍ للماء يتزايدُ قوةً. ورغم أن السيدة مارجاريتا وأنا كنا المؤمنين الوحيدين من لحمٍ ودم، فإن ذكريات الماء التي أتلقاها في حياتي الخاصة، في توقُّفات الحكاية، بدت لي أيضا مؤمنينَ بتلك الديانة؛ كانت تصلُ ببطءٍ، كأنها بدأَت الرحلةَ منذ وقتٍ طويل ولم تكد ترتكبُ خطيئةً كبرى.

وسرعان ما انتبهتُ إلى أن روحا أخرى جديدة وُلِدت من روحي ذاتها وأنني سأتبعُ السيدةَ مارجاريتا ليس في الماء فقط، بل كذلك في فكرةِ زوجها. وحين انتهت من الكلام وصعدتُ أنا سلّمَ الأسمنت المسلّح، فكرتُ أنه في الأيام التي يسقطُ فيها ماءٌ من السماء تكون ثمة اجتماعاتٌ للمؤمنين.

لكن، بعد أن استلقيتُ تحت حرير الناموسية ذاك، بدأتُ أدورُ حول حكاية السيدة مارجاريتا بطريقةٍ أخرى؛ أخذتُ أسقطُ بمفاجأةٍ بطيئة، في روحي السابقة، وأفكر أن لديّ أنا أيضا قلقي الخاص؛ أن حريرَ الناموسية الذي شبكتُ فيه اليوم عينيَّ المفتوحتين، كان معلقا فوق بِركةٍ ومنها ينهضُ مؤمنون آخرون، يخصّونني أنا، ويُطالبونني بأشياء أخرى. الآن تذكرتُ أفكاري الخاطئة بتفاصيل كثيرة ومُحمّلةٍ بمعنىً أعرفه جيدا. كانت قد بدأت في أحد المساءات الأولى، حين كنت أشك أن السيدة مارجاريتا ستجذبُني مثل موجةٍ هائلة؛ لن تتركني أرتكز على شيء وسينزعُ عني كسلي القوةَ للدفاع عن نفسي. عندها انتابتني ردّةُ فعلٍ وأردتُ الانصراف من ذلك المنزل؛ لكن ذلك حدث كأنني عند الاستيقاظ، أقوم بحركةٍ بقصد النهوضِ ودون أن أدري أسترخي لأواصلَ النوم. وفي أمسية أخرى أردتُ أن أتخيّلني ــــ كنت قد فعلت ذلك مع نساءٍ أخريات ــــ مُتزوِّجا منها. وفي النهاية قررتُ، بجُبنٍ، أن وحدَتها لو بعثَت فيّ الشفقةَ وتزوجتُها، فسوف يقول أصدقائي أنني فعلتُ ذلك من أجل النقود؛ وستضحك خطيباتي السابقات مني حين يكتشفن أنني

أسيرُ على أرصفةٍ ضيقة خلف امرأة مفرطة البدانة هي زوجتي. (كنت بالفعل قد اضطُرِرت للسير خلفها، عبر الرصيف الضيق، في الليالي التي أرادت فيها المشي.)

الآن لم يعد يهمُّني ما يقوله أصدقائي ولا سخريات خطيباتي السابقات. فهذه السيدة مارجاريتا تجذبني بقوةٍ يبدو أنها تُمارِسها من مسافةٍ بعيدة، كأنني كوكبٌ تابعٌ، وفي نفس الوقت الذي تبدو لي فيه نائيةً وغريبة، فإنها مليئةٌ بتسامٍ غريب. لكن مؤمِنيَّ طالبوني بالسيدة مارجاريتا الأولى، تلك المجهولة الأشدِ بساطةً، ودون زوجٍ، التي يمكن لخيالي أن يتدخل فيها بحريةٍ أكبر. ولابد أنني فكرت في أشياء كثيرةٍ أخرى قبل أن يُخفي عني النومُ حريرَ الناموسية.

في الصباح التالي، قالت لي السيدة مارجاريتا، تليفونيا: "أرجوك أن تذهب إلى بوينوس أيريس لبضعة أيامٍ؛ سأجعلُهم ينظِّفون المنزل ولا أريد لحضرتِك أن تراني بدون الماء". ثم حدَّدت لي الفندق الذي يجبُ أن أذهب إليه. هناك سأتلقى إشارة العودة.

أطلقَت الدعوةُ لمغادرة منزلها في داخلي مخزوناً من الغيرة ولحظةَ ذهابي انتبهتُ إلى أنني رغم استثارتي كنت أحملُ معي لفافةً ثقيلة من الحزن وفور أن أهدأ ستنتابُني الحاجةُ الحمقاء لفكِّها ومُراجعَتها بعناية. حدث ذلك بعد قليل، وحين أخذتُ القطارَ كانت آمالي في أن تُحبّني السيدة مارجاريتا ضئيلةً جدا، مثلما كانت آمالها حين أخذَت ذلك القطارَ دون أن تعرفَ إن كان زوجُها مازال حيا. كانت الآن أزمنةٌ أخرى وقطاراتٌ أخرى. لكن هذه المصادفة كانت فقيرةً جدا مثل مصادفة التوفيقِ في حلِّ رقمٍ واحدٍ فقط من أرقام بطاقةٍ فائزة. لم تكن لي فضيلةُ السيدة مارجاريتا في العثور على ماءٍ عجائبي، ولن أفتش عن العزاءِ في أي ديانة. في الليلة الفائتة كنت قد خنتُ مُؤمِنيَّ أنا، لأنهم رغم رغبتهم في أن يجعلوني مع السيدة مارجاريتا الأولى، كان لديّ أيضا، في عمقِ بِركتي، مؤمنون آخرون يُحدِّقون النظر في هذه السيدة مثل كائناتٍ سحرَها القمر. كان حُزني كسولا، لكنه يحيا في خيالي بكبرياءِ شاعرٍ غيرِ مفهوم. كنتُ مكانا مؤقتا يتقابل فيه كلُّ أسلافي للحظةٍ قبل أن يصلوا إلى أبنائي؛ لكن أجدادي رغم كونِهم مُختلفين بعداواتٍ كُبرى، لم يشاؤوا العراك بينما يعبُرون في حياتي: فضَّلوا الراحة، الاستسلامَ للكسل وتجاهلَ بعضهم مثل مُسرنَمين يسيرون في أحلامٍ مختلفة.كنتُ أحاولُ ألاّ أستفزهم، لكن إذا وقع ذلك أُفضِّلُ أن يكون الصراعُ قصيراً وأن يهلكوا مرةً واحدة.

في بوينوس آيريس تكبدتُ عناءَ العثورِ على أركانٍ هادئة لا يجدني فيها ألثيدس. (كان سيروقه أن أحكي له أشياء عن السيدة مارجاريتا ليوسّعَ طريقتَه السيئة للتفكير فيها). علاوةً على أنني كنت مشوَّشا تماما بين السيدتين مارجاريتا ومترددا بينهما كأنني لا أدري أي واحدة، من بين أختين، يجب أن أفضِّلها أو أخونها؛كما لا يمكنني أن

أدمجهما، لأحبهما في نفس الوقت. وغالبا ما كان يُضايقني أن تُجبرني السيدةُ مارجاريتا الأخيرة على التفكير فيها بطريقةٍ بالغة النقاء، وراودتني فكرة أنني يجب أن أتبعها في كل حالات جنونها حتى تخلِط بيني وبين ذكريات زوجها، وبعدها، يمكنني أن أحل محله.

تلقّيتُ أمر العودة في يومٍ عاصف فانطلقتُ مسافرا بتعجُّلٍ وحشي. لكن ذلك اليوم، بدا أن الريح كانت تحملُ خِفيةً مهمةَ أن تهبَّ ضد الزمن ولم ينتبه أحدٌ إلى أن البشر، والقطارات، وكلَّ شيء كانت تتحرك ببطءٍ مُعذِّبٍ. تحمّلتُ الرحلة بصبرٍ هائل وعند وصولي إلى المنزل الغارق كانت ماريا هي من جاءت لاستقبالي عند المرفأ. لم تتركني أجدّف وقالت لي أن حادثين وقعا في نفس يوم رحيلي، قبل سحبِ الماء. أولا وصلت فيلومينا، زوجةُ المراكبي، لتطلبَ أن تُعيدَها السيدة مارجاريتا إلى العمل. لم تكن قد طردتها لمجرد تركِها ذلك الرغيفَ يسبحُ، بل لأنهم وجدوها تُغوِي ألثيدس ذات مرةٍ بينما كان هناك في الأيام الأولى. دفعتها السيدةُ مارجاريتا، دون أن تقول كلمةً واحدة، فوقعت فيلومينا في الماء؛ وحين انصرفت، باكيةً والماءُ يقطُر منها، صحِبها الزوجُ ولم يعودا. وبعد ذلك بقليل، حين قرّبت السيدةُ مارجاريتا، بجذبِ حبلٍ، منضدةَ الزينة من فراشها (هناك كانت قطعُ الأثاث تطفو فوق قِطع مطاطٍ منفوخة، مثل تلك التي يحملها الأطفال إلى الشواطيء)، قلَبَت زجاجةَ رومٍ فوق سخانٍ كانت تستخدِمُه في تهذيب الشعر فاشتعلت منضدةُ الزينة.طلبت هي ماءً بالتليفون، "كأنما ليس هناك الكثير منه أو أنه ليس نفسَ الماء الموجود في المنزل كله"، قالت ماريا.

كان الصباحُ التالي لعودتي مُشرِقا وكانوا قد وضعوا نباتاتٍ جديدة؛ لكنني شعرتُ بالغيرة من التفكير في وجود شيءٍ مختلفٍ عمَّا كان؛ فلن نجد أنا والسيدة مارجاريتا الكلمات والأفكار كما تركناها، تحت الأغصان.

عادت إلى حكايتها بعد بضعة أيام. تلك الليلة، كما حدث في مراتٍ أخرى، وضعوا مِعبَرا لعبور ماءِ البهو. حين وصلتُ إلى أسفل السلم أشارت لي السيدة مارجاريتا أن أتوقّف؛ ثم لأسيرَ خلفها. درنا دورةً حول كل الرصيف الضيق الذي يُطوِّق البحيرة وبدأت تقول لي أنها عند مغادرة تلك المدينة في إيطاليا فكرت أن الماءَ هو نفسُه في كل أنحاء العالم. لكن لم يكن الأمرُ كذلك، وفي مراتٍ كثيرة كان عليها أن تُغمِض عينيها وتضع إصبعيها في أذنيها حتى تُصادِف ماءَها الخاص. وبعد أن توقّفَت في إسبانيا، حيث باعها مهندسٌ رسومَ منزلٍ غارق ـــ لم تُعطني تفاصيل ـــ أخذت سفينةً مكتظة بالناس وحين كفّت عن رؤية الأرض انتبهَت إلى أن ماءَ المحيط لا يخُصُّها، ففي تلك الهاوية يختفي أكثرُ مما ينبغي من الكائناتِ المجهولة. بعدها قالت لي أن بعضَ الأشخاص، في السفينة، كانوا يتحدّثون عن حوادث الغرق وحين ينظرون

إلى اتساع الماءِ الهائل، يبدو أنهم يُخفُون خوفا؛ لكنهم لا يخافون من حوض استحمام، ولا من تسليم أنفسهم له بجسد عارٍ.كذلك كان يروقها الذهابُ إلى قاع السفينة لرؤية الغلّايات، بمائها المحبوس والغاضبِ من عذاب النار. وفي الأيام التي يكونُ فيها البحرُ هائجا كانت السيدة مارجاريتا تستلقي في قمرتها، وتُمرِّر عينيها على صفوف الحروف، في الصحف والمجلات، كأنهما تتتبّعان طرُقَ النمل. أو تنظرُ قليلا إلى الماء الذي يتحرك في زجاجةٍ ضخمة ذات عنقٍ ضيق. هنا أوقفَت الحكي وانتبهتُ أنا أنها كانت تهتزُّ مثل سفينة. كثيرا ما كانت خطواتُنا تتخالَف، نطوِّح جسدينا إلى جانبين مختلفين وكنت أجاهدُ لاصطياد كلماتها، التي تحمِلُها فيما يبدو دفقاتٌ غير متوافقة. كذلك أوقفَت خطواتها قبل الصعود إلى المعبر، كأن خوفا انتابها في تلك اللحظة من عبوره؛ ثم طلبت مني أن أُحضِر القارب. أمضينا وقتا طويلا قبل أن تظهر التنهيدةُ الأجشّة وكلماتٌ جديدة. وأخيرا قالت لي أنها على السفينة نالت لحظةً لروحها. وذلك حين كانت مُتّكئةً على حاجز، ناظرةً إلى هدوء البحر، كأنها تنظرُ إلى جلدٍ هائل لا تكاد تَبينُ من خلاله حركاتُ العضلات. تخيّلت السيدة مارجاريتا أشكالَ جنون كتلك التي تأتي في الأحلام: افترضَت أن بإمكانها السيرُ على سطح الماء؛ لكنها خشيت أن يظهر درفيلٌ يجعلها تتعثّر؛ ومن ثم، ستغرق، حقا،هذه المرة. وفجأة انتبهَت إلى أنه منذ بضع لحظات كان يسقط، فوق ماء البحر، ماءٌ عذبٌ من السماء، قطراتٌ كثيرة تصل حتى خشب السطح وتتدافع متتابعةً ومتراكمة كأنها تهاجم السفينة. وعلى الفور أصبح السطحُ برمته، ببساطة، أرضيةً مبتلة. عاودت السيدة مارجاريتا النظرَ إلى البحر، الذي كان يتلقّي ويبتلعُ المطرَ بالطبيعية التي يبتلع بها حيوانٌ حيوانا آخر. انتابها شعورٌ مشوشٌ بما يجري وسرعان ما بدأ جسدها يرتج بضحكةٍ تأخرت في الوصول إلى وجهها، مثل زلزالٍ أرضي يُحدثه سببٌ مجهول. بدا أنها تبحثُ عن أفكارٍ تبرّر ضحكتها وأخيرا قالت: "هذا الماء يبدو طفلةً مُخطئة؛ بدل أن يُمطر (على الأرض يُمطر على ماءٍ آخر)". بعدها شعرَت برقةٍ لعذوبة أن يتلقى البحرُ المطرَ؛ لكن عند ذهابها إلى قمرتها، مُحرِّكةً جسدها الضخم، تذكرت رؤيةَ الماء يبتلع الماء الآخر وراودتها فكرةُ أن الطفلةِ كانت تمضي صوبَ موتها. عندئذ امتلأت الرقّةُ بحزنٍ ثقيل، استلقت على الفور وسقطت في نوم القيلولة. هنا أنهت السيدة مارجاريتا حكاية تلك الليلة وأمرتني بالذهاب إلى غرفتي.

في اليوم التالي وصلني صوتُها تليفونياوتولد لديّ الانطباع بأنهاتتّصل بي وذهنُها في عالمٍ آخر. قالت أنها تدعوني في المساء إلى جلسةٍ لتكريم الماء. عند المساء سمعتُ خَشخشة صحون البودينج، مع ذهاب وإياب ماريا، وتأكّدت مخاوفي: سيكون عليّ أن أصحبها في "السهر بالشموع". انتظرتني عند أسفل السلم قربَ حلول الليل. وحين

دخلتُ، بظهري إلى الغرفة الأولى، انتبهت أنني كنتُ أسمع جلَبة ماءٍ صارت الآن أكثر حدة. في تلك الغرفة رأيت منضدةً صغيرة. (جعلتها أمواجُ القارب تتحرك على قطع المطاط المنفوخ، وطقطَقت قليلا الكؤوسُ والسلاسلُ التي تربطها بالحائط). وعلى الجانب الآخر من الغرفة كان ثمة نوعٌ من الطَوْفِ، المستدير، في مركزه مائدةٌ وكراسي مستندةٌ إلى حاجز: بدا اجتماعا سريا لبُكمٍ لا يكاد يحرِّكه مرورُ القارب. دون قصدٍ اصطدم المجدافان بأُطُر الأبواب المؤدية إلى غرفة النوم. في تلك اللحظة أدركتُ أن الماء ينهمر هناك مدرارا. حول الحائط كله ــــ باستثناء المواضع التي بها قطعُ الأثاث، صوانُ الملابس الضخم، والسريرُ، ومنضدةُ الزينة ــــ كانت معلقةً آنيةُ ماءٍ لا تُحصى من كل الأشكال والألوان؛ تتلقى الماءَ من خِزان ضخمٍ من الزجاج يُشبه نارجيلةً تركية، معلقٍ من السقف مثل مصباح؛ وتخرج منه، مُنحنيةً مثل أكاليل، الأنابيبُ الرفيعة المطاطية التي تُغذِّي آنيةَ المياه. بين كل ضجيجِ الكهف ذاك، رسونا بجوار السرير؛ كانت سيقانُه الزجاجية الطويلة تجعلُه يرتفع كثيرا عن الماء. نزعت السيدة مارجاريتا حذاءها وأخبرتني أن أفعل نفس الشيء؛ صعدَت إلى السرير، الذي كان بالغ الضخامة، واتجهَت إلى حائط رأس السرير، حيث كانت لوحةٌ ضخمة بها كبشٌ أبيضٌ ذو لحية واقفٌ على قائمته الخلفيتين. أمسكَت الإطار، وفتحَت اللوحة كأنها بابٌ فظهر حمَّام. وكي تدخلَ خَطَت فوق الوسائد، التي قامت بدور السلالم، وبعد لحظاتٍ قليلة عادت ومعها صحنَي پودينج مستديرين بشموعٍ مُلتصقةٍ في قاعيهما. قالت لي أن أضعَهما في الماء. عند صعودي، وقعتُ على السرير؛ نهضتُ على الفور لكنني استطعتُ شمَّ العِطر الذي في الأغطية. أخذتُ أضع صحون البودينج التي تُناوِلها لي إلى جانب السرير، وفجأة قالت لي: "من فضلك، لا تضعها هكذا لأنها تبدو كسهرٍ على جثمان". (عندئذ انتبهتُ إلى خطأ ماريا). كانت ثمانيةً وعشرين. قرفصَت السيدةُ في الفراش وتناولَت سماعة التليفون، التي كانت على منضدةٍ ليلية [كومودينو]، وأصدرت أمرا بأن يقطعوا الماء عن الآنية. ساد صمتُ مقبرةٍ وبدأنا نُشعِل الشموع مُقرفِصين عند قدم السرير وحاذرتُ أنا أن أُضايِق السيدة. وحين كدنا ننتهي، سقطَت منها علبةُ الثِقاب في صحن پودينج، عندها تركَتني وحيدا ونهضَت لتضرب الجرس، الذي كان على الكومودينو الآخر. هناك أيضا كانت أباجورةٌ هي كل ما يضيءُ الغرفة. قبل أن تدقّ الجرس توقّفَت، وتركَت المطرقة إلى جوار الأباجورة ومضت لتُغلق الباب الذي كان لوحة الكبش. بعدها جلسَت عند رأس السرير، وبدأت تُهيئ الوسائدَ وأشارت لي أن أضربَ الجرس. أجهدَني أن أفعل؛ إذ كان عليّ أن أسيرَ على أربعٍ على حافة السرير حتى لا أحتكّ بساقيها، اللتان تحتلان حيزا كبيرا. ولا أدري لماذا خِفتُ أن أسقط في الماء ــــ فلم يكن العمق سوي أربعين سنتيمترا ــــ. بعد أن ضربتُ الجرس مرةً

واحدة، أشارت لي أنها كافية. وعند تراجُعي ـــ سائرا إلى الوراء لعدم وجود مساحةٍ للدوران ـــ، رأيت رأسَ السيدة مستندةً على قائمتي الكبش، بنظرةٍ ثابتة، تنتظرُ. أما صحون الـپودينج، الساكنة بدورها، فبدت سُفنا صغيرةً راسيةً في ميناءٍ قبل الإعصار. بعد لحظات من تشغيل الموتورات بدأ الماءُ يهتزّ؛ عندها خرجت السيدة مارجاريتا، بجهدٍ جهيد، من الوضع الذي كانت عليه وجاءت من جديد لتستلقي على بطنها عند قدم السرير. وصل التيارُ عندنا، وجعل صحونَ الـپودينج تتصادم، ببعضها البعض، وبعد أن وصل إلى حائط المؤخرة عاد بعنفٍ ليكتسح صحون البودينج، بأقصى سرعة. انقلبَت واحدةٌ وتلتها أخريات؛ وأطلقت الشموع، عند انطفائها، بعضَ الدخان. نظرتُ إلى السيدة مارجاريتا، لكنها، مُتوقعةً فضولي، كانت قد وضعت يدا على جانب عينيها. بسرعة، غاصت صحونُ البودينج على الفور، ودارت بأقصى سرعةٍ خلال باب البهو باتجاه الفناء. وكلما انطفأت الشموع قلّت الانعكاساتُ وأصبح المشهد أشدَّ فقرا. وحين بدا أن كلَّ شيءٍ قد انتهى، قامت السيدة مارجاريتا، متكئةً على الذراع التي كفُّها على عينيها، بإطلاق صحن بودينج كان قد ظل عالقا على جانب السرير بيدها الأخرى وتأهبَت للنظر إليه؛ لكن صحن البودينج ذاك غرق بدوره على الفور. وبعد بضع ثوانٍ، ارتكزَت، ببطء،على كفِّيها، لتُقرفِص أو لتجلس على كعبيها ورأسها مائلة إلى أسفل وذقنها ضائعة بين بدانة لغدها، وأخذت تنظرُ إلى الماء مثل طفلةٍ فقدت دميةً. ظلت الموتورات تعمل وبدا أن السيدة مارجاريتا تجتاحها باضطراد خيبة الأمل.ودون أن تقول لي شيئا، جذبتُ أنا القاربَ بالحبل، المربوط بقائم السرير. ولم أكد استقرّ داخل القارب وأطلق الحبل، حتى حملني التيارُ بسرعة لم أتوقعها. وعندما استدرتُ عند باب البهو نظرتُ إلى الوراء فرأيت السيدة مارجاريتا وعيناها مثبّتتان فيّ كأنني صحن بودينج آخر يمنحُها الأملَ في أن يكشف لها سرا ما. وفي الفناء جعلني التيارُ أدورُ حول الجزيرة. جلستُ في مقعد القارب ولم أعبأ أين سيحملني الماء. تذكّرتُ الدورات التي قمتُ بها من قبل، حين كانت السيدة مارجاريتا تبدو لي شخصا آخر، ورغم سرعة التيار شعرتُ بأفكارٍ بطيئة وخطر لي مُركَّبٌ حزينٌ لحياتي. كان مقدورا لي أن التقي مع جزءٍ من الأشخاص فحسب،وفوق ذلك لوقتٍ قصير وكأني رحّالةٌ شاردُ الذهن لا يدري كذلك إلى أين يمضي. وهذه المرة لم أفهم حتى لماذا استدعتني السيدة مارجاريتا وحكَت لي حكايتها دون أن تترُكني أنطقُ كلمةً واحدة؛ والآن كنتُ متأكدا من أنني لن أقابل هذه السيدة في مُجملها. واصلتُ تلك الدورات وتلك الأفكار حتى أطفأوا الموتورات وجاءت ماريا لتطلب القاربَ لتصطاد صحون البودينج، التي كانت بدورها تدور حول الجزيرة. أوضحتُ لها أن السيدة مارجاريتا لا تقوم

بأي سهرٍ على الجثمان بل يروقُها فحسب أن ترى صحون البودينج تغرق مع اللهب ولم أدر ماذا أقول لها أكثر من ذلك.

تلك الليلة ذاتُها، بعد ذلك بقليل، طلبتني السيدةُ مارجاريتا تليفونيا مرة أخرى. في البداية كانت عصبيةً، ودون أن تُطلق النَحنحة واصلَت الحكاية من لحظة أن اشترت المنزل وأعدّته لإغراقه. ربما كانت قاسيةً مع النافورة، وهي تفرغها من الماء وتملأها بتلك الطينة الداكنة. في البداية، حين وضعوا أولى النباتات، بدا أن النافورة تحلُم بالماء الذي كان بها من قبل؛ لكن سرعان ما بدت النباتات مُزدحمةً أكثر مما ينبغي، مثل إنذاراتٍ مشوشة؛ عندها أمرت السيدة مارجاريتا بتغييرها. أرادَت أن يختلط الماءُ بصمت أحلامٍ هادئة، أو بمحادثات خفيضةٍ لعائلات سعيدة (لذا قالت لماريا أنها صمّاء ولا يجب الحديث معها إلاّ تليفونيا). كذلك أرادَت أن تمضي فوق الماء ببطء سحابةٍ وأن تحملَ في يديها كتبا، مثل طيورٍ مُسالمة. لكن أكثرَ ما أرادتهُ، كان أن تفهَم الماء. من الممكن، كما قالت لي، ألاّ يريد الماءُ شيئا سوى أن ينساب ويُخلّف إيحاءاتٍ عند مروره؛ لكنني سأموتُ وفي ذهني فكرةُ أن الماءَ يحملُ في داخله شيئا جمَعهُ من مكانٍ آخر ولا أدري كيف سيحملُ إليّ أفكارا ليست أفكاري لكنها من أجلي. على أية حال أنا سعيدةٌ به، أحاولُ أن أفهمه ولا يستطيع أحدٌ أن يمنعني من حفظ ذكرياتي في الماء.

تلك الليلة، على خلاف عادتها، صافحتني عند الوداع. وفي اليوم التالي، حين ذهبتُ إلى المطبخ، أعطاني رجلُ الماءِ خطابا. وحتى أقول له شيئا سألتُه عن ماكيناته. فقال لي: — أرايتَ حضرتك كيف ركّبنا آنيةَ الماء بسرعة؟

— نعم، و ... هل هي على ما يرام؟ (كنت أُخفِي الرغبة في الذهاب لقراءة الرسالة).

— كيف لا تكونُ ... مادامت الماكيناتُ على ما يرام، ليس ثمة عائق. في الليل أحرِّك رافعةً،فيبدأ ماءُ الآنية وتنام السيدة على الرقرقة. وفي النهار التالي، في الخامسة، أحرِّك نفسَ الرافعة مرة أخرى، فتتوقف الآنية، ويوقظ الصمتُ السيدة؛ وبعد بضع دقائق أجذبُ الرافعةَ التي تُحرِّك الماء فتنهضُ السيدة.

عند ذلك حيَّيتُه ومضيتُ. كانت الرسالة تقول:

"صديقي العزيز: يوم أن رأيتك لأول مرةٍ عند السلم، كان جفنا حضرتك مُغمضين وبدا أنك مشغولٌ جدا بدرجات السلم. بدا ذلك كله خجَلا؛ لكنك كنتَ جريئا في خطواتك، في طريقة إظهارك لنعل حذائك. تعاطفتُ معكَ ولذا أردتُ أن تصحبَني كلَّ هذا الوقت. ولو كان العكسُ، لكنتُ حكيتُ لك حكايتي على الفور ولتوجَّبَ على حضرتك أن تذهب إلى بوينوس آيريس في اليوم التالي. وهذا ما ستفعلُه غدا.

شكرا على صُحبتك؛ وبالنسبة لمدخراتك سنتفاهمُ عن طريق ألثيدس. وداعا وأتمنى لك السعادة؛ أظن أنك بحاجة شديدة إليها.
مارجاريتا".

ملحوظة. إذا خطر لسيادتِكَ بالصدفة أن تكتب كل ما حكيتُه لك، إحكِ بإذني. أطلبُ منكفقط أن تضع في الختام هذه الكلمات: "هذه هي الحكاية التي تُهديها مارجاريتا لخوسيه. سواء كان حياً أم ميتا".

---

(1) السهر بالشموع: مستمد من الطقس المسيحي للسهر على جثمان الميت. وفيه توضع الشموع عند أركان الفراش الأربعة، ويأتي أصدقاؤه وأقاربه لمصاحبته ووداعه. يقابل هذا الطقس في الطقوس الشعبية طقس "ليلة الوحشة" الذي يرافق الميت فيه أصدقاؤه وأقاربه للتخفيف من وحدته قبل عبوره إلى الوحدة المطلقة.

(2) البودينج: حلوى معروفة أساسها الدقيق واللبن والبيض والسكر.

عرائــــس الأورتنــــسيا[*]

إلى ماريّا لويسا

إلى جوار حديقةٍ كان مصنعٌ وكانضجيجُ الماكينات يدخل بين النباتات والأشجار. وفي مؤخرة الحديقة يُرى منزلٌ ذو غشاءٍ داكن. كان مالكُ "المنزل الأسود" رجلا طويلا. عند حلول الظلام كانت خطواتُه المتمهِّلة تأتي من الشارع؛ وحين يدخل الحديقة ورغم ضجيج الماكينات، كان يبدو أن خطواته تمضُغ الحصى. ذات ليلةٍ خريفية، حين فتحَ الباب وزرَّ عينيه لتجنُّب الضوء القوي للبهو، رأي زوجته متوقفةً في منتصف الدرج؛ وحين نظر إلى السلالم المتناثرة حتى منتصف الفناء، بدا له أن زوجته ترتدي رداءً ضافيا من الرخام وأن اليدَ الممسكة بالإفريز، تضمُّ الرداء. انتبهت هي أنه يأتي متعبا، وأنه سيصعد إلى غرفة النوم، وانتظرت بابتسامةٍ أن يصل زوجها إليها. تبادلا القبل، وقالت:

اليومَ أنهي الفتيانُ المناظر ...

ــــ أعرف، لكن لا تقولي شيئا.

اصطحبَته حتى باب غرفة النوم، ربّتت على أنفشه بإصبعٍ وتركته وحده. سيحاول النومَ قليلا قبل العشاء؛ ستفصِل غرفتُه المظلمةُ مشاغلَ النهار عن المُتع التي يتوقّعها من الليل. سمع بتعاطفٍ مثلما في الطفولة، الضجيجَ المكتوم للماكينات ونام. في الحلم رأى ضوءا ينبعث من الأباجورة ويسقط على مائدة.وكان حول المائدة رجالٌ واقفون. كان أحدهم يرتدي الفُراك ويقول: "من الضروري أن تُغيِّر مسيرةُ الدم اتجاهها؛ بدل أن تذهب من الشرايين وتأتي من الأوردة، يجب أن تذهب من الأوردة وتأتي من الشرايين". صفّق الجميع وتعجّبوا؛ عندها مضى الرجل المرتدي الفراك إلى فناءٍ، وامتطى حصانا وعند خروجه عَدوَاً، وسط التعجّبات، أطلقت حدواتُ الحصان شَرراً من الأحجار. وحين استيقظ، تذكر رجلُ المنزلِ الأسودِ الحلم، تعرّف في مسيرة الدم على ما كان

قد سمعه ذاك اليوم ذاته ــ في هذا البلد قد تُغيّر المركبات اتجاهها ــ وابتسم. بعدها ارتدى الفراك، عاودَ تذكّر رجلِ الحلم، ومضى إلى غرفة الطعام. اقترب من زوجته وبينما يضع يديه المفتوحتين على شعرها، قال:

ــ دائما ما أنسى إحضارَ عدسةٍ لأرى كيف هي النباتات التي في خُضرة هاتين العينين؛ لكنني أعرف أن لونَ الجلد تحصُلين عليه بفركِ نفسِك بالزيتون.

ربّتت زوجتُه من جديد أنفَه بسبّابتها؛ ثم غرسته في خدّه، حتى انثنى الإصبعُ مثل ساق بعوضة وأجابت:

ــ وأنا دائما ما أنسى إحضارَ مقصٍ لأسوّي لك حاجبيك! ــ. جلسَت إلى المائدة وحين رأته يخرج من غرفة الطعام سألته:

ــ هل نسيتَ شيئا؟

ــمن يدري.

عاد على الفور وفكّرت هي أنه لم يُتَح له الوقت للحديث في التليفون.

ــ ألا تريدُ أن تقول لي ماذا ذهبتَ تفعل؟

ــ لا.

ــ وأنا أيضا لن أقولَ لك ماذا فعل الرجال اليوم.

كان قد بدأ يجيبها بالفعل:

ــ لا، يازيتونتي العزيزة، لا تقولي لي شيئا حتى نهاية العشاء.

ملأ لنفسه كأسا من نبيذٍ تلقّاه من فرنسا؛ لكن كلمات زوجته كانت كأحجارٍ صغيرة تسقط في بركةٍ تحيا فيها هواجسه؛ ولم يستطع التخلي عن فكرة ما يتوقّع رؤيته تلك الليلة. كان يجمع دُمىً أطول قليلا من النساء العاديات. وفي صالونٍ ضخم كان قد أنشأ ثلاث غرفٍ من الزجاج؛ في أكبرها كانت كل الدُّمى التي تنتظر لحظة اختيارها للمشاركة في مشاهدٍ يجري توليفُها في الغرفتين الأخريين. وكانت هذه المهمة في عُهدةِ أشخاصٍ كثيرين: في المقام الأول، مؤلفي المفاتيح (في كلماتٍ قليلة كان يتوجّب التعبيرُ عن الموقف الذي تكون فيه العرائس[1] التي تظهر في كل غرفة)؛ ويتولّى فنانون آخرون تصميم المناظر، والملابس، والموسيقى، إلى

آخره. وتلك الليلة كان سيجري افتتاحُ العرض الثاني؛ سيشاهدهُ هو بينما يقوم عازف بيانو، مُديراً ظهره إليه وفي عمق الصالون، بأداء الأعمال المبرمجة. سرعان ما انتبه مالكُ المنزل الأسود إلى أنه لا يجب أن يفكّر في ذلك خلال العشاء؛ عندها أخرج من جيب الفراك نظّارة مسرحٍ وحاول التركيز على وجه زوجته.

ـــ وددتُ لو أعرف ما إذا كانت الهالات حول عينيك ناتجة عن نبتاتٍ خضراء ...

فهمت هي أن زوجها قد ذهب إلى غرفة المكتب للبحث عن النظارة فقرّرَت الاحتفاءَ بدعابته. رأي قبّةً من الزجاج؛ وحين انتبه أنها زجاجةٌ ترك النظّارة وملأ لنفسه كأسا من نبيذ فرنسا. نظرت زوجتُه إلى الفقاعات وهي تسقط في الكأس؛ كانت تنثر الدموعَ على الزجاج وتجري لتلتقي بالنبيذ الذي يتصاعد. في تلك اللحظة دخل أليكس ـــ وهو روسيٌ أبيض ذو لحيةٍ مدبّبة ـــ، انحنى أمام السيدة وقدّم لها بقولا بلحم الخنزير. قالت أنها لم تر أبدا خادما بلحية؛ فأجاب السيدُ أن ذلك كان الشرطَ الوحيد الذي اشترطه أليكس. عند ذلك كفّت هي عن النظر إلى كأس النبيذ ورأت طرف كمّ الخادم؛ من هناك كان يبرز شعرٌ كثيف يمتد في اليد ويبلغ حتى الأصابع. ولحظة تقديم الطعام لرب المنزل، قال أليكس:

ـــ لقد جاء والتر. (كان عازف البيانو).

في نهاية العشاء، أخذ أليكس الكؤوس في صينية؛ أخذت تصطدمُ ببعضها البعض وبدت سعيدةً باجتماعها من جديد. أما السيد ـــ الذي كان قد نبَت له صمتٌ ناعس ـــ فشعر بمتعة سماع صوت الكؤوس ونادى على الخادم:

ـــ قل لوالتر أن يذهب إلى البيانو. ولحظة أن أدخلَ إلى الصالون، لا يجب أن يكلّمني. والبيانو، هل هو بعيدٌ عن الفترينات؟

ـــ نعم ياسيدي، في الطرف الآخر من الصالون.

ـــ حسنا، قل لوالتر أن يجلس مُعطياً ظهرَه لي، أن يبدأ عزفَ العمل الأول من البرنامج ويكرّره دون انقطاع، حتى أُعطيه إشارةَ الضوء.

كانت زوجتُه تبتسم له. مضى ليقبّلها وترك للحظاتً وجهَه المحتقِن ملتصقا بخدّها. ثم اتجه نحو الصالة الصغيرة المجاورة للصالون الكبير. هناك بدأ يشربُ القهوة ويدخّن؛ لن يذهب لرؤية

عرائسه حتى يشعر بأنه منعزلٌ بما يكفي. في البداية ركّز انتباهه على ضجيج الماكينات وأصوات البيانو؛ بدا له أنها تأتي ممتزجةً بالماء، وأنه يسمعها كأنه يرتدي بدلةَ غطسٍ. وأخيرا أفاق وبدأ ينتبه إلى أن بعض أنواع الضجيج تريدُ أن تُوحي له بشيء؛ كأن أحدا يُصدِر نداءً خاصا بين غطيطِ أشخاصٍ كثيرين ليوقظ شخصا واحدا فقط من بينهم. لكنه حين ركّز انتباهه في تلك الأنواع من الضجيج، هربت كفئرانٍ مذعورة. ظل مُندهشا بضع لحظات ثم قرر ألاّ يبالي. وفجأةً استغرب ألاّ يجد نفسه جالسا على المقعد؛ كان قد نهض دون أن ينتبه؛ تذكر اللحظة، البالغةَ القرب، التي فتح فيها الباب، وعلى الفور وجدَ نفسَه مع الخطوات التي يخطوها الآن: والتي تأخذه إلى الفترينة الأولى. هناك أضاء نورَ المشهد ومن خلال الستارة الخضراء رأى دُميةً مُنطرحةً على فراش. أزاح الستارة وصعد إلى المنصة ـــ كانت بالأحرى خشبةَ مسرحٍ ذات عجلاتٍ مطاطية وإفريز ـــ؛ وفوقها مقعدٌ ومنضدة صغيرة؛ من هناك يطلُّ بصورةٍ أفضل على المشهد. كانت الدُميةُ مُرتديةً زي عروسٍ وعيناها المفتوحتان مصوّبتان باتجاه السقف. لم يكن معروفا إن كانت ميتةً أم تحلُم. كانت ذراعاها مفتوحتين؛ يمكن أن يكون وضع يأسٍ أو استسلامٍ هانيء. قبل فتح درج المنضدة الصغيرة ومعرفة ما هو مفتاحُ هذه العروس، أراد أن يتخيّل شيئا. ربما كانت تنتظرُ العريس، الذي لن يصل أبدا؛ ربما يكون قد هجرَها قبل لحظةٍ من عقد القران؛ أو ربما تكون أرملةً وتتذكّر يوم زفافها، كذلك ربما تكون قد ارتدت ذلك الفستان بحلم أن تكون عروسا. عندئذ فتح الدرج وقرأ: "قبل لحظةٍ من زواجها من الرجل الذي لا تحبه، تُغلقُ على نفسها، تفكر في أن هذا الفستان من أجل زواجها من الرجل الذي أحبّته، والذي لم يعد موجودا، وتسمّم نفسها. تموتُ وعيناها مفتوحتان ولم يدخل بعد أحدٌ ليغلقهما". عندها فكر صاحبُ المنزل الأسود: "حقا، كانت عروسا رائعة". وخلال بضع لحظاتٍ شعر بمتعة أن ينتبه إلى أنه حيٌّ وهي ميتة. ثم فتح بابا زجاجيا ودخل إلى المشهد لينظر إلى التفاصيل. لكن في نفس الوقت بدا له أنه يسمع، بين ضجيج الماكينات والموسيقى، بابا ينغلقُ بعنف؛ خرج من الفترينة ورأى، مشتبكا بالباب المؤدي إلى الصالة الصغيرة، قطعةً من فستان زوجته؛ وبينما يتّجه إلى هناك، على أطراف أصابعه، فكر أنها تتجسّس عليه؛ ربما أرادت أن تُدبِّر له دعابةً؛ فتح بسرعة فوقع عليه جسدُها؛ تلقّاه بين ذراعيه، لكنه بدا له خفيفا جدا وعلى الفور تعرّف على أورتنسيا، الدميةِ الشبيهة بزوجته؛ وفي الآن نفسه، نهضت زوجتُه، التي كانت مُقرفِصةً خلف مقعد، على قدميها وقالت:

ـــ أنا أيضا أردتُ أن أُعِدّ لك مفاجأة؛ بالكاد أُتيح لي الوقتُ لألبِسها فستاني.

واصلَت الحديث، لكنه لم يكن يسمعها؛ رغم كونه شاحبا، كان مُمتَنًا لزوجته على مفاجأتها؛ لم يُرد أن يُطفيء حماسَها، فقد كان يحب الدعابات التي تصنعها له بأورتنسيا. لكنه هذه المرة شعر بالاستياء. عندئذ وضع أورتنسيا بين ذراعي قرينته وقال لها أنه لا يريد أن يصنعَ فاصلا مُفرطَ الطول. بعدها خرج، أغلق الباب ومضى مُتّجها إلى حيث كان والتر؛ لكنه توقّف في منتصف الطريق وفتح بابا آخر، ذلك المؤدي إلى غرفة مكتبه؛ أغلق على نفسه، أخرج من قطعة أثاثٍ دفترا وشرع في تدوين الدعابة التي صنعتها له قرينته بأورتنسيا وتاريخها. وقبل ذلك قرأ الملاحظةَ الأخيرة. كانت تقول: "21 يوليو. اليوم، كانت ماريّا (كان اسم زوجته ماريا أورتنسيا؛ لكن كان يروقها أن تُنادَى ماريا؛ ومن ثم، حين طلب زوجُها عملَ هذه الدمية الشبيهة بها، قرّرا أن يأخذا اسم أورتنسيا ـــ كما يؤخذ شيءٌ مهمل ـــ ليكون اسم الدمية) مُطلّة من شرفةٍعلى الحديقة؛ أردتُ مفاجأتها وتغمية عينيها بيديّ؛ لكن قبل الوصول إلى الشرفة رأيت أنها أورتنسيا. كانت ماريا قد رأتني أذهب إلى الشرفة، فأتت من خلفي وقهقهت". ورغم أنه كان وحدهُ من يقرأ هذا الدفتر، فإنه كان يُوقّع الملاحظات؛ ويكتب اسمه، أوراثيو، بحروفٍ كبيرة ومثقلة بالمداد. وكانت الملاحظة السابقة على تلك تقول: "18 يوليو: اليوم فتحتُ صِوان الملابس كي آخذ بدلتي فوجدتُ أورتنسيا: كانت ترتدي بدلتي الفراك، وكانت كبيرةً عليها بشكل ظريف".

بعد تدوينالمفاجأة الأخيرة، اتجه أوراثيو إلى الفترينة الثانية؛ أصدر إشارةَ ضوءٍ لوالتر ليُغيّر العمل في البرنامج وبدأ يحرّك المنصة. خلال الفاصل الذي قضاه والتر، قبل أن يبدأ القطعةَ الثانية، أحس أوراثيو بكثافةٍ أكبر بطنين الماكينات؛ وحين حرّك المنصة بدا له أن العجلات تُصدر ضجيجَ رعدٍ بعيد.

في الفترينة الثانية كانت تظهر دميةٌ جالسةٌ على رأس المائدة. كانت رأسها مرفوعةً ويداها على جانب الطبق، حيث يصطف الكثير من أدوات المائدة. كان وضعُها واليدان فوق أدوات المائدة يدفع إلى التفكير في أنها أمام لوحة مفاتيح. نظر أوراثيو إلى والتر، رآه مائلا على البيانو وذيلا الفراك ساقطان خلف المقعد وبدا لهحيوانا مشئوما. ثم دقّق النظر إلى الدمية وبدا أنه ينتابه، مثل مراتٍ أخرى، الإحساسُ بأنها تتحرك. لم تكن هذه الحركات تنشأ دائما على الفور؛ وما كان ليتوقعها حين

تكون الدميةُ مستلقيةً أو ميتة؛ لكنها في هذه الحالة الأخيرة نشأت مبكرا بصورةٍ مبالغ فيها؛ فكر أن هذا حدث بسبب الوضع، غير المريحِ تماما للدمية؛ فقد كانت تُجبر نفسها بصورةٍ مفرطة على النظر إلى أعلى؛ وتقوم بحركاتٍ مُتأرجحة، لا تكادُ تُحسُّ؛ لكن في لحظةٍ انتزعَ فيها بصرَه من وجهها لينظر إلى يديها، أحنت هي رأسَها بطريقةٍ ملحوظة؛ فعاود هو، بدوره، رفع عينيه بسرعة إلى وجهها؛ لكن الدمية كانت قد استعادت ثباتها. عندئذ بدأ يتخيل حكايتها. كان ثوبُها والأشياءُ الموجودة في غرفة الطعام يَشِيان بالبذخ الشديد لكن الأثاثَ كان خشناً والحوائطَ من الحجر. وكان في حائطِ العمق نافذةٌ صغيرة وخلف الدمية بابٌ منخفضٌ ومُوارَبٌ كابتسامةٍ زائفة. قد تكون تلك الغرفة سجنا في قلعة، وكان البيانو يُحدِث ضجيجَ إعصارٍ وفي النافذة يظهرُ، على فتراتٍ، وميضُ بروقٍ؛ عندها تذكر أن عجلات المنصة جعلته يفكر منذ لحظاتٍ في رعدٍ بعيد؛ وأقلقته تلك المصادفة؛ وفضلا عن ذلك، قبل أن يدخل الصالون، كان قد سمع ضجيجا يُريد أن يُوحي إليه بشيء. لكنه عاد إلى حكاية الدمية: ربما كانت، في تلك اللحظة، ترجو الرب منتظرةً تحرُّرا قريبا. أخيرا، فتح أوراثيو الدرج وقرأ: "الفترينة الثانية. هذه المرأة تنتظرُ طفلا، عن قريب. الآن تحيا في فنارٍ بجوار البحر؛ ابتعدَت عن العالم لأن الناس انتقدوا غرامها مع بحار. فيكل لحظةٍ تفكر: "أريد أن يكون ابني مُستوحدا ولا يُنصتُ إلاّ إلى البحر".فكر أوراثيو: "هذه الدمية عثرَت على حكايتها الحقيقية".عندها نهضَ، فتحَ الباب الزجاجي ونظرَ مليًّا إلى الأشياء؛ بدا له أنه ينتهكُ شيئا بالغ الجدية مثل الموت؛كان يفضِّل الاقتراب من الدمية؛ أرادَ النظر إليها من موضعٍ تكون عيناها فيه مُثبّتةً في عينيه؛وبعد بضع لحظاتٍ مالَ على التعيسة الحظ وعند تقبيلها على جبهتها عاوده الشعورُ بإحساس نداوةٍ محبَّب جدا مثلما في وجه ماريا. ولم يكد يفصل شفتيه عن جبهتها حتى رأى الدمية تتحرك؛ بقي جامدا؛ بدأت هي تميلُ إلى جانبٍ بسرعةٍ مضطردة، وسقطت إلى جانب الكرسي؛ ومعها ملعقةٌ وشوكة. ظل البيانو يُحدث ضجيجَ البحر؛ واستمر الضوءُ في النوافذ والماكينات. لم يشأ أن يرفع الدمية؛ خرج متعجلا من الفترينة، ومن الصالون، ومن الصالة الصغيرة وحين وصل إلى الفناء رأى أليكس:

ـــ قل لوالتر أن هذا يكفي اليوم؛ وغدا إبلغ الفتية حتى يأتوا لتعديل وضع دمية الفترينة الثانية.

في تلك اللحظة ظهرت ماريا:

ــــ ماذا حدث؟

ــــ لا شيء، سقطت دميةٌ، دميةُ الفنار ...

ــــ كيف حدث؟ هل فعلت شيئا؟

ــــ حين دخلت لأنظر إلى الأشياء لابد أنني لمستُ المائدة ...

ـ آه! إنك تصبح عصبيا!

ــــ لا، فأنا راضٍ تماما عن المشاهد. وأورتنسيا؟ فستانُكِ ذلك ناسبَها تماما!

ــــ سيكون من الأفضل أن تذهب لتنام، يا عزيزي ــــ ردت ماريا.

لكنهما جلسا على أريكة. عانق امرأته وطلب منها أن تترك خدَّها بجوار خدِّه، للحظة، وفي صمت. وبعد برهةٍ من ضمٍّ رأسيهما، ظهرت في رأسه، ذكرى الدميتين اللتين سقطتا: أورتنسيا ودمية الفنار. وكان يعرف ما يعنيه ذلك: موتُ ماريا؛ انتابه الخوف من أن تنتقل أفكاره إلى رأسها وبدأ يقبلها في أذنيها.

حين أصبح أوراثيو وحيدا، من جديد، في ظلمة غرفة نومه، ركز انتباهه في ضجيج الماكينات وفكر في النُذُر.كان مثل خيطٍ معقّد يعترض تحذيرات مصائرٍ أخرى ويتلقى نذراً خاطئة؛ لكن هذه المرة كانت كل العلامات قد توجّهت إليه: فضجيج الماكينات وأصوات البيانو كانا يخفيان أشكال ضجيجٍ أخرى تهرُبُ مثل الفئران؛ ثم أورتنسيا، وهي تسقط بين ذراعيه، حين فتح الباب، وكأنها تقول: "احتضنّي لأن ماريا ستموت". وكانت زوجته ذاتُها من أعدّت التحذير؛ ببراءة بالغةٍ كأنها تُظهِر مرضا لم تكتشفه هي بعد. وبعدها، الدميةُ الميتة في الفترينة الأولى. وقبل الوصول إلى الثانية، ودون أن يكون مُعِدّو المناظر قد حذّروه، ضجيجُ المنصة مثل رعدٍ بعيد. مُنذِرا سلفا بالبحر وامرأة الفنار. وأخيرا انفصلت هي عن شفتيه، وسقطت، ومثل ماريا تماما، لن تبلغ حد أن يكون لها أي طفل. ثم والتر، مثل حيوانٍ مشئوم، يهز ذيول الفراك وينقُر حافةَ صندوقه الأسود.

II

لم تكن ماريا مريضةً ولم يكن ثمة سببٌ للتفكير في أنها ستموت. لكنه منذ زمن طويل كان يخافُ أن يبقى بدونها ويتخيل في كل لحظةٍ كم سيكون شقاؤه حين يظلُّ حيا بعدها. عندها خطر له أن يطلب صنعَ الدمية المطابقة لماريا. في البداية بدا أن الفكرة قد فشلت. كان يحسُّ تجاه أورتنسيا بالنفور الذي يمكن أن يثيرهُ بديلٌ. كان الجلدُ جلدَ طفلةٍ؛ كانوا قد حاولوا محاكاة لون ماريا وتضميخها بعطورها المعتادة؛ لكن حين تطلبُ ماريا من أوراثيو أن يعطي قبلةً لأورتنسيا، كان يستعدُ لعمل ذلك وهو يفكر أنه سيحسّ بطعم الجلد أو أنه سيقبّل حذاءً. لكنه بعد وقت قصير بدأ يُدرك شيئا غير متوقّع في علاقات ماريا مع أورتنسيا. ذات صباحٍ انتبه إلى أن ماريا تُغني وهي تُلبِس أورتنسيا ثيابا؛ بدت طفلةً تتسلّى بدمية. ومرةً أخرى، وصل إلى منزله عند حلول الليل فوجد ماريا وأورتنسيا جالستين إلى مائدة وأمامهما كتاب؛ ترك ذلك لديه الانطباع بأن ماريا تُعلِّم أختا لها القراءة. عند ذلك قال لها:

ـــ لابد أنك تجدين العزاء في استطاعتك أن تأتمني علي سرٍّ امرأةً صموتة إلى هذا الحد!

ـــ ماذا تريد أن تقول؟ سألته ماريا ـــ. وعلى الفور نهضت عن المائدة ومضت مُستاءةً إلى مكان آخر؛ لكن أورتنسيا بقيت وحيدة، عيناها على الكتاب كما لو كانت صديقةً تُراعي احتشاما رقيقا. تلك الليلة ذاتها، بعد العشاء وحتى لا يقترب منها أوراثيو، جلست ماريا على الأريكة التي تعودا أن يجلسا عليها ووضعت أورتنسيا إلى جانبها. عندئذ نظر أوراثيو إلى وجه الدمية وبدت له من جديدٍ غير ودّية؛ كان لها تعبيرُ ترفُّعٍ بارد وبدا أنها تنتقم من كل ما فكر فيه عن جِلدها. بعدها ذهب أوراثيو إلى الصالون. في البداية تمشّى أمام فتريناته؛ وبعد برهةٍ فتح غطاءَ البيانو الكبير، جرَّ المقعد، ووضع كرسيا ـــ حتى يستطيع أن يسند ظهره ـــ وبدأ يُمرِّر أصابعه على البيانو الطازج ذي المفاتيح البيضاء والسوداء. أجهدهُ توليف الأصوات وبدا مخمورا لا يستطيع التوفيق بين المقاطع. لكن في هذه الأثناء تذكر كثيرا من الأشياء التي يعرفها عن الدمى. كان قد أخذ يعرفها، دون رغبةٍ تقريبا؛ فحتى وقت قريب، كان أوراثيو يحتفظ بالمتجر الذي كان يُثريه. كلُّ الأيام، بعد أن ينصرف العاملون، كان يروقه أن يتمشّى وحيدا بين غبش الصالات وينظر إلى دُمى

الواجهات الزجاجية المضاءة. كان يرى الفساتين مرة أخرى، وتنزلق منه، دون قصد،نظرةٌ إلى الوجوه. كان يراقب واجهاته الزجاجية من أحد الجوانب، مثل مدير فرقةٍ مسرحية ينظر إلى ممثليه بينما يقدمون كوميديا. بعدها بدأ يجد، في وجوه الدمى، تعبيراتٍ مشابهة لتعبيرات عاملاته؛ بعضهن كن يوحين له بنفس انعدام الثقة، وأخريات بيقين أنهن ضدّه؛ كان ثمة واحدة، ذات أنفٍ مرفوع، يبدو أنها تقول: "وأنا ماذا يهمني". وأخرى، كان ينظر لها بإعجابٍ، لها وجهٌ ملغز: مثلما يناسبها فستانٌ صيفي أو فستانٌ شتوي، يمكن أيضا أن تُنسّب لها أي فكرة؛ وسرعان ما يبدو أنها تقبلها مثلما ترفضها. على أية حال، كان للعرائس أسرارها؛ إذا كان مُعِدُّ الواجهات الزجاجية يعرف كيف يوزّعها ويستفيد من ظروف كل واحدة، فإنهن، في آخر لحظة، كن دوما يُضِفن شيئا لحسابهن. حينها بدأ أوراثيو يعتقد أن العرائس مُفعمةٌ بالنذر. كن يتلقين ليل نهار، كمياتٍ هائلة من نظرات الحسد؛ وتصنع تلك النظرات أعشاشا وتُعشّش في الهواء؛وأحيانا تستقر على وجوه العرائس مثل السحب التي تتوقف فوق المناظر الطبيعية، وعند تغيير الضوء تختلط التعبيرات؛ وفي أحيانٍ أخرى تحلّق النذر نحو وجوه نساءٍ بريئات فتنقل إليها عدوى ذلك الحسد الأول؛ عندها تبدو العرائسُ كائناتٍ منومة مغناطيسيا تؤدي مهام مجهولة أو تكرِّس نفسها لمخططات خبيثة. وليلة المغاضبة مع ماريا، توصّل أوراثيو إلى نتيجة أن أورتنسيا واحدةٌ من تلك العرائس التي يمكن بشأنها التفكير في أي شيء؛ بدورها يمكنها أن تنقل النُذُر أو تتلقى الإنذارات من العرائس الأخرى. منذ أن عاشت أورتنسيا في منزله أصبحت ماريا أشد غيرة؛ حين يُكنّ تقديرا لإحدى العاملات، كان يجد في وجه أورتنسيا المعرفة بالوقائع والتوبيخ؛وفي تلك الفترة ذاتها ضايقته ماريا إلى حدٍّ أن جعلته يتخلّى عن المتجر. لكن الأمور لم تتوقف عند ذلك الحد:فقد كانت تُداهِم ماريا، بعد اللقاءات التي يصطحبها فيها، نوباتٌ من الغيرة، لدرجة أجبرته على التخلي، أيضا، عن عادة القيام بزيارات بصحبتها.

في الصباح الذي تلا المغاضبة، تصالح أوراثيو مع الاثنتين. كانت الأفكار السيئة تُداهمه في الليل وتنقشع عنه في الصباح. وكالعادة، تمشّى ثلاثتهم في الحديقة. حمل أوراثيو وماريا أورتنسيا محتضِنينها؛ وبدت هي، بفستانها الطويل، ـــ حتى لا يُعرفُ أنها امرأةٌ دون خطوات ـــ مريضةً عزيزة. (ورغم ذلك، كان السكّان المحيطون قد صنعوا خرافة يتهمون فيها الزوجين بأنهما تركا أختاً لماريا تموت ليستوليا على أموالها؛ ثم قرّرا

التكفير عن خطئهما بأن تحيا معهما عروسة، بكونها مماثلةً للمتوفّية، ستذكرهما بجريمتهما في كل لحظة).

بعد فترةٍ من السعادة، كانت ماريا تُعدّ فيها مفاجآت بأورتنسيا ويسارع أوراثيو بتدوينها في الدفتر، ظهرت ليلةُ العرض الثاني ونذيرُ موت ماريا. نجح أوراثيو في أن يشتري لزوجته فساتين كثيرة من نسيجٍ قوي ـــ فتلك التذكارات لماريا يجب أن تدوم زمنا طويلا ـــ وطلب منها أن تجرّبها على أورتنسيا. كانت ماريا راضيةً تماما وتظاهر أوراثيو بأنه راضٍ، حين خطر له أن يُقيم مأدبةَ عشاء ـــ انطلقت الفكرة، بكياسةٍ، من أوراثيو ـــ لأصدقائه، الأشد حميمية. في تلك الليلة وقعت عاصفةٌ، لكن المدعوين جلسوا إلى المائدة مرحين جدا؛ اعتقد أوراثيو أن ذلك العشاء سيُخلِّف له ذكرياتٍ كثيرة وكان يحاول إثارة مواقف غريبة. أولاً أدار في يديه السكين والشوكة ـــ مُقلِّدا راعي بقرٍ بمسدساته ـــ وهدّد فتاةً كانت إلى جواره؛ رفعت هي ذراعيها، مجاريةً دعابته؛ رأي أوراثيو إبطيها الحليقين فدغدغها بالسكين. لم تستطع ماريا أن تقاوم وقالت له:

ـــ إنك تتصرَّف كصبيٍ صغير سيء التربية، يا أوراثيو!

طلب المعذرةَ من الجميع وسرعان ما تجدَّدت البهجة. لكن عند تقديم الحلوى الأولى وبينما يصبُّ أوراثيو نبيذَ فرنسا، نظرت ماريا إلى الموضع الذي تتسعُ فيه بقعةٌ سوداء ـــ كان أوراثيو يصب النبيذ خارجَ الكأس ـــ ورافعةً يدا إلى عنقها أرادت أن تنهض عن المائدة فغابت عن الوعي. حملوها إلى غرفة نومها وحين تحسّنت قالت أنها منذ عدة أيام لا تحس أنها على ما يرام. أمر أوراثيو بإحضار الطبيبِ على الفور. قال له هذا أن على زوجته أن تعتني بأعصابها، لكنها لا تعاني من شيءٍ خطير. نهضت ماريا وودّعت ضيوفها كأن شيئا لم يحدث. لكن حين أصبحا وحدهما، قالت لزوجها:

ـــ أنا لا يمكنني أن أتحمَّل هذه الحياة؛ تحت أنفي تماما فعلت ما شئت مع تلك الفتاة ...

ـــ لكن يا ماريا ...

ـــ ولم تكتف بإراقة النبيذ لأنك تنظر إليها. ماذا يمكن أن تكونَ قد فعلتَ لها في الفناء حتى تقول لك: "أيّ أوراثيو، هذا!". Qué Horacio, éste !

ـــ لكن يا عزيزتي، قالت لي: "أيّ ساعة هذه؟". Qué hora es?

تلك الليلة ذاتها تصالحا ونامت هي وخدها ملتصقٌ بخده. بعدها أبعد رأسه ليفكر في مرضها. لكن في الصباح التالي لمسَ ذراعها فوجدها باردةً. ظل ساكنا، وعيناه مغروستان في السقف ومرت لحظاتٌ قاسية قبل أن يستطيع الصياح: "أليكس!". في تلك اللحظة انفتح الباب، وظهرت ماريا فانتبه إلى أنه لمس أورتنسيا وأن ماريا هي التي وضعتها إلى جانبه، أثناء نومه.

بعد تفكيرٍ طويل قرر أن يستدعي فاكوندو ـــ صديقه صانع الدُّمى ـــ والبحث عن طريقةٍ تدفع إلى الاعتقاد، عند الاقتراب من أورتنسيا،بالعثور فيها على حرارةٍ إنسانية. أجابه فاكوندو:

ـــ أنظر، يا أخي، هذا صعبٌ بعض الشيء؛ ستدوم الحرارةُ الوقتَ الذي يدومه الماءُ الساخن في إناءٍ فخاري.

ـــ حسنا، لا يهم؛ إفعل كما تشاء لكن لا تقل لي الطريقة. كذلك أودّ لو أنها لم تكن بهذه الصلابة، أن يكون الإحساس أكثر قبولا عند الإمساك بها ...

ـــ هذا أيضا صعبٌ. تخيّل أنك لو غرست فيها إصبعا تترك فيها فجوة.

ـــ نعم، لكن على أية حال، يمكن جعلها أكثر مرونة؛ وسأقول لك أنني لا يخيفني كثيرا العيبُ الذي تحدثني عنه.

المساء الذي أخذ فيه فاكوندو أورتنسيا، كان أوراثيو وماريا حزينين.

ـــ ما أدرانا ماذا سيفعلون بها!، ـــ قالت ماريا.

ـــ حسنا يا عزيزتي، لا يجب أن نفقد الحسَّ بالواقع. أورتنسيا كانت، ببساطة، دُمية.

ـــ كانت! تريد أن تقول أنك تعتبرُها ميتةً فعلا. وفوق ذلك أنت من يتحدث عن الحسِّ بالواقع!

ـــ أردتُ أن أواسيكِ ..

ـــ وتعتقد أن هذا الاحتقار الذي تتحدثُ به عنها يواسيني! كانت تخصّني أكثر مما تخصك. كنتُ أنا أُلبسها وأقول لها أشياءَ لا أستطيع قولَها لأحد. هل تسمع؟ وكانت هي توحّدنا أكثر مما يمكن

أن تتصور. (اتخذ أوراثيو اتجاه غرفةِ المكتب). لقد أسعدتُك مرات عديدة بإعداد مفاجآت لك بها. فيم كان احتياجك إلى "المزيد من الحرارة الإنسانية"!

كانت ماريا قد رفعت صوتَها. وعلى الفور سُمِع صوتُ ارتطام الباب الذي أغلقه أوراثيو على نفسِه في غرفة مكتبه. ما قالته ماريا عن الحرارة الإنسانية، لا يجعله موضعَ سخريةٍ فحسب بل ينزع عنه الأمل الذي يتوقّعه من أورتنسيا حين تعود. وعلى الفور تقريبا خطر له أن يخرُج إلى الشارع. وحين عاد إلى منزله، لم تكن ماريا موجودة؛ وحين عادت تظاهر الاثنان، لبرهة، بمتعة لقاءٍ غير متوقّعة. ذاك المساء لم ير عرائسه. وفي اليوم التالي، صباحا، كان مشغولا؛ وبعد الغداء تمشّى مع ماريا في الحديقة؛ كانت لدى الاثنين فكرة أن غياب أورتنسيا هو شيءٌ مؤقت ولا يجب أن يُبالغا في الأمور؛ فكر أوراثيو أن من الأكثر بساطةً وطبيعيةً، بينما يتمشيان، أن يحتضن ماريا وحدها. شعر الاثنان بأنهما خفيفان، ومبتهجان، وعاودا الخروج. لكن نفس ذاك اليوم، قبل العشاء، ذهب يبحث عن زوجته في غرفة النوم واستغرب أن يلتقي، ببساطةٍ، معها. للحظةٍ كان قد نسي أن أورتنسيا غير موجودة؛ وهذه المرة، سبّب له غيابُها ضيقا غريبا. قد تكون ماريا، مثلما من قبل، امرأةً دون دمية؛ لكن الآن لم يمكنه التسليم بفكرة ماريا دون أورتنسيا؛ كان في استسلام المنزلِ كلِّه واستسلام ماريا إزاء الفراغ الذي تتركه الدُمية، شيءٌ من الجنون. وفضلا عن ذلك، كانت ماريا تذرعُ غرفة النوم من جانب إلى آخر وبدا أنها في تلك اللحظات لا تفكر في أورتنسيا؛ وكانت تُرى في وجه ماريا براءةَ مجنونٍ نسي أن يرتدي ثيابَه ويمضي عاريا. بعدها ذهبا إلى غرفة الطعام وبدأ هو يحتسي نبيذَ فرنسا. نظر إلى ماريا عدة مرات في صمتٍ وأخيرا ظنَّ أنه وجد فيها فكرة أورتنسيا. عندها فكر فيما تمثّله الواحدة بالنسبة للأخرى. دائما حين يفكر في ماريا، كان يتذكرها بجوار أورتنسيا تهتم بترتيبها، بكيف ستُجلسها وبألاّ تسقط؛ وبالنسبة له، بالمفاجآت التي تُعدّها له. إذا كانت ماريا لا تعزفُ البيانو ــ مثل حبيبة فاكوندو ــ فقد كانت لديها أورتنسيا بالمقابل وعن طريقها كانت تُطوِّر شخصيتَها على نحوٍ أصيل. وخصمُ أورتنسيا من ماريا بمثابة خصمِ الفنِ من فنان. فلم تكن أورتنسيا مجرد طريقةٍ لوجود ماريا بل كانت سِمتُها الأشدَّ إبهاجا؛ وتساءل هو كيف استطاع أن يحب ماريا حين لم تكن لديها أورتنسيا. ربما كان يُعبِّر عنها في تلك الفترة بحقائق أخرى أو بطريقةٍ أخرى. لكن منذ بعض الوقت، حين كان يمضي للبحث عن ماريا ليقابل ماريا،

ببساطة، كانت تبدو له تافهةً تفاهةً مُقلقة. وعلاوة على ذلك، ـــ واصل أوراثيو احتساء نبيذ فرنسا ـــ كانت أورتنسيا عقبةً غريبة؛ ويمكنه القول أنه أحيانا ما يتعثّر في أورتنسيا ليسقط فوق ماريا.

بعد العشاء قبّل أوراثيو خدّماريا النضر ومضى ليرى فتريناته. كان في إحداها كرنفال. كانت دُميتان، سمراء وشقراء، ، متنكرتين كابنتي بلدٍ من مدريد ترتديان قِناعا وتتكئان على إفريزٍ ذي أعمدة رخامية. كان على اليسار سُلّم؛ وعلى درجاته؛ شرائط ورق ملتفّة، ووجوه، وأقنعة وبعض الأشياء الملقاة كأنما بإهمال. كان المشهدُ غارقا في الغَبَش؛ وعلى الفور ظن أوراثيو أنه يتعرّف، في الدمية السمراء، على أورتنسيا. ربما حدث أن تكون ماريا قد بعثت لتُحضرها من عند فاكوندو وأعدّت له هذه المفاجأة. قبل أن يواصل النظر فتح أوراثيو الباب الزجاجي، وصعد السلم ، وطأ وجهاً؛ ثم التقطه وقذفه خلف الإفريز. منحته إيماءتُه هذه حساً ماديا بالأشياء المحيطة به ونزعت عنه الوهم. مضى إلى المنصة وسمع باستياء ضجيجَ الماكينات مُنفصلاً عن أصوات البيانو. لكن بعد مرور بضع لحظاتٍ نظر إلى الدميتين وخطر له أنهما امرأتان تحبّان نفسَ الرجل. عندها فتح الدرج وعرف المفتاح: "المرأة الشقراء لها خطيبٌ. وقد اكتشف هو، منذ بعض الوقت، أنه في الحقيقة يحب صديقةَ خطيبته، السمراء، وأعلن ذلك. السمراء أيضا تُحبه؛ لكنها تُخفي ذلك وتحاول إثناء خطيب صديقتها. يُصرُّ هو؛ وفي ليلة الكرنفال يعترف لخطيبته بحبه للسمراء. والآن هي اللحظةُ الأولى التي تلتقي فيها الصديقتان وكلتاهما تعرفان الحقيقة. لم تتحدثا بعد وتظلان برهةً طويلةً مُقنَّعتين وصامتتين". أخيرا أصاب أوراثيو في تخمين المفتاح: الصديقتان تحبان نفس الرجل؛ لكنه على الفور فكر أن صدفةَ أنه أصابَ تعني نذيراً أو تحذيرا من شيءٍ يحدث فعلا: هو بوصفه خطيبا للدميتين، ألا يكون عاشقا لأورتنسيا؟ جعله هذا الشك يحومُ حول دُميته ويتوقف عند هذه الأسئلة: ماذا تملك أورتنسيا حتى يكون قد وقع في حبها؟ هل كان يشعر تجاه العرائس بإعجابٍ فنيّ خالص؟ هل ستكون أورتنسيا مجرد عزاءٍ حين يفقدُ زوجته؟ وهل سيُسلم نفسه دائما لتشوُّشٍ يمنح الأفضلية لماريا؟ كان ضروريا بصورةٍ مطلقة أن يعاود التفكير في شخصية العرائس. لم يشأ أن يُسلم نفسه لتلك التأملات في نفس غرفة النوم التي تكون بها زوجته. نادى على أليكس، جعله يصرفُ والتر وبقي وحده مع ضجيج الماكينات؛ وقبلها طلب من الخادم زجاجةً من نبيذ فرنسا. بعدها بدأ يتمشّى، وهو يدخن بطول الصالون. وحين وصل إلى المنصة تناول القليل من

النبيذ؛ ثم استأنف على الفور تمشيته متأملا: "إذا كان ثمة أرواحٌ تتردد على المنازل الخاوية، لماذا لا يمكنها التردد على أجساد العرائس". عندها فكّر في قلاعٍ مهجورة، حيث الأثاث والأشياء، موحدةً تحت أقمشةٍ سميكة، تنام خوفا ثقيلا: وليس مستيقظا سوى الأشباح والأرواح التي تتآلف مع تحليق الخفافيش ومع الجلبة الآتية من سدود المياه ...في هذه اللحظة ركز انتباهه في ضجيج الماكينات وسقط الكأسُ من يديه. كانت رأسه مرفوعةً. اعتقد أنه فهم أن الأرواح دون أجسادٍ تصطاد ذلك الضجيج الذي يمضي طليقا في العالم، أنها تعبّر عن نفسها بواسطته وأن الروح التي تسكن جسدَ أورتنسيا تتفاهمُ مع الماكينات. أراد أن يوقف هذه الأفكار فركز انتباهه في الارتجافات التي انتابت جسدَه. ترك نفسه يسقطُ على المقعد ولم يجد مناصا من مواصلة التفكير في أورتنسيا: عن حقٍ ذات ليلةٍ مقمرة، كانت قد وقعت أشياء غير مفهومةٍ تماما. كانا في الحديقة وفجأة أراد الجري وراء زوجته؛ ضحكتْ ومضت لتختبيء خلف أورتنسيا ــ انتبه جيدا أن ذلك لا يعادلُ الاختفاءَ خلف شجرةٍ ــ وحين همّ بتقبيل ماريا من فوق كتف أورتنسيا، تلقّى وخزةً هائلة.وعلى الفور سمع بعنفٍ ضجيج الماكينات: كانت تُعلن له دون شكٍ أنه لا يجب أن يقبّل ماريا من فوق أورتنسيا. لم تستطع ماريا تفسيرَ كيف أمكنها أن تترك إبرةً في فستان الدمية. وكان هو أحمقا بحيث اعتقد أن أورتنسيا مجرد زينةٍ لماريا، بينما كانت الاثنتان تحاولان في الحقيقة تزيين بعضهما بشكلٍ مُتبادل. بعدها عاود التفكير في الضجيج. منذ زمن طويل ظل يعتقد أن الضجيج وكذلك الأصوات لهما حياةٌ خاصة بهما وينتميان إلى عائلاتٍ مختلفة. كان ضجيج الماكينات عائلةً نبيلة وربما لهذا السبب اختارته أورتنسيا للتعبير عن حبٍ ثابت. تلك الليلة كلّم فاكوندو تليفونيا وسأله عن أورتنسيا. قال صديقه أنه سيرسلُها قريبا جدا وأن فتيات الورشة قد ابتكرن طريقة ... هنا قاطعه أوراثيو قائلا أنه يريد أن يجهَل أسرار الورشة. وبعد أن وضع السماعة شعر بمتعةٍ خفيةٍ جدا عند تفكيره في أن فتياتٍ هن من سيضعن شيئا منهن في أورتنسيا.وفي اليوم التالي انتظرته ماريا على الغداء، محتضنةً أورتنسيا من وسطها. وبعد أن قبّل أوراثيو زوجته، أخذ الدميةَ بين ذراعيه وولحظةٍ، منحته طراوةُ وحرارةُ جسدها السعادة التي كان يتوقعها؛ لكنه حين وضع شفتيه على شفتي أورتنسيا بدا له أنه يقبّل شخصا مُصابا بالحمّى. ورغم ذلك فإنه، بعد برهة قليلة، كان قد تعود على تلك الحرارة وشعر بالارتياح.

تلك الليلة ذاتها، بينما يتعشّى، فكّر: هل يجب أن ينشأ تقمُّص الأرواح بين أشخاصٍ وحيواناتٍ فقط؟ ألم يكن ثمة محتضرين سلّموا أرواحهم، بأيديهم ذاتها إلى شيءٍ عزيز؟وفضلا عن ذلك، ألا يمكن أن يكون قد حدث عن طريق الخطأ أن تختبيء روحٌ في دميةٍ تشبه امرأةً جميلة. ثم ألا يمكن أن يكون قد حدث أن روحا، راغبةً في العودة لسكنى جسد، أرشدت أيدي من يصنعُ دميةً معينة؟ حين يتتبّع أحدٌ فكرةً تخصّه، ألا يُدهشه أن يجد نفسَه مع شيءٍ لم يكن يتوقعه وكأنما ساعده شخصٌ آخر؟ بعدها فكر في أورتنسيا وتساءل: لمن يمكن أن تكون الروحُ التي تحيا في جسدها؟ تلك الليلة كانت ماريا في مزاجٍ سيء. كانت تتشكّى من أورتنسيا، بينما تُلبِسها ثيابها، لأنها لا تظلُّ ساكنة: كانت تميلُ إلى الأمام؛ والآن، مع الماء، كانت أثقل. فكر أوراثيو في علاقات ماريا وأورتنسيا وفي الظلال الغريبة للعداوة التي رآها بين نساءٍ صديقاتٍ صدوقاتٍ حقا لا يمكن لإحداهن أن تمضي دون الأخرى. في نفس الوقت تذكر أن هذا يحدث كثيرا بين الأم والإبنة ... بعدها بلحظات رفع رأسه عن الطبق وسأل زوجته:

ــ قولي لي شيئا، يا ماريا،كيف كانت أمّكِ؟

ــ والآن ما مناسبة هذا السؤال؟ أتريد أن تعرف العيوبَ التي ورثتُها عنها؟

ــ أوه! ياعزيزتي، إطلاقا!

قيل هذا بطريقةٍ هدّأت من روع ماريا، فقالت:

ــ أنظر، كانت مختلفةً تماما عني، كانت ذات هدوءٍ مذهل؛ كانت قادرةً على قضاء ساعات على كرسي دون حركة وعيناهافي الفراغ.

"رائع"، قال أوراثيو لنفسه. وبعد أن احتسى كأسا من النبيذ، فكر: ألا يكون ممتعا جدا، رغم ذلك، أن أدخل في غرامٍ مع روح حماتي في جسد أورتنسيا.

ــ وماذا كان مفهومها للحب؟

ــ ألا يناسبك مفهومي؟

ــ لكن يا ماريا، من فضلكِ!

ـــ لم يكن لديها أيُّ مفهوم. وبفضل ذلك استطاعت أن تتزوج أبي حين طلب منها جدّاي ذلك؛ كان هو ثريا؛ وكانت هي رفيقةً عظيمة له.

فكر أوراثيو: "هكذا أفضل؛ لن يكون عليّ أن أشغل نفسي بهذا أكثر". رغم كون الوقتِ ربيعا، بردَ الجوُ تلك الليلة؛ وضعت ماريا الماءَ الساخن لأورتنسيا، وألبستها قميصَ نومٍ حريري ومدّدتها معهما كأنها قِربة. وقبل أن يغرق أوراثيو في النوم انتابه الإحساس بأنه مغمورٌ في بحيرةٍ فاترة؛ وبدت له سيقان ثلاثتهم جذورا مشتبكة لأشجارٍ متجاورة: كانت مختلطةً بين المياه وكسل هو عن التحقق من أيها كانت سيقانه.

III

بدأ أوراثيو وماريا الإعدادَ لاحتفالٍ من أجل أورتنسيا. ستُكمِل العامين. خطر لأوراثيو أن يُقدّمها على عربةٍ ذات ثلاث عجلات؛ قال لماريا أنه رأى ذلك في اليوم المكرّس لآلاتِ السفر وأنه واثقٌ من تحقيقه. لم يقل لها، أنه منذ أعوامٍ طويلة، رأى فيلما يغتصبُ فيه خطيبٌ خطيبته في عربةٍ ذات ثلاث عجلات وأن تلك الذكري دفعته إلى استخدام تلك الطريقة مع أورتنسيا. نجحت التدريبات. في البداية كان صعبا على أوراثيو أن يحرّك العربة ذات الثلاث عجلات؛ لكن ما إن استطاع تحريك العجلة الأمامية الكبيرة، حتى طار الجهاز. ويوم الاحتفال كان البوفيه مفتوحا منذ اللحظة الأولى؛ تصاعد الطنينُ بسرعة واختلطت التعجُّبات الصادرة من حناجر الأشخاص ومن أعناق الزجاجات. وحين شرع أوراثيو في تقديم أورتنسيا، رنَّ في الفناءِ الكبير جرسُ مدرسةٍ فذهب الضيوفُ نحوه بكؤوسهم. وعبر ممرٍ طويل مكسو بالسجاد رأوا أوراثيو قادما يصارعُ مع العجلةِ الكبرى لعربته ذات الثلاث عجلات. في البداية لم يكن يُرى الكثير من العربة؛ ولم يكن يُرى من أورتنسيا التي تأتي خلف أوراثيو سوى الفستان الكبير الأبيض؛ بدا أن أوراثيو يأتي في الهواء محمولاً على سحابة. كانت أورتنسيا مستندةً على المحور الذي يربط بين العجلتين الخلفيتين الصغيرتين وذراعاها ممتدتان إلى الأمام ويداها موضوعتان في جيبي بنطلون أوراثيو.

توقفت العربة ذات الثلاث عجلات في وسط الفناء وظل أوراثيو، بينما يتلقى التصفيق والهتاف، يربّت بإحدى يديه، على شعر أورتنسيا. ثم عاودَتحريكَ بَدّال الجهاز بقوة؛ وحين مضيا من جديد عبر ممر السجاد واكتسبت العربة ذات الثلاث عجلات سرعتها، نظر إليه الجميع لحظةً في صمت وخطرت لهم فكرة الطيران. ونظرا للنجاح، عاد أوراثيو من جديد في اتجاه الفناء؛ ومن جديد بدأ التصفيق والضحكات؛ لكن فور أن دخلا الفناء خرجت من العربة ذات الثلاث عجلات عجلةٌ جانبية. صدرت صرخاتٌ، لكن حين رأوا أن أوراثيو لم يؤذِ نفسَه، بدأت مرة أخرى الضحكات والتصفيق. سقط أوراثيو فوق أورتنسيا وساقاه إلى أعلى بينما يقوم بحركات حشرةٍ. ضحك الزوار حتى الدموع؛ وقال له فاكوندو، وهو لا يكاد يستطيع الكلام:

ـــ يا أخي، تبدو كأنك لعبةٌ بخيوطٍ تتشقلبُ وساقاها إلى أعلى وتواصل السير!

على الفور عاد الجميع إلى غرفة الطعام. كان الفتيان الذين عملوا في مشاهد الفترينات قد أحاطوا بأوراثيو وطلبوا أن يُعيرهم أورتنسيا والعربة ذات الثلاث عجلات لتوليف مفتاحِ حكايةٍ. رفض أوراثيو لكنه كان راضيا تماما ودعاهم للذهاب إلى صالة الفترينات لتناول نبيذ فرنسا.

ـــ لو قلت لنا حضرتك بماذا تشعر، حين تكون أمام مشهد، ـــ قال له أحد الفتيان ـــ أعتقد أن هذا سيثري خبراتنا.

بدأت قدما أوراثيو تتأرجحان، نظر إلى أحذية أصدقائه وفي النهاية قرر أن يقول لهم:

ـــ هذا أمرٌ بالغ الصعوبة ... لكنني سأحاول. بينما أبحث عن طريقةٍ للتعبير عن نفسي، أرجوكم ألاّ توجّهوا لي أي أسئلةٍ أخرى وأن ترضوا بما يمكنني أن أنقله لكم.

ـــ موافقون، ـــ قال واحدٌ منهم، أصمٌّ بعض الشيء، وهو يضع يدا خلف أذنه.

أخذ أوراثيو بضع لحظاتٍ أخرى؛ ضمَّ وأبعد يديه المفتوحتين؛ ثم حتى تبقيا هادئتين، شبك ذراعيه وبدأ:

ـــ حين أنظر إلى مشهد ... ـــ هنا توقّف ثم واصل خطابه على الفور مستطردا ـــ : (واقع رؤية العرائس في فترينات بالغُ الأهمية بسبب الزجاج: فهذا يعطيها نوعا من خاصية الذكرى؛ من قبل، حين كنت أستطيعُ رؤية المرايا ـــ الأن توذيني، لكن سيطول

شرح السبب ـــ كان يروقُني أن أرى الغُرفَ التي تظهر في المرايا). حين أنظرُ إلى مشهدٍ يبدو لي أنني أكتشف ذكرى كانت بها امرأةٌ في لحظةٍ مهمة من حياتها؛ إنه شيءٌ ـــ أعذروا طريقة قوله ـــ من قبيل فتح شقٍ في رأسها. من ثم أبقى مع تلك الذكرى كأنني أسرقُ منها قطعة ثيابٍ حميمة؛ وبها أتخيل واستنتج أشياءَ كثيرة ويمكن حتى القول أنني حين أتفحّصها ينشأ لدي الانطباع بأنني أنتهك شيئا مقدّسا؛ وعلاوة على ذلك، يبدو لي أن تلك ذكرى بقيت داخل شخصٍ ميت؛ ولدي أملُ أن استخرجها من جثة؛ وأتمنى حتى أن تتحرك الذكرى قليلا ... هنا توقف؛ لم يتشجع ليقول لهم أنه قد باغت الكثير من الحركات الغريبة ...

ظل الفتيانُ صامتين بدورهم. خطر لأحدهم أن يرتشف كلَّ النبيذ الباقي في كأسه فقلَّده الآخرون. بعد برهة سأل آخر:

ـــ قل لنا شيئا، من نوعٍ آخر، عن تفضيلاتك الشخصية، مثلا.

ـــ آه!، ـــ أجاب أوراثيو ـــ لا أظن أن هنا شيئا يمكن أن يفيدكم بشأن المشاهد. يروقني، مثلا، أن أسير على أرضيةٍ من الخشب فوقها سكرٌ منثور. تلك الجلبة الصغيرة ...

في تلك اللحظة جاءت ماريا لتدعوهم إلى القيام بجولةٍ في الحديقة؛ كان قد خيّم الليلُ الحالك وعلى كل واحد أن يحمل مشعلا صغيرا. أعطت ماريا ذراعها لأوراثيو؛بدآ المسيرة وطلبا من الآخرين أن ينتظما أيضا في أزواج. قبل الخروج، وعند الباب المؤدي إلى الحديقة، كان كلُّ واحدٍ يتناول المشعلَ الصغير من منضدةٍ ويُشعله من مصدرٍ للهب على منضدة أخرى. وعند رؤية وميض المشاعل، أطلَّ الجيرانُ من فوق الحاجر المنخفض للحديقة وظهرت وجوههمبين الأشجار مثل فاكهةٍ تثير الشك. وسرعان ما عبرت ماريا حوضَ نباتات، وأضاءت أضواء موضوعةً في شجرةٍ بالغة الضخامة، وفي أعلى قمّتها، ظهرت أورتنسيا. كانت مفاجأةً من ماريا لأوراثيو. أصدر المدعوون صيحات تعجّب وتحية. كان على صدر أورتنسيا مروحةٌ بيضاء مفرودة وخلف المروحة، ضوءٌ يعطي انعكاسات مصابيحٍ صغيرة. أعطى أوراثيو ماريا قبلةً وشكرها على المفاجأة؛ بعدها، وبينما يتسلّي الآخرون، انتبه أوراثيو إلى أن أورتنسيا تنظر صوب الطريق الذي يأتي منه دائما. وحين مرّا بجوار الحاجز المنخفض، سمعت ماريا شخصا بين الجيران يصيح بآخرين يأتون من بعيد: "أسرعوا، فقد ظهرت المتوفاةُ فوق شجرة". حاولا العودة سريعا إلى داخل المنزل وشربا نخب مفاجأة أورتنسيا. أمرت ماريا التوأمتين ـــ وهما خادمتان أختان ـــ أن تُنزِلاها من الشجرة وتضعا لها الماءَ الساخن. كانت قد انقضت ساعةٌ بعد جولة

الحديقة، حين بدأت ماريا تبحث عن أوراثيو؛ وجدته من جديد مع الفتيان في صالون الفترينات. كانت شاحبةً وانتبه الجميع إلى أن شيئا خطيرا قد حدث. استأذنت ماريا الفتيانَ وأخذت أوراثيو إلى غرفة النوم. هناك كانت أورتنسيا بسكينٍ مغروس تحت ثديها والماءُ ينبثق من الجرح؛ كان فستانها مُبتلا وقد بلغ الماءُ الأرضية. أما هي، فكانت، كالعادة، جالسةً في كرسيها وعيناها الكبيرتان مفتوحتان؛ لكن ماريا لمست ذراعها ولاحظت أنها تبرد.

ــــ من يمكنُ أن يكون قد تجاسر على الوصولِ إلى هنا وفعلِ هذا؟ ــــ، سألت ماريا متكئة على صدر زوجها في نوبة دموع.

بعد برهةٍ قصيرة انقضت النوبةُ وجلسَت على كرسي لتفكر فيما ستفعله. عندئذ قالت

ــــ سأطلب الشرطة.

ــــ لكن هل أنت مجنونة؟ ــــ جاوبها أوراثيو ــــ. بهذه الطريقة سنُهين كلَّ ضيوفنا بجريرةِ ما يكونُ قد فعلَهُ واحد؟ وستطلبين الشرطة لتقولي لهم أن دميةً قد تلقت طعنةً ويسيل منها الماء؟ تتطلب الكبرياء ألاّ نقول شيئا؛ من الضروري أن نعرف كيف نخسر. سنعطيها من جديدٍ لفاكوندو ليُصلِحها وينتهي الموضوع.

ــــ أنا لا أُسلِّم بهذا، ــــ قالت ماريا ــــ، سأستدعي مُحقِّقا خاصا. لا يجب أن يلمسها أحدٌ؛ على مقبض السكين لابد أن تكون بصماتُ الأصابع.

حاول أوراثيو تهدئتها وطلب منها أن تذهب لترعى ضيوفها. اتفقا على أغلاق الباب بالمفتاح على الدمية، كما كانت. لكن أوراثيو، فور أن خرجت ماريا، أخرج المنديلَ من جيبه، وبلّله بالحامِض ومرَّرهُ على مِقبضِ السكين.

IV

تمكن أوراثيو من إقناع ماريا بأن من الأفضل التزامُ الصمت بشأن طعنة أورتنسيا. ويوم أن جاء فاكوندو ليأخذها، أحضر معه لويسا، حبيبَته. مضت هي وماريا إلى غرفة الطعام وشرعتا تتحادثان كأنهما تفتحان بابي قفصين، الواحدَ أمام الآخر لتختلطَ الطيورُ؛ كانتا معتادتين على التحدث والاستماع في الآن نفسه. أما أوراثيو وفاكوندو فأغلقا عليهما غرفة المكتب؛ وكانا يتحدثان بصوتٍ خفيض، كل واحدٍ بدوره كأنهما يشربان، بالدور، من نفس الإبريق. قال أوراثيو:

ــ كنتُ أنا من طعنَها: كان ذلك ذريعةً لإرسالها إلى منزلك دون أن يكون معروفا بالضبط، لأي غرض.

بعدها ظل الصديقان صامتين مطأطئي الرأس. انتاب ماريا الفضولُ لمعرفة ما يتحادث فيه الرجلان؛ تركت لويسا للحظة ومضت تتنصّت على باب غرفة المكتب. ظنت أنها تعرّفت على صوت زوجها، لكنه كان يتحدث كمن فقد صوته فلم تفهم منه شيئا. (في تلك اللحظة كان أوراثيو، ورأسه مطأطئة على الدوام، يقول لفاكوندو: "سيكون جنونا؛ لكنني أعرفُ عن نحّاتين وقعوا في غرام تماثيلهم"). وبعد برهةٍ مرّت ماريا من هناك من جديد؛ لكنها لم تسمع من زوجها سوى كلمة***ممكن***؛ ثم نفس الكلمة من فاكوندو. (في الحقيقة، كان أوراثيو قد قال: "لابد أن هذا ممكن". فأجاب فاكوندو: "سأفعل كل ما هو ممكن").

ذات مساء انتبهت ماريا أن أوراثيو غريب.كان ينظرُ إليها بإصرارٍ ودّي ثم فجأةً يُبعِد رأسه عن رأسها بعنف ويظل مهموما. في إحدى مرات عبوره الفناء، نادته، ومضت للقائه وقالت له، مُطوِّقةً عنقَه بذراعيها:

ــ أوراثيو، أنت لا تستطيع أن تخدعني أبدا؛ أنا أعرف ماذا بك.

ــ ماذا؟ ــ أجاب هو فاتحاً عيني مجنون.

ــ أنت هكذا بسبب أورتنسيا.

أصبح شاحبا:

ــ لكن لا، يا ماريا؛ أنتِ على خطأٍ جسيم.

واستغرب ألاّ تضحكَ هي إزاء نغمةِ الصوت التي خرجت بها تلك الكلمات.

ـــ نعم ... يا عزيزي ... إنها الآن مثل ابنتنا، ـــ واصلت ماريا القول.

ترك عينيه لبرهةٍ فوق وجه زوجته وأتيح له الوقت للتفكير في أشياء كثيرة؛ نظر إلى كل ملامحها كأنه يتفقّد أركانَ موضعٍ ظل يرتاده كل يوم خلال حياةٍ سعيدة؛ وأخيرا انفصل عن ماريا وذهب ليجلس في الصالة الصغيرة ويفكر فيما حدث للتو. في البداية، حين اعتقد أن زوجته قد اكتشفت تفاهمه مع أورتنسيا، خطرت له فكرة أنها ستغفِرُ له؛ لكن عند النظر إلى ابتسامتها فهم الطيشَ الهائل لافتراضِ أن تعرف ماريا مثل هذه الخطيئة وتغفِرها. كان لوجهها سكونُ بعض المناظر الخلوية؛ كان على أحدِ الخدِّين قليلٌ من الضوء الذهبي لأواخر المساء؛ وعلى جزءٍ من الخدِّ الآخر يمتد ظلُّ الجبلِ الصغير الذي يصنعُه أنفها. فكر في كل الطيبة الباقية في براءةِ العالم وفي عادةِ الحب؛ وتذكّر الرقَّة التي كان يتعرف بها على وجه امراته في كل مرةٍ يعود فيها من مغامراته مع عرائسه. لكن خلال بعض الوقت، حين تعرفُ امرأته أنه لا يُكنُّ لأورتنسيا إعزازَ الأب بل يريد أن يجعل منها حبيبةً، حين تعرف ماريا كلَّ الاهتمام الذي بذله في تنظيم خيانته، عندئذ، ستتمزّق كل أرجاء وجهها؛ لن تستطيع ماريا فهم كل الشرِّ الذي صادفته في العالم وفي عادة الحب؛ لن تتعرف على زوجها وسيصيبها الرعبُ بالجنون.

ظل أوراثيو ينظر إلى بقعة شمسٍ على كمٍّ سترته؛ وحين سحب كمّه انتقلت البقعةُ إلى فستان ماريا كأنهاعدوى؛ وحين انفصل عنها وبدأ يخطو نحو الصالة الصغيرة، بدت أعضاؤه في حالة اختلاطٍ، ساقطةً وثقيلة بصورةٍ لا تحتمل. وعند جلوسه على أريكةٍ صغيرة في الصالة الصغيرة، فكر أنه ليس جديرا بأن تستقبله نعومةُ قطعةِ أثاثٍ أليفةٍ وشعر بعدم ارتياحٍ بالغ كأنه سقط على شخصٍ شاب. كان هو أيضا مجهولا من نفسه ذاتها وتلقَّى خيبة أملٍ ضخمة حين اكتشف المادةَ التي صُنع منها. بعدها ذهب إلى غرفة نومه، واستلقى متغطيا حتى رأسه وعلى عكس ما كان يعتقد، سقط في النوم على الفور.

تحدثت ماريا تليفونيا إلى فاكوندو.

ـــ أنصت، يا فاكوندو، تعجّل في إحضار أورتنسيا لأن أوراثيو سيمرض لو لم تفعل.

ــــ سأقول لك شيئا، يا ماريا؛ الطعنة أصابت قنواتٍ بالغة الأهمية لدورة الماء؛ لا يمكن أخذُ الأمور باستخفاف؛ لكنني سأفعل ما يمكن لإحضارها إليكِ في أقرب وقت.

استيقظ أوراثيو بعد برهةٍ قصيرة؛ جاءت عينُه أمام جرفٍ صغير صنعته الأغطية ورأى عن بعد، على الحائط، صورة أبويه: لقد زيّفا: فهو مثل خزانةٍ بدل أن يضعا فيها ثروةً، تركا زنبركاتٍ بائسة؛ وكانا، أبويه، مثل قاطعي طريقٍ هربا قبل أن يكبر هو ويكتشفَ الخدعة. لكن على الفور بدت له هذه الأفكارُ بشعةً. بعدها ذهبَ إلى المائدة وحاول أن يتصرّف جيدا أمام ماريا. قالت له:

ــــ نبّهتُ على فاكوندو أن يُحضِر أورتنسيا سريعا.

لو عرفَت، قال أوراثيو لنفسه، أنها تُسهم، باستعجالها لحظة إحضار أورتنسيا، في متعةٍ تخصّني ستكون هي خيانتي وجنونَها! أدار وجهه من أحد جانبي المائدة إلى الآخر دون أن يرى شيئا مثل حصانٍ يبحث برأسه عن مخرج.

ــــ هل ينقصُ شيء؟، ــــ سألت ماريا.

ــــ لا، ها هي، ــــ قال وهو يأخذ المستردة.

فكرت ماريا أنه إن كان لم يرها، وهو بالغُ القربِ منها، فذلك لأنه في حالةٍ سيئة.

في النهاية نهض، ومضى حتى امرأته وبدأ يميلُ ببطء، حتى لمست شفتاه خدّها؛ بدا أن القبلة هبطت بالمظلّةِ على سهلٍ مازالت توجد فيه السعادة.

تلك الليلة، في الفترينة الأولى، كانت دميةٌ جالسة على نجيل حديقة؛ كانت مُحاطةً بقطع إسفنجٍ كبيرة، لكن وضعها كان وضعَ من تجلس بين الزهور. لم يشأ أوراثيو التفكير في مصير تلك الدمية ففتح الدرج الصغير الذي به مفاتيحُ الحكايات: "هذه المرأة مريضةٌ عقليا؛ لم تستطع استقصاءَ السببِ في أنها تحبُّ قطعَ الإسفنج". قال أوراثيو لنفسه: "حسنا أنا أدفعُ لهم ليستقصوا". وبعد برهة فكر بمرارة: "لابد أن قطع الإسفنج تلك ترمزُ لضرورة غسل خطايا كثيرة". وفي الصباح التالي استيقظ بجسدٍ محطَّم وتذكر من هو، الآن. بدا له اسمه ولقبه مختلفين وتخيّلهما مكتوبين على شيكٍ بدون رصيد. كان جسده حزينا؛ وكان قد حدث له شيءٌ مشابه، ذات مرة قال له فيها طبيبٌ أن دمه ضعيفٌ وقلبه صغير. ورغم ذلك انقشع عنه ذلك الحزن. الآن حرك ساقيه وفكر: "من قبل، حين كنتُ

شابا، كانت لدي حيوةٌ أكثر للدفاع عن نفسي ضد الحسرات: كان يهمّني أقل كثيرا الإيذاء الذي يمكن أن أسبِّبه للآخرين. والآن هل يكون لدي ضَعفُ السّن؟ لا، لابد أنه تطورٌ مُتأخِّر للمشاعر وللخجل". نهض مرتاحا جدا؛ لكنه كان يعرف أن الحسرات ستكون مثل سحبٍ مدفوعة صوب موضعٍ ما من الأفق وأنها ستعودُ مع الليل.

V

قبل أيامٍ قليلة من إحضار أورتنسيا، اصطحبت ماريا أوراثيو ليتمشّي؛ أرادت الترويحَ عنه؛ لكنها في الوقت ذاته فكرت أنه حزينٌ لأنها لا تستطيع أن تنجب طفلةً حقيقية. ومساءَ أن أحضروا أورتنسيا لم يكن بالغَ التعلّقِ بها وعاودت ماريا التفكيرَ في أن حزن أوراثيو لم يكن بسبب أورتنسيا؛ لكن قبل لحظة من العشاء رأت أن لدى أوراثيو عاطفةً مكبوتةً تجاه أورتنسيا وبقيت هادئة. وقبل أن يمضي هو لرؤية عرائسه،ذهب ليقبّل ماريا؛ أخذ ينظرُ إليها عن قُرب، وعيناه مفتوحتان عن آخرهما كأنه يودّ التأكد من عدم وجود شيءٍ غريبٍ مخبّأٍ في أي موضعٍ من وجهها. كانت قد انقضت عدة أيامٍ دون أن يبقى أوراثيو وحيدا مع أورتنسيا. وبعدها ستتذكر ماريا على الدوام المساء الذي، قبل خروجها بلحظةٍ ورغم أن الجو لم يكن باردا جدا، وضعت فيه لأورتنسيا الماءَ الساخن ومدّدتها مع أوراثيو حتى ينام القيلولة بارتياح. تلك الليلة ذاتها أخذ ينظر إلى أركان وجه ماريا متأكدا أنهما سرعان ما سيصبحان عدوّين؛ في كل لحظةٍ كان يقوم بحركاتٍ وخطوات أقصرَ من المعتاد كأنه يتأهب لاستقبال الدليل على أن ماريا قد اكتشفَت كل شيء. وحدث ذلك ذات صباح. منذ زمن طويل، حين اشتكت ماريا مرةً من لحية أليكس، كان أوراثيو قد قال لها:

ـــ كنتِ أنتِ أسوأ باختيارك خادمتينِ توأمتين شديدتا الشبه!

وكانت ماريا قد أجابته:

ـــ هل لديك شيءٌ محدّد تقوله لأيٍ منهما؟ هل حدث لك أي تشوُّش فظيع؟

ـــ نعم، مرةً ناديتُكِ فجاءت من تتشرف بأن تحمل اسمك.

عندها أعطت ماريا أمرا للتوأمتين بألاّ تنزلا إلى الدور الأرضي خلال ساعات وجود السيد بالمنزل. لكن في إحدى المرات التي كانت إحداهما تهرب فيها لئلا تدع أوراثيو يراها، طارَدها مُعتقدا أنها غريبةٌ فتعثّر في زوجته. بعد ذلك جعلتهما ماريا تأتيان لبضع ساعاتٍ فقط في الصباح ولم تكفّ عن مراقبتهما. ويوم أن تم اكتشافُ كل شيء، كانت ماريا قد ضبطت التوأمتين ترفعان قميصَ نوم أورتنسيا في لحظات لا يجب فيها أن تضعا لها الماء الساخن أو تُلبِسانها ثيابها. وحين خرجتا من غرفة النوم، دخلت ماريا. وبعد برهة رأت التوأمتين ربةَ المنزل تعبرُ الفناء، متعجلةً جدا، باتجاه المطبخ. ثم قفلت راجعةً بالسكين الكبيرِ لتقطيع اللحم؛ وحين تبعتاها، مذعورتين، لتريا ما سيحدث، صَفقَت ماريا الباب في وجهيهما. اضطرت التوأمتان للنظر من ثقب المفتاح؛ لكنهما اضطرتا للذهاب للرؤية من مكان آخر، لأنهما رأيا ظهر ماريا. وضعت ماريا أورتنسيا فوق منضدة، كأنها ستُجري لها عمليةً، ووجّهت لها طعناتٍ قصيرةٍ ومتتابعة؛ كانت مُشعثةَ الشعر واندفع إلى وجهها خيطٌ من الماء؛ وانبثق من كتف أورتنسيا خيطان آخران، رفيعان جدا، وتقاطعا مثلما في نافورة الحديقة؛ومن بطنها خرجت دفقاتٌ حرّكت خرقةً منتزعةً من قميص النوم.كانت إحدي التوأمتين قد قرفصت على وسادةٍ كبيرة، وغطّت عينا بيدها ونظرت بالأخري دون أن تطرف من ثقب المفتاح؛ من هناك كان يأتي خيطٌ من الهواء يجعلها تدمع؛ فتركت مكانها لأختها. من عيني ماريا أيضا كانت تخرج الدموع؛ أخيرا تركت السكينَ فوق أورتنسيا، ومضت لتجلس على مقعدٍ وتبكي ويداها على وجهها. لم تعد التوأمتان تهتمان بالنظر من خلال ثقب المفتاح فذهبتا إلى المطبخ. لكن بعد برهة نادتهما السيدة لتساعدا في إعدادِ الحقائب. أصرّت ماريا على تحمّل الموقف بكبرياء ملكةٍ تعيسة الحظ. مستعدّةً لمعاقبة أوراثيو ومفكّرةً في الأوضاع التي سيأخذها أمام عينيها، قالت للتوأمتين أن تقولا للسيد حين يجيء أنها لا تستطيع استقباله. بدأت تُعِدُّ كل شيءٍ لرحلةٍ طويلة وأهدت بعض الفساتين للتوأمتين؛ وأخيرا، حين مضت ماريا في سيارة المنزل، غرقت التوأمتان بإخلاصٍ، في الحديقة، في أسى سيدتهما؛ لكنهما حين دخلتا المنزل من جديد وشاهدتا الفساتين المهداة صارتا في أشد الرضا:أزاحتا ستائر المرايا ـــ كانت مُسدلةً لتجنيب أوراثيو الانطباع السيء للنظر إلى نفسه ـــ وقرّبَتا

الفساتين من جسديهما لتأمل التأثير. رأت إحداهما من خلال المرآة جسد أورتنسيا المُمزّق الأوصال وقالت: "ياله من شخصٍ عديمِ الحياء". كانت تشير إلى أوراثيو. أما هو، فكان قد ظهر عند أحد الأبواب وفكر في طريقة سؤالهما عما تفعلان بتلك الفساتين أمام المرايا العارية. لكنه رأى على الفور جسد أورتنسيا فوق المنضدة، بقميص نومها الممزق فتوجه نحوها. شرعت التوأمتان في الهرب. فأوقفهما:

ــــ أين السيدة؟

نظرت من قالت "ياله من شخص عديم الحياء" في وجههِ مباشرةً وأجابت:

ــــ قالت لنا أنها ستقوم برحلةٍ طويلة وأهدتنا هذه الفساتين.

أشار لهما أن تذهبا وخطرت على ذهنه هذه الكلمات: "ها قد وقع الأمر".نظر من جديدٍ إلى جسد أورتنسيا: كان مازال في بطنها سكينُ تقطيع اللحم. لم يشعر بالكثير من الأسى وللحظةٍ خطر له أن ذلك الجسدَ يمكن إصلاحُه؛ لكنه على الفور تخيَّل الجسد المخيّط بغرزٍ وتذكر حصانا مثقوبا كان له في طفولته: كانت الأم قد قالت أنها ستضع له رقعةً؛ لكنه شعر بخيبة الأمل وفضَّل إلقاءه.

كان أوراثيو متأكدا من اللحظة الأولى أن ماريا ستعود وقال لنفسه: "يجب أن أنتظر الأحداثَ بأشد هدوءٍ ممكن". وفضلا عن ذلك، فإنه سيعودُ ليصبح، مثلما في أفضلِ أوقاته، جَسورا قويا. تذكر ما حدث ذلك الصباح وفكر أنه سيخون أورتنسيا أيضا. فمنذ برهةٍ قصيرة، كان فاكوندو قد أراه عروسةً أخرى؛ كانت شقراء رائعة وكانت لها حكايتها: كان فاكوندو قد أشاعَ خبرَ أن في أحد بلدان الشمال، صانعٌ لتلك العرائس؛ وأنه قد تحصّلَ على الرسومات ونالت التجاربُ الأولى نجاحا.ثم استقبل، بعد أيامٍ قليلة، زيارة رجلٍ خجول؛ كانت عيناه ضخمتان يكسوهما جفنان لا يكاد يرفعُهما، طلب بياناتٍ عينية. وكان فاكوندو، بينما يبحث عن صور فوتوغرافية لعرائسٍ، يقول له: "الإسم العام لها هو ***عرائس الأورتنسيا***؛ لكن بعد ذلك فإن من يصبحُ مالكها، يسمّيها بالاسم الذي تُلهمهُ إياهُ بشكلٍ حميم. وهذه هي النماذج الوحيدة لعرائس الأورتنسيا التي جاءت مع الرسومات". فرّجه على ثلاثٍ فقط فاستقرّ الرجلُ الخجول، دون تفكيرٍ تقريبا، على واحدةٍ منهن وطلب شراءها بنقودٍ حاضرة. طلب فاكوندو سعرا مرتفعا فحرّك المشتري جفنيه عدة مرات؛ لكنه بعدها أخرج قلما على هيئة غوّاصةٍ ووقّع العقد.

ورأى أوراثيو الشقراء مكتملةً فطلب من فاكوندو ألاّ يسلمها بعد؛ وقبِل صديقُه لأن لديه أخرياتٍ بدأ في صناعتها. فكر أوراثيو، في اللحظة الأولى، أن يخصِّص لها مسكنا؛ لكن خطر له الآن شيءٌ آخر؛ سيُحضرها إلى منزله ويضعها في فترينة العرائس التي تنتظر وضعها في مشهد. وبعد أن ينام الجميع سيحملها إلى غرفة النوم؛ وقبل أن يستيقظوا سيضعها من جديد في الفترينة. ومن جهة أخرى توقّع ألاّ تعود ماريا إلى منزلها في الهزيع الأخير من الليل. وفور أن وضع فاكوندو العروسةَ الجديدة تحت أمر صديقه، شعر أوراثيو أن حظا سعيدا يتملّكه لم ينله منذ المراهقة. لابد أن أحدا يحميه، حيث وصل إلى منزله بعد أن انقضى كلُّ شيء. وعلاوة على ذلك يمكنه أن يتحكّم في الأحداث باندفاع رجلٍ شاب. إذا كان قد تخلّى عن عروسةٍ من أجل أخرى، فلا يمكنه الآن أن يتوقف ليحس بالأسى على جسد أورتنسيا الممزّق الأوصال. كانت عودة ماريا مؤكدةً لأنه لم يعد يهمّه منها شيء؛ ويجب أن تكون ماريا من ينشغل بجسد أورتنسيا.

سرعان ما بدأ أوراثيو يسيرُ مثل لصٍ، بجوار الحائط؛ بلغ جانب صوانِ ملابس، طوى الستارةَ التي يجب أن تغطي المرآة ثم فعل نفسَ الشيء مع صوانِ الملابس الآخر. كان قد انقضى زمنٌ طويل منذ أمر بوضع تلك الستائر. كانت ماريا تحرصُ دائما على ألاّ يُصادفَ مرآةً مكشوفة: قبل أن ترتدي ثيابها كانت تغلقُ غرفةَ النوم وقبل أن تفتحها تُغطي المرايا. ومن ثم شعر بالحنق للتفكير في أن التوأمتين، لم ترتديا فحسب فساتين أهداها هو إلى زوجته، بل كذلك تركتا المرايا حرّة. لم يكن الأمر أنه لا يروقه أن يرى الأشياء في المرايا؛ لكن لونَ وجهِه الداكن جعله يفكر في بضع عرائس شمعيةٍ لرجالٍ كان قد رآها في متحفٍ مساء اغتيال أحد التجار؛ كان في المتحف أيضا عرائس لرجالٍ تمثل أجسادا جرى اغتيالها وكان لونُ الدم في الشمع مُنفّرا جدا كأن من الممكن له أن يرى، بعد موته، الطعنات التي قتلته. كانت مرآة منضدة الزينة دون ستائر على الدوام؛ كانت منخفضة وكان بإمكان أوراثيو أن يمر، شاردَ الذهن، أمامها وينحني، كل يوم، حتى يرى فقط ربطة الكرافتة؛ كان يصفف شعره من الذاكرة ويحلق متحسِّسا وجهه. ويمكن لتلك المرآة أن تقول أنها عكسَت دائما رجلا بلا رأس. وذاك اليوم، بعد أن أزاح ستائر صوّاني الملابس، عبر أوراثيو، واثقا كالعادة، أمام مرآة منضدة الزينة؛ لكنه رأى يده فوق قماش البدلة الداكن وانتابه ضيقٌ يشبه ضيقَ النظر إلى وجهه. ثم انتبه إلى أن جلد يديه، الآن، له أيضا لونُ الشمع. وفي نفس الآن تذكر بضعةَ أذرعٍ كان قد رآها ذاك اليوم على مكتب

فاكوندو: كان لونُها لطيفا وشديدَ الشبه بلون الشقراء. ومثل صبي صغير يطلُب قصاصاتٍ من شخصٍ يشتغل في الخشب، قال أوراثيو لفاكوندو:

ـــ حين تفيض عن حاجتك أذرع أو سيقان، ابعث بها إليّ.

ـــ ولماذا تريد هذا، يا أخي؟

ـــ سيروقني أن يُركّبوا لي مشاهد في فتريناتي بأذرعٍ وسيقان منفصلة؛ مثلا: ذراعٌ فوق مرآة، ساقٌ تخرج من تحت سرير، شيء من هذا القبيل.

مرّر فاكوندو يداً على وجهه واختلس النظر إلى أوراثيو. ذلك اليوم، تناول أوراثيو غداءه وشرب نبيذا بهدوءٍ بالغ كأن ماريا قد ذهبت إلى منزل قريبةٍ لها لقضاء اليوم. أتاحت له فكرةُ أنه محظوظٌ أن ينعمَ بالهدوء. نهض راضيا من المائدة، خطر له أن يجعل يديه تتمشيان برهة فوق مفاتيح البيانو وأخيرا ذهب إلى غرفة النوم لينام القيلولة. وعند المرور أمام منضدة الزينة، قال لنفسه: "سأتصرف ضدّ كل وساوسي وسأنظر إلى المرايا وجها لوجه". وفوق ذلك كان يروقه كثيرا أن يُصادف مفاجآت من أشخاص وأشياء في أوضاعِ تشوُّشٍ تثيرها المرايا. ثم نظر مرةً أخرى إلى أورتنسيا، قرر أن يتركها هناك حتى تعود ماريا واستلقى.وحين فردَ قدميه بين الأغطية، لمس جِسما غريبا، قفز ونزل من السرير؛ ظل بضع لحظات واقفا وأخيرا شد الأغطية؛ كانت رسالة من ماريا: "أوراثيو: هنا أتركُ لك عشيقتك؛ أنا أيضا طعنتُها؛ لكنني أستطيع الاعتراف بذلك لأنه ليس ذريعةً منافقة لإرسالها إلى الورشة ليصنعوا لها هرطقات. قرفتَني في عيشتي وأرجوك ألاّ تحاولَ البحثَ عني. ماريا". عاود الاستلقاءَ لكنه لم يستطع النوم ونهض. تجنّب النظر إلى أشياء زوجته على منضدة الزينة مثلما كان يتجنّبُ النظر إليها حين يكونا متغاضبين. ذهب إلى سينما؛ هناك حيًّا، رغما عنه، عدوّاً له وعاودته عدة مرات ذكرى ماريا. عاد إلى المنزل الأسود حين كان قليلٌ من الشمس يدخل غرفة نومه. عند مروره أمام مرآة ورغم أن الستارة مسدلة، رأى من خلالها وجهه: ضربت المرآة بعض أشعة الشمس وجعلت تقاطيعه تلمع كتقاطيع شبحٍ. انتابته رعدة، فأغلق النوافذ واستلقى. لو عاد إليه حظّه حين كان شابا، فلن يتبقى له الآن سوى القليل من الوقت للاستفادة منه؛ لن يأتي الحظ وحيدا وسيكون عليه أن يُصارع مع أحداثٍ بالغة الغرابة مثل تلك التي تنشأ بسبب أورتنسيا. كانت تستريح الآن، على بعد خطوات قليلةٍ منه؛ ومما يبعث الارتياح أن جسدها لن يتحلّل؛ عندها فكر في

الروح التي عاشت فيه مثل ساكنٍ لم يكن يربطه الكثير بمسكنه.
ألا يمكن أن يكون ساكنُ جسدِ أورتنسيا قد أثار غضبَ ماريا، حتى
تمزق جسد أورتنسيا وتتجنّبَ بذلك قُربه هو، أوراثيو؟ لم يستطع
النوم؛ بدا له أن أشياء غرفة النوم أشباحٌ صغيرة تتفاهم مع
ضجيج الماكينات. نهض، ذهب إلى المائدة وبدأ يتناول النبيذ.
في تلك الساعة كان يفتقدُ ماريا كثيرا. عند نهاية العشاء
انتبه إلى أنه لن يقبّلها وذهب إلى الصالة الصغيرة. وهناك
بينما يتناول القهوة فكر أنه طالما لم تعد ماريا، لا يجب أن
يذهب هو إلى غرفة النوم ولا إلى مائدة منزله. بعدها خرج
ليتمشّى وتذكر أن في حيٍّ قريب فندقا للطلبة. وصل حتى هناك. كان
عند المدخل نخلةٌ وخلفها ألواحُ مرايا تصعدُ الدَرَج على إيقاع
درجات السلم؛ ثم واصل سيره. كانت حقيقةُ أنه شهِد كل تلك
المرايا في يومٍ واحد عَرَضا مثيرا للشك. بعدها تذكر أنه في ذلك
الصباح ذاته، قبل أن يصادف مرايا منزله، كان قد قال لفاكوندو
أنه سيروقه أن يرى ذراعا فوق مرآة. لكنه تذكر أيضا العروسة
الشقراء وقرر، مرةً أخرى، النضال ضد وساوسه. أعاد خطواته صوب
الفندق، عبر النخلة وحاول صعود الدرج دون أن ينظر إلى
المرايا. منذ زمن طويل لم ير كل هذا العدد منها مجتمعةً؛
اختلطت الصور، ولم يدر إلى أين يتّجه وفكر حتى في إمكان أن
يكون شخصٌ مختبئا بين الانعكاسات. في الطابق الأول ظهرت صاحبةُ
الفندق؛ فرّجوه على الغرفِ المتاحة ــ كان فيها جميعا مرايا
ضخمة ــ، اختار أفضلها وقال أنه سيعودُ خلال ساعة. ذهب إلى
المنزل الأسود، وأعدّ حقيبةً صغيرة وحين عاد تذكر أن ذلك الفندق
كان داراً للّقاءات الغرامية. عندها لم يستغرب وجود كل تلك
المرايا. كان ثمة ثلاثٌ منها في الغرفة التي اختارها؛ كانت
أكبرُها على جانب السرير؛ ولما كانت الغرفة التي تظهرُ فيها هي
الأجمل، أخذ أوراثيو ينظر إلى تلك التي في المرآة. قد تكون
متعبةً من تقديمها، طوال سنوات، ذلك الجوَّ الصيني الطابع. لم
يعد عدائيا أحمرُ ورقِ الحائط وبدا حسب المرآة كأنه قاعُ بحيرةٍ،
بلونٍ طوبي، غرقت فيه جسورٌ وأشجارُ كرز. استلقى أوراثيو وأطفأ
النور؛ لكنه واصل النظر إلى الغرفة بالوميض القادم من
الشارع. بدا له أنه مختبيءٌ في حميمية عائلةٍ فقيرة. هناك كانت
كلُّ الأشياء قد شاخت سويّا وصارت أصدقاء؛ لكن النوافذ لا تزال
شابّةً وتنظر إلى الخارج؛ كانت توائم، مثل توأمتي ماريا،
وتكتسيان نفسَ الثياب، تلتصق بالزجاج ستائرُ صغيرة من الدانتيل
وإلى الجانبين، ستائرُ كبيرةٌ من المخمل. تولّد لدى أوراثيو
لوهلةٍ إنطباع أنه يحيا داخل جسدِ شخصٍ مجهول يسرقُ منه الهناء.
وسط الصمت الهائل أحس بطنينٍ في أذنيه وانتبه أن ضجيجَ

الماكينات ينقصه؛ ربما أفاده أن يخرجَ من المنزل الأسود ولا يسمعه قط. لو كانت ماريا مستلقيةً إلى جانبه الآن، لكان سعيدا تماما. فور أن تعودَ إلى منزلها سيقترحُ عليها قضاء ليلةٍ في هذا الفندق. لكنه تذكر على الفور العروسةَ الشقراء التي رآها في الصباح ثم نام. وفي الحلم كان ثمة مكانٌ مظلم تطير فيه ذراعٌ بيضاء. أيقظته جلبة خطواتٍ في غرفةٍ مجاورة. نزل من السرير وبدأ يسير حافيا على السجادة؛ لكنه رأى أن بقعةً بيضاء تتبعه وفهم أن وجهه ينعكس في المرآة التي فوق المدفأة. عندئذ خطر له أنه يمكن اختراعُ مرايا تظهر فيها الأشياءُ وليس الأشخاص. وعلى الفور انتبه إلى أن ذلك عبثيٌ؛ فضلا عن أنه لو وقف أمام مرآة ولم تعكسه المرآة، فلن يكون جسده من هذا العالم. عاود الاستلقاء. أضاء شخصٌ النور في غرفةٍ مقابلةٍ وسقط ذلك الضوء ذاتُه على المرآة التي على جانب أوراثيو. بعدها فكر في طفولته، عاودته ذكريات مرايا أخرى ونام.

VI

انقضي وقتٌ قصير وأوراثيو ينام في الفندق وتحدث الأمورُ مثلما في الليلة الأولى؛ في المنزل المقابلِ تُضاءُ نوافذٌ تسقط على المرايا؛ أو يستيقظ هو فيجد النوافذَ نائمةً. وذات ليلةٍ سمع صرخاتٍ ورأى ألسنة لهبٍ في مرآته. في البداية نظر إليها مثلما في شاشة سينما؛ لكنه فكر على الفور أنه لو كان ثمة ألسنة لهب في المرآة فلابد أن تكون موجودةً أيضا في الواقع. عندها، بسرعة زنبرك، استدار في الفراش وواجه ألسنة لهبٍ تتراقصُ في فراغ نافذةٍ مقابلة، مثل شياطين صغيرةٍ في مسرح عرائس. انطرح على الأرض، عبرَ مخرجَ الحمام وأطلّ من إحدى نوافذه. انعكست ألسنةُ اللهب على الزجاج وبدت تلك النافذةُ خائفةً لرؤية ما يحدث للنافذة المقابلة. وفي الأسفل ـــ كانت غرفة أوراثيو في الطابق الأول ـــ كان أناسٌ كثيرون وفي تلك اللحظة أتى رجال المطافيء. عندها رأى أوراثيو ماريا تُطلّ من نافذة أخرى للفندق. كانت تنظر إليه فعلا ولا تكاد تتعرف عليه. أشار لها أوراثيو بيده، وأغلق النافذة، ومضى في الدهليز حتى

الباب الذي ظنّه باب ماريا وطرق بأصابعه. ظهرت هي على الفور وقالت له:

ـــ لن تُحقِّق شيئا بملاحقتي.

وصفقَت الباب في وجهه. بقي أوراثيو هادئا وبعد لحظات قليلة سمعها تبكي خلف الباب. فأجاب

ـــ لم آتِ للبحث عنك؛ لكن لما كنّا قد التقينا فيجب أن نذهب إلى المنزل.

ـــ إذهب أنت، إذهب أنت وحدك، ـــ قالت.

رغم كل شيءٍ، بدا له أنها راغبةٌ في العودة. في اليوم التالي، ذهب أوراثيو إلى المنزل الأسود وشعر بالسعادة. تمتع بفخامة تلك الأبهاء الداخلية سار بين ثرواته مثل مُسرنَم؛ كانت كل الأشياء تحيا هناك ذكرياتٍ هادئة وتركت فيه الغرف المرتفعة الانطباع بأنها تُباعد موتا سيأتي من السماء.

لكن في الليل، بعد العشاء ذهب إلى الصالون فبدا له أن البيانو تابوتٌ كبير وأن الصمتَ يسهرُ على موسيقيٍ مات منذ فترةٍ وجيزة. رفع غطاء البيانو وتركه مرعوبا يسقط بدويٍ هائل؛ ظل للحظةٍ رافعا ذراعيه، مثلما في مواجهة شخصٍ يهدِّده بمسدس، لكنه ذهب بعدها إلى الفناء وبدأ يصرخ:

ـــ من وضع أورتنسيا داخل البيانو؟

وبينما يكرِّر السؤال ظل يرى شعرها مُشتبكافي أوتار الآلة ووجهها بطّطه ثقلُ الغطاء. جاءت إحدي التوأمتين لكنها لم تستطع الكلام. ثم وصل أليكس:

ـــ كانت السيدة هنا هذا المساء؛ جاءت لتأخذ ملابس.

ـــ هذه المرأة ستقتلني من المفاجآت، ـــ صرخ أوراثيو دون أن يستطيع التحكم في نفسه. لكنه هدأ بغتةً:

ـــ خُذ أورتنسيا إلى مضجعك وغدا قل لفاكوندو في وقتٍ مبكر أن يأتي ليأخذها. انتظر ـــ صرخ فيه على الفور تقريبا ـــ. اقترب. ـــ وناظرا إلى الموضع الذي خرجت منه التوأمتان، خفض صوته ليكلّفه من جديد:

ـــ قل لفاكوندو أنه حين يأتي ليأخذ أورتنسيا يمكنه إحضارَ الأخرى.

تلك الليلة ذهبَ لينام في فندقٍ آخر؛كانت من نصيبه غرفةٌ ذات مرآةٍ وحيدة؛ كان ورقُ الحائطِ أصفر بزهورٍ حمراء وأوراقٍ خضراء مشتبكةٍ على سيقانٍ تُحاكي تعريشةً. كانت الحشِيّةُ أيضا صفراء وأحس أوراثيو بالانزعاج: تولّد لديه الانطباع بأنه سيستلقي في العراء. وصباح اليوم التالي ذهب إلى منزله، وأمر بإحضار مرايا ضخمة وضعها في الصالون بحيث تُضاعف مشاهد عرائسه. وذلك اليوم لم يأت أحدٌ لأخذ أورتنسيا وإحضار الأخرى. وتلك الليلة مضى أليكس لإحضار نبيذ إلى الصالون فسقطت منه الزجاجة ...

ـــ لا يهم، ـــ قال أوراثيو.

كان وجهُه محجوبا بقناع ويداه في قفازٍ أصفر.

ـــ ظننتُ أن الأمر يتعلق بقاطع طريق، ـــ قال أليكس بينما أوراثيو يضحك فينفخ الهواءُ من فمه حريرَ القناع الأسود.

ـــ هذه الخِرق على وجهي تُشعِرُني بالحرارة الشديدة ولن تتركني أشربَ النبيذ؛ قبل أن أنزعها يجب أن تنتزعَ المرايا، وتضعَها على الأرض وتسنِدها على كرسي. هكذا، ـــ قال أوراثيو منتزعا واحدةً وواضعا إياها كما يريد.

يمكن سندُها وزجاجُها مواجهٌ للحائط؛ بهذه الطريقة ستكون آمن، ـــ قال أليكس.

ـــ لا، لأنها، رغم كونها على الأرض، أريدها أن تعكس شيئا.

ـــ إذن يمكن سندها على الحائط ناظرةً إلى الخارج.

ـــ لا، لأن الميل اللازم لاستنادها على الحائط، سيجعلها تعكس ما هو مرتفع ولا يهمني أن أرى وجهي.

بعد أن وضعها أليكس كما أراد سيده، نزع أوراثيو القناع وبدأ يحتسي النبيذ؛ سار عبر ممشىً في وسط الصالون؛ إلى هناك كانت تنظر المرايا وأمامها الكرسيُّ الذي تستندُ عليه. ذلك الميل الصغير نحو الأرض أعطاه فكرة أن المرايا خَدَمٌ يحيّون وجسدهم مائل، محتفظين بجفونهم مرفوعةً ودون أن يكفّوا عن مراقبته. وفوق ذلك بين أرجل الكراسي، كانت تعكس الأرضيةَ وتعطي الإحساس بأنها ملويّةٌ.وبعد أن احتسى النبيذ، ترك ذلك فيه انطباعا سيئا فقرر الذهاب إلى الفراش. وفي اليوم التالي ـــ تلك الليلة نام في منزله ـــ جاء السائق ليطلب منه نقودا من

طرف ماريا. أعطاه دون أن يسأله أين هي؛ لكنه فكر أن ماريا لن تعود سريعا؛ حينئذ، حين أحضروا له الشقراء، أمر بحملها مباشرة إلى غرفة نومه. وفي الليل أمر التوأمتين أن تُلبِساها فستان احتفالات وتحملاها إلى المائدة. تناول الطعام وهي في مواجهته؛ وفي نهاية العشاء وفي وجود إحدى التوأمتين سأل أليكس:

ـــ ما رأيك في هذه؟

ـــ جميلةٌ جدا يا سيدي، تُشبِه كثيرا جاسوسةً عرفتُها في الحرب.

ـــ هذا يُبهجني، يا أليكس.

وفي اليوم التالي، مشيرا إلى الشقراء، قال أوراثيو للتوأمتين:

ـــ من اليوم فصاعدا يجب أن تنادياها باسم السيدة إيولاليا.

وفي الليل سأل أوراثيو التوأمتين: (الآن لم تعودا تختبئان منه). ـــ من بغرفة الطعام؟

ـــ السيدة إيولاليا، ـــ قالت التوأمتان في نفسٍ واحد.

لكن في غياب أوراثيو، وحتى تسخرا من أليكس، كانتا تقولان: "حانت ساعةُ وضع الماءِ الساخن للجاسوسة".

VII

انتظرت ماريا، في فندق الطلبة، أن يأتي أوراثيو من جديد. كانت تخرج بالكادِ بضعَ لحظات حتى يُرتِّبوا لها الغرفة. تمضي في شوارع الجِوار رافعةً رأسها؛ لكنها لا تنظرُ إلى أحدٍ ولا إلى شي؛ وتفكر وهي تسير: "أنا امرأة تم هجرانها بسبب دُمية؛ لكنه لو رآني الآن، لأتي صوبي". وعند عودتها إلى غرفتها كانت

تأخذُ كتابَ أشعارٍ، مُجلَّدٍ بجلدٍ أزرق وتبدأ في القراءة شاردةَ الذهن، بصوتٍ عالٍ وتنتظر أوراثيو؛ لكنها عند رؤية أنه لا يأتي حاولت النفاذ في الأشعار؛ كأن شخصا دون قصدٍ، قد ترك بابا مفتوحا وانتهزت هي الفرصة في تلك اللحظة لترى ما في الداخل. وفي نفس الوقت بدا لها أن ورق حائط الغرفة، والساتر المنطوي، وحوض الاغتسال بصنابيره المطلية بالنيكل، قد فهمت الشعر هي أيضا؛ وأن في مادتها شيءٌ نبيل، يُجبرها على بذل جهدٍ وإيلاء انتباهٍ سامٍ. مراتٍ كثيرة في قلب الليل، كانت ماريا تضيء المصباح وتختار قصيدةً كأن من الممكن أن تختار حلما. وفي اليوم التالي تُعاود السيرَ في شوارع ذلك الحيّ وتتخيل أن خطواتها شعر. وذات صباحٍ فكرت: "وددتُ لو يعلم أوراثيو أنني أسير وحيدةً، بين الأشجار، بكتابٍ في يدي".

عندها أمرَت بالبحث عن سائقها، وأعدّت الحقائبَ من جديد وذهبت إلى بيت ابنة عمٍ لأمها: كان خارج المدينة بين الأشجار. كانت قريبتها عزباءَ عجوزَ تعيش في منزلٍ عتيق؛ وحين يعبر جسدُها الضخم الغرف، المعتمةِ دوما، ويجعل الأرضيات تُطقطِقُ، يصيح ببغاءٌ: "نهارك سعيد، يا شوربة الحليب[2]". حكت ماريا لـپراديرا شقاءها دون أن تذرِف دمعةً واحدة. أنصتت قريبتُها مفزوعةً؛ ثم انتابها السُّخط وأخيرا بدأت تدمع. لكن ماريا مضت هادئةً لصرفِ السائق وكلّفته بأن يطلب نقودا من أوراثيو وإذا سأله عنها، أن يقول له، كأنما بمبادرةٍ منه،أنها تتمشّى بين الأشجار وبيدها كتاب؛ وإذا سأله أين هي، أن يقول له؛ وأخيرا طلبت منه أن يأتي في اليوم التالي في نفس الساعة. بعدها ذهبت لتجلس تحت شجرةٍ مع الكتاب الجِلد؛ منه كانت تتصاعد قصائدُ تتناثر في المنظر الخلوي كأنها ستشكِّل من جديد قممَ الأشجار وتُحرِّك، ببطء، السحب. خلال الغداء ظلت پراديرا تتأمل؛ لكن بعدها سألت ماريا:

ــــ وما الذي تفكرين في عمله مع ذلك الوقح؟

ــــ سأنتظر أن يأتي وأسامحه.

ــــ أنا لا أعرفك، يابنة أختي؛ ذلك الرجل قد جعلكِ حمقاء ويتلاعب بك مثلما بواحدةٍ من عرائسه.

أرخت ماريا جفنيها بصمتٍ ساذجةٍ. لكن في المساء جاءت المرأةُ التي تقوم بالنظافة، وأحضرت صحيفة "لا نوتشي [الليل]"، لليوم السابق فمسحت عينا ماريا عنوانا يقول: "عرائس الأورتنسيا لفاكوندو". لم تستطع الامتناعَ عن قراءة الخبر: "في

الدور الأخير من متجر لا پريمابيرا [الربيع]، سيُقام معرضٌكبير ويقال أن بعض العرائس التي سترتدي آخر الموديلات ستكون عرائس أورتنسيا. ويتزامن هذا الخبر مع انضمام فاكوندو، صانع العرائس الشهيرة، إلى الشركة التجارية للمتجر المذكور. نرى منزعجين كيف يفتحُ هذا التزييفُ الجديد للخطيئة الأصلية ـــ الذي تحدثنا عنه في طبعاتٍ أخرى ـــ طريقا إلى عالمنا. هنا أحد النوادي الرئيسية: هل أنت قبيحٌ؟ لا تقلق. هل أنت خجولٌ؟ لا تقلق. في عروسة أورتنسيا ستجد حبا صامتا، دونشِجارات، دون إجاباتٍ خانقة، ودون قابِلة".

استيقظت ماريا على هزاتٍ عنيفة:

لم تدر ماذا تُضيف. رفعت عينيها ومُفعِمةً إياهما بالحنق، أشارت إلى مكانٍ محدد.

ـــ پراديرا!، ـــ صاحت ساخطة ـــ، إنظري!

وضعت عمتها يديها في سلة الخياطة ومُزرِّرة عينيها لترى، بحثت عن العوينات، فقالت لها ماريا:

ـــ أنصتي. ـــ وقرأت الخبر. ـــ لن أطلب الطلاق فقط، ـــ قالت بعدها، ـــ بل سأثير فضيحةً لم تُشاهد في هذا البلد.

ـــ أخيرا، يا ابنتي، تهبطين من السحاب، ـــ صاحت پراديرا رافعة يديها المحمرتين من ماءِ غسيلِ الأواني.

بينما تسير ماريا منفعلةً، مُتعثِّرة بالأصُص والنباتات البريئة، استغلت پراديرا الفرصة لإخفاء الكتاب الجلد. وفي اليوم التالي، فكر السائق كيف يمكنه تجنُّب أسئلة ماريا عن أوراثيو؛ لكنها طلبت منه النقود فقط وعلى الفور أرسلته إلى المنزل الأسود ليُحضِر ماريا، إحدى التوأمتين. وصلت ماريا ـــ التوأم ـــ في المساء وحكت حكاية الجاسوسة، التي يجب مناداتها "السيدة إيولاليا". في اللحظة الأولى ظلت ماريا ـــ زوجة أوراثيو ـــ مفزوعةً وسألت بكلماتٍ ناعمة:

ـــ هل تشبهني؟

ـــ لا، يا سيدتي، الجاسوسة شقراء ولها فساتين أخرى.

توقفت ماريا ـــ زوجة أوراثيو ـــ بغتةً، لكنها على الفور ألقت نفسَها من جديد على المقعد وبدأت تبكي مُنتحبةً. ثم جاءت العمة. حكت التوأم كل شيءٍ من جديد. بدأت پراديرا ترجّ ثدييها

الضخمين في انتحابٍ مؤثر؛ وإزاء تلك الفضيحة صرخ الببغاء: "نهارك سعيد، يا شوربة الحليب".

VIII

كان والتر قد عاد من إجازةٍ واستأنف أوراثيو جلسات فترينّاته. في أول ليلةٍ حمل إيولاليا إلى الصالون. أجلسها بجواره، على المنصة، واحتضنها بينما ينظرُ إلى العرائس الأخرى. كان الفتيان قد ركّبوا مشاهد ذات ***شخصيات*** أكثر من المعتاد. في الفترينة الثانية كان ثمة خمسٌ منها: تنتمين إلى مجلس إدارة جمعيةٍ تحمي الشابات المنبوذات. في تلك اللحظة كانت قد انتُخبت واحدةٌ منهن رئيسةً؛ وكانت أخرى، الغريمةُ المهزومة، محنيةَ الرأس؛ كانت من تروق أوراثيو أكثر. ترك إيولاليا برهةً ومضى ليقبّل الجبهة المنعِشة للمهزومة. وحين عاد إلى رفيقته أراد أن يسمع، بين فراغات الموسيقى، ضجيج الماكينات وتذكر ما كان قد قاله له أليكس عن شبه إيولاليا بجاسوسةٍ من الحرب. على أية حال، استسلمت عيناه تلك الليلة، بنهم، لتنوّع عرائسه. لكنه في اليوم التالي صحا مُتعبا تعباً شديدا وفي الليل انتابه الخوفُ من الموت. شعر بأنه مُعذّبٌ لعدم معرفته متى سيموت ولا الموضعَ من جسده الذي سيُهاجَمُ أولا. كان يُجهده باضطراد أن يكون وحيدا؛ لم تقدم له العرائسُ صحبةً وبدا أنها تقول له: "نحن عرائس: دبّر أمرك بقدر ما تستطيع". كان أحيانا يُصفّر، لكنه يسمع صفيرَه هو كأنه يجذِب وترا بالغَ الدِّقة ينقطعُ فور أن يشردَ ذهنُه. ومراتٍ أخرى كان يتحدث بصوتٍ عالٍ ويُعلّق بحماقة على ما يفعله: "الآن سأذهبُ إلى غرفة المكتب لأبحث عن المحبرة". أو يفكر فيما يفعله كأنه يراقب شخصا آخر: "إنه يفتحُ الدرج. الآن ينزع هذا الأحمقُ غطاءَ المحبرة. لنرَ كم تدوم الحياة". وفي النهاية كان يرتعبُ ويخرج إلى الشارع. في اليوم التالي تلقّى صندوقا؛ أرسله إليه فاكوندو؛ أمر بفتحه فوجده مليئا بالأذرع والسيقان المفردة؛ عندها تذكر أنه ذات صباحٍ كان قد طلب من فاكوندو أن يرسل له بقايا الدمى التي لا يحتاجها. انتابه الخوف من أن يعثر على

رأسٍ مُفردة ـــ لم يكن هذا ليعجبه ـــ. بعدها أمر بحمل الصندوق إلى الموضع الذي تنتظر فيه الدُّمى لحظة استخدامها؛ تحدث تليفونيا مع الفتيان وشرح لهم طريقة إشراك السيقان والأذرع في المشاهد. لكن التجربةَ الأولى كانت كارثيةً وتَضايقَ كثيرا. ففور أن ازاح الستار رأى عروسةً في حدادٍ جالسةً عند قدم درجٍ يبدو ردهةَ كنيسةٍ؛ كانت تنظر إلى الأمام؛ ومن تحت جونلتها تخرج كميةٌ مدهشة من السيقان: حوالي عشرة أو اثنتي عشرة؛ وعلى كل درجة سلمٍ ذراعٌ مُفردةٌ يدُها إلى أعلى."يالهم من أفظاظ ـــ قال أوراثيو ـــ، ليست المسألة أن يستخدموا كل السيقان والأذرع الموجودة". ودون التفكير في أي تفسيرٍ فتح درج مفاتيح الحكايات الصغير ليقرأ الحبكة: "هذه أرملةٌ فقيرة تسير طول النهار لتتحصّل على ما تأكله وقد وضعت أيدٍ تطلبُ صدَقة كفِخاخٍ لاصطياد العملات". "ياللسخافة ـــ ظل أوراثيو يقول ـــ، هذا كلام هيروغليفي أحمق". ذهب إلى فراشه، محنقا؛ وحين صار على وشك النوم رأى الأرملة تسير بكل سيقانها كأنها عنكبوت.

بعد هذا التدريب المشئوم، شعر أوراثيو بخيبة أمل كبيرة في الفتيان، وفي العرائس، وحتى في إيولاليا. لكن بعد أيامٍ قليلة، أخذه فاكوندو في سيارةٍ عبر طريقٍ وسرعان ما قال له:

ـــ أترى ذلك المنزل الصغير ذا الطابقين، على حافة النهر؟ حسنا، هناك يحيا "الخجول" مع عروسته شقيقةَ عروستك؛ كِنّتكَ، كما يقال ... (ربّت فاكوندو على ساقه وضحك الاثنان). يأتي وحيدا عند حلول الليل؛ ويخشى أن تعرف أمُه.

في اليوم التالي، حين كانت الشمس لا تزال عاليةً في السماء، ذهب أوراثيو، وحيدا، على الطريق الترابي المؤدي إلى النهر، إلى منزل **الخجول**.قبل أن يصل إلى الطريق كان يمر تحت بوابةٍ مغلقة وإلى جانب منزل آخر، أصغر، لابد أنه يخصّ حارس الغابة. طرق أوراثيو بيديه فظهر رجلٌ، غيرُ حليقٍ، على رأسه قبعةٌ ممزقة ويمضع شيئا.

ـــ عاوز إيه؟

ـــ قيل لي أن صاحب ذلك المنزل لديه دميةٌ ...

ـــ صاحب المنزل غير موجود.

أخرج أوراثيو بضع أوراقٍ نقدية من محفظته، وعند رؤية النقود، بدأ الرجل يمضغُ بطريقةٍ أبطأ. أمسك أوراثيو بالأوراق النقدية في يده كأنها أوراق لعبٍ وتظاهر بالتفكير. ابتلع الآخرُ

الطُّعم وظل ينتظر. حسب أوراثيو الوقت الذي يكون فيه الآخر قد تخيل ما يمكن أن يفعله بتلك النقود؛ وأخيرا قال:

ــ يلزمني بشدة أن أرى تلك الدمية اليوم ...

ــ المالك يأتي الساعة السابعة.

ــ هل المنزل مفتوح؟

ــ لا. لكن لديّ مفتاح. في حالة اكتشاف شيء، ــ قال الرجل مادّا يده ومتناولا "أوراق اللعب"،ــ أنا لا أعرف شيئا.

ــ على حضرتك أن تدور دورتين ... الدمية في الطابق العلوي ... سيكون من المناسب أن تترك الأشياء***بالظبط*** كما وجدتها.

قطع أوراثيو الطريق بخطوةٍ سريعة وعاوده الشعور باستثارة المراهقة. كان باب المدخل الصغير قذرا مثل عجوزٍ خاملة فأدار المفتاح بقرفٍ في الكالون. دخل غرفة منفّرة بها بوصاتُ صيدِ سمك مستندةٌ على حائط. عبَر الطابق، البالغ القذارة، وصعد سلما حديثَ الدهان. كانت غرفةُ النوم مريحةً؛ لكن لا تُرى فيها أية دمية. بحث عنها حتى تحت السرير؛ وفي النهاية وجدها داخل صِوان ملابس. في البداية نال مفاجأةً مثل المفاجآت التي تعدها له ماريا. كانت الدمية ترتدي فستان احتفالات، أسود، مرصّع بالأحجار مثل قطرات الزجاج. لو كانت في إحدى فترينات لظنها أرملةً محاطةً بالدموع. فجأة سمع أوراثيو انفجارا: بدا أنه دوي طلقة. جرى إلى السلم المؤدي إلى الطابق الأسفل فرأى، ملقاةً على الأرض تحيطُها سحابةٌ صغيرة من الغبار، بوصةَ صيد سمك. عندها قرَّر أن يأخذ ملاءةً ويحمل عروسة الأورتنسيا إلى حافة النهر. كانت الدمية خفيفةً وباردة. وبينما يبحث عن موضعٍ مختبيء، تحت الأشجار، أحس بعطرٍ ليس من الغابة واكتشف على الفور أنه ينبعث من عروسة الأورتنسيا. وجد موضعا ليّنا، في النجيل، وفرش الملاءة محتضنا العروسة من ساقيها ثم مدّدها بالعناية التي يمكن أن يوليها للتعامل مع امرأة فاقدةٍ للوعي. بالرغم من وحشة الموضع، لم يكن أوراثيو هادئا. على بضعة أمتار منهما ظهر ضفدعٌ، ظل ساكنا ولم يعرف أوراثيو أي اتجاه ستأخذ قفزاته التالية. وبعد برهة قصيرة رأى، في متناول يده، حجرا صغيرا فقذفه به. لم يستطع أوراثيو أن يولي الانتباه الذي يريده لعروس الأورتنسياهذه؛ خاب أملُه تماما؛ ولم يجرؤ على النظر إلى وجهها لأنه ظن أنه سيجد فيه السخرية التي لا ترحم لشيءٍ. لكنه سمع همهمةً غريبةً مختلطة بطنين الماء. استدار نحو النهر فرأى،

في قارب، فتىً ضخما برأسٍ كبيرة يقوم بإيماءات مرعبة؛ كانت يداه صغيرتين ممسكتين بالمجاديف ولم يكن يحرك سوى فمه، المرعبِ مثل قطعةٍ منفصلة من الأمعاء ويُطلق تلك الهمهمة التي سمعها في البداية. أخذ أوراثيو عروسَ الأورتنسيا وخرج يجري صوب منزل الخجول.

بعد مغامرة عروس الأورتنسيا الغريبة عنه وبينما يتوجّه إلى المنزل الأسود، فكر أوراثيو في الذهاب إلى بلدٍ آخر وألاّ ينظر مطلقا إلى دُمية. وعند دخول منزله ذهب إلى غرفة نومه بفكرة أن يُخرج أيولاليا من هناك؛ لكنه وجد ماريا ممددةً على الفراش على بطنها تبكي. اقترب من زوجته وربّت على شعرها؛ لكنه فهم أن ثلاثتهم في نفس الفراش فنادى على إحدى التوأمتين وأمرها أن تُخرج الدمية من هناك وأن تطلب فاكوندو ليأتي ويأخذها. ظل أوراثيو متكئا على ماريا وبقي الاثنان صامتين منتظرين حلول الليل تماما. عندها أخذ يدها ومفتشا بصعوبةٍ عن الكلمات، كأن عليه أن يُعبّر عن نفسه بلغةٍ لا يعرفها جيدا، اعترف لها بخيبة أمله في الدُّمى وبسوء ما مرّ عليه بدونها.

IX

صدّقت ماريا خيبة الأمل الحاسمة لأوراثيو في عرائسه وأسلمَ الإثنان نفسيهما للعادات السعيدة السابقة. في الأيام الأولى استطاعا تحمّل ذكريات أورتنسيا؛ لكن بعدها كانت تطرأ نوباتُ صمتٍ غير متوقعة ويعرف كلٌ منهما فيمن يفكّر الآخر. وذات صباح، أثناء تمشّي ماريا في الحديقة، توقّفت أمام الشجرة التي وضعت فوقها أورتنسيا لتفاجيء أوراثيو؛ ثم تذكرت خرافة الجيران؛ وحين فكرت أنها حقا قد قتلت أورتنسيا، انخرطت في البكاء. وحين أتى أوراثيو وسألها ما بها، لم تشأ أن تُخبِره والتزمت صمتا عَدائيا. عندها فكّر أن ماريا، وحيدةً بذراعين معقودتين ودون أورتنسيا، تفقدُ الكثير. وذات مساءٍ، عند حلول الظلام، كان جالسا في الصالة الصغيرة؛ يعذِّبه كثيرا التفكيرُ في أنه بجريرته لم تعد لديهم أورتنسيا ورويدا رويدا شعر بأن الندم

يجتاحه. وفجأة انتبه إلى أن بالصالة قطٌ أسود. نهض واقفا، منزعجا، وهم بسؤال أليكس كيف تركهُ يدخل، حين ظهرت ماريا وقالت له أنها أحضرته. كانت راضيةً وبينما تحتضنُ زوجها حكت له كيف حصلت عليه. فلم يرد هو أن يُعارضها، حين رآها بكل تلك السعادة؛ لكنه شعر بالنفور من ذلك الحيوان الذي اقترب منه بهدوءٍ تام في لحظاتٍ كان يجتاحُه فيها الندم. وخلال بضعة أيام أصبح ذلك الحيوانُ قطَّ الشِّقاق. عوّدته ماريا أن يذهب إلى الفراش ويتمدد فوق الأغطية. وكان أوراثيو ينتظر أن تنام ماريا؛ ثم يُحدِثُ، تحت الأغطية، زلزالا يُجبِر القط على الخروج من هناك. وذات ليلةٍ استيقظت ماريا في واحدةٍ من تلك اللحظات:

ــــ هل كنت أنت من أفزعت القط؟

ــــ لا أدري.

زمجرت ماريا ودافعت عن القط. وذات ليلةٍ، بعد العشاءذهب أوراثيو إلى الصالون، ليعزف البيانو. كان قد أوقف، منذ بضعة أيام، مشاهد الفترينات وضدَّ عادته ترك الدُّمى في الظلام ــــ كان يصاحبها ضجيج الماكينات وحده ــــ.أضاء أوراثيو أباجورةً واقفة موضوعة إلى جانب البيانو فرأى فوق الغطاء عيني القط ــــ كان جسدُه مختلطا بلون البيانو ــــ. عندها، نتيجة المفاجأة غير السّارة، طرده بطريقة سيئة. قفز القطُ ومضى نحو الصالة الصغيرة؛ طارده أوراثيو جريا، لكن الحيوان، حين وجد الباب المؤدي إلى الفناء مغلقا، بدأ يقفزُ ويجذب ستائرَ الباب؛ فوقعت إحداها على الأرض؛ رأتها ماريا من غرفة الطعام وجاءت تجري. قالت كلماتٍ قوية؛ كانت آخرها:

ــــ أجبَرتَني على تمزيق أورتنسيا والآن تريدُ أن تقتِل القط.

أخذ أوراثيو القبعة وخرج ليتمشّى. فكر أن ماريا، إذا كانت قد غفرت له، ــــ في لحظة المصالحة كانت قد قالت له: " أحبك لأنك مجنون" ــــ فليس لها الآن الحقُ في أن تقول له كلَّ ذلك وتُلقي في وجهه ذنبَ موتِ أورتنسيا؛ كان ينال ما يكفي من العقابِ بما تنقُصه ماريا بدون الدمية؛ والقط، بدل أن يُضفي عليها بهجةً كان يجعلُها مبتذلةً. عند خروجه، رأى أنها قد انخرطت في البكاء؛ عندها فكر: "حسنا، الآن فلتبق هي مع قطِّ الندم". لكنه في نفس الوقت شعر بالضيق لمعرفة أن حسراتِها لا تُعدّ شيئا بالمقارنة بحسراته؛وإذا كانت هي لا تعرف كيف تمنحه الأمل، فإنه، من جانبه، سيتخلى عن عادة أن تغسِل هي الذنوبَ. ومع ذلك، فقبل أن يموت هو بقليل، ستكون هي الوحيدةُ التي تُصاحِبه في

اليأس غير المعهودِ ــ والمؤكد تقريبا أنه جبانٌ ــ الذي سيعتريه في الأيام، أو اللحظات، الأخيرة. وربما مات دون أن ينتبه: لم يكن قد فكر جيدا فيما سيكون أسوأ.

حين وصل إلى ناصيةٍ توقف ينتظرُ لحظةَ أن يولي انتباهه للشارع لتجنُّبِ أن تدهسَه عربة. سار برهةً طويلة عبر شوارع مظلمة؛ وفجأة استيقظَ من أفكاره في **البراكى دى لاس أكاسياس** [حديقة أشجار الأكاسيا] وذهب ليجلس على دِكّة. بينما يفكر في حياته، وجّه نظرته تحت بعض الأشجار ثم تابع الظُّلمة، التي تمددت حتى بلغت مياه بحيرةٍ. هنالك توقف وفكر بصورة غائمة في روحه: كانت مثل سكونٍ مظلم فوق المياه السوداء؛ وذاك السكون، كانت له ذاكرة ويتذكر ضجيجَ الماكينات كأنه سكونٌ أيضا: وربما كان ذاك الضجيجُ ضجيجَقاربٍ بخاري يعبر مياها تختلط بالليل، وتظهر فيها ذكريات دميً كبقايا غرقِ سفينة. وسرعان ما عاد أوراثيو إلى الواقع ورأىرفيقين ينهضان من الظلمة؛ وبينما يسيران قادمين باتجاهه، تذكر أوراثيو أنه قبّل ماريا لأول مرة، فوق قمة شجرةِ تينٍ؛ بعد أكل أولى ثمرات التين وكادا يسقطان. مر الرفيقان قُربه، وعبرا شارعا ضيقا ودخلا منزلا صغيرا؛ كان ثمة عدَّة منازل متماثلة وعلى بعضها لافتة 'للإيجار'. عندما عاد إلى منزله تصالحَ مع ماريا؛ لكن في لحظةٍ كان فيها وحده، في صالون الفترينات، فكر أن بإمكانه تأجير أحد منازل الحديقة ليضع فيه عروسة أورتنسيا. وفي اليوم التالي، ساعة الإفطار، لفت انتباهَه أن قط ماريا له شريطان أخضران عند طرف أذنيه. شرحت له زوجتُه أن الصيدلي يثقب آذان كل القطط، بعد ولادتها بأيام، بواحدةٍ من ماكينات ثقب الورقِ لوضعهِ في الدوسيهات. وجد أوراثيو هذا لطيفا واعتبرهبُشرةَ خير. خرج إلى الشارع وحادث فاكوندو تليفونيا ليسأله ماذا يفعل ليميّز، بين دُمى متجر لا پريمابيرا، عرائسَ الأورتنسيا. قال له فاكوندوأنه توجدُ في تلك اللحظة واحدةٌ فقط، قريبةٌ من شباك تحصيل النقود، وفي إحدى أذنيها فردة قِرطٍ واحدة. أما صدفةَ أن توجد عروسة أورتنسيا واحدة في المتجر، فقد أعطت أوراثيو فكرة أنها مقدورةٌ سلفا وأسلم نفسه للتفكير في انتكاسة خطيئته كأنما في قدرٍ شبقي. كان بإمكانه أن يركب تراما؛ لكن خطر له أن ذلك سينتزعه من أفكاره: فضّل أن يذهب مشيا ويفكر في كيفية تمييز تلك الدمية من بين الأخريات. الآن كان هو أيضا يختلط بين الناس ومنحه متعةً أيضا أن يختبيء بين الزحام. كان ثمة حيويةٌ فتلك عشيَّة الكرنفال. اتضح أن المتجر أبعد مما قدَّر. بدأ يتعب وتنتابه الرغبة في أن يتعرف، بأسرع ما يمكن،على الدمية. وجّه طفلٌ بوقا صغيرا وأطلق في وجهه

ضجةً فظيعة. بدأ أوراثيو، متضايقا، يحس نذيرا مُعذِّبا وفكر في تأجيل الزيارة إلى المساء؛ لكن عند وصوله إلى المتجر ورؤيته الدُّمى الأخرى، مُقنَّعةً، في الواجهات الزجاجية، قرر الدخول. كانت عروسة الأورتنسيا ترتدي فستانا من عصر النهضة بلون النبيذ.
بدا أن قِناعها الصغير يجعل رأسها أكثرَ كبرياءً وشعر أوراثيو بالرغبة في السيطرة عليها؛ لكن ظهرت بائعةٌ تعرفُه، تبتسمُ له بنصف فمها فانصرف أوراثيو على الفور. بعد أيامٍ قلائل كان قد وضع العروسةَ في أحد منازل حديقة **لاس أكاسياس**. كانت موظفةٌ عند فاكوندو تذهبُ في التاسعة ليلا، مع عاملةِ تنظيف، مرتين أسبوعيا؛ وفي العاشرة ليلا تضع لها الماءَ الساخن وتنصرف. لم يشأ أوراثيو أن يُنتزَع قناعُها، كان مبتهجا بها وسمّاها إرمينيا. وذات ليلةٍ كان فيها الإثنان جالسين أمام لوحة، رأى أوراثيو عينيها منعكستين على الزجاج؛ كانتا تلمعان وسط اللون الأسود للقناع وبدا أن بهما أفكارا. منذ ذلك الحين، كان يجلس هناك، ويضع خدَّه بجانب خدها وحين يعتقدُ أنه رأى في الزجاج ـــ كانت اللوحةُتُمثِّل شلالَ ماء ـــ أن عينيها تعبران عن العَظَمةِ المُهانة، كان يُقبّلها بحرارة. وفي بعض الليالي كان يعبُر معها الحديقة ـــ بدا أنه يسير مع شبح ـــ ويجلس الإثنان على دِكّة قريبة من نافورة؛ لكن سرعان ما ينتبه أن إرمينيا يبردُ ماؤها فيُسارع إلى أخذها من جديد إلى المنزل الصغير.

بعد وقت قصيرٍ أُقيم معرضٌ ضخم في متجر لا پريمابيرا. احتلت واجهةٌ زجاجية ضخمة الطابقَ الأخيرَ برمّته؛ كانت منصوبةً في وسط الصالون ويمرُّ الجمهورُ عبر الممرات الأربعة المتروكة بين الفترينة وبين الحوائط. كان نجاح الجمهور استثنائيا. (علاوة على رؤية الأزياء، كان الناس يريدون معرفة أيها عرائسُ أورتنسيا من بين الدُّمى). وكانت مرآةٌ تصل إلى السقف تقسمُ الفترينة الضخمة إلى قسمين. في القسم المؤدي إلى المدخل كانت الدمى تمثّل أسطورةً قديمة للبلد، هي **إمرأة البحيرة**، وقد فسّرها نفس الفتيان الذين عملوا من أجل أوراثيو. وسط غابةٍ بها بحيرة، كانت تحيا امرأةٌ شابة. تخرج كل صباحٍ من خيمتها لتمشِّط شعرها على ضفة البحيرة؛ لكنها تحمل مرآة. (قال البعض أنها تضعها أمام البحيرة لترى قفاها). وذات صباحٍ، قررت بعضُ السيدات من المجتمع الراقي، بعد ليلة احتفالٍ، الذهابَ لزيارة المرأة المستوحِدة؛ وصلن عند الشروق، كن سيسألنها لماذا تحيا وحيدةً ويعرضن عليها العون. لحظة وصولهن، كانت امرأةُ البحيرةِ تمشِّط شعرها؛ رأت من بين شعرها فساتين السيدات وحين اقتربن حيّتهُنّ تحيةً متواضعة. لكن فور أن بدأت إحدى السيدات الأسئلة،

وقفت هي وبدأت تسيرُ مُتّبعةً حافة البحيرة. تبعتها السيدات، معتقدات أن المرأة ستجيبهن أو ستكشف لهن سرّا ما. لكن المرأة المستوحدة اكتفت بالدوران حول البحيرة تتبعها السيدات، دون أن تقول أو تكشف لهن شيئا. ومن ثم انصرفت السيدات غاضبات؛ ومن بعدها سمّوها "مجنونة البحيرة". لذا، في ذلك البلد، إذا رأوا أحداً صامتا يقولون عنه: "ظلّ يدور حول البحيرة".

هنا في متجر لا پريمابيرا، ظهرت امرأةُ البحيرةِ أمام منضدة زينةٍ موضوعة عند ضفة الماء. كانت ترتدي ثوبَ استحمامٍ أبيض مطرّز بأوراق شجرٍ صفراء وكانت منضدةُ الزينة مليئةً بالعطور وغيرها من الأشياء. كانت لحظة الأسطورة التي تصل فيها السيدات بفساتين الاحتفال من الليلة السابقة. من الجانب الخارجي من الفترينة، كانت تمر كلُّ أنواع الوجوه؛ لم تكن تكتفي بالنظر إلى العرائس من قمتها لأخمصها لرؤية الفساتين؛ بل كان ثمة عيونٌ تقفز، مليئةً بالشك، من فستانٍ إلى طوق فستان ومن دميةٍ إلى أخرى؛ وتتشكك حتى في دمى شريفةٍ مثل امرأة البحيرة. وكانت عيونٌ أخرى، بالغة الحرص، تنظر كأنها تسير بحرصٍ فوق الفساتين وتخشى أن تسقط فوق جِلد الدمى. أمالت فتاةٌ شابة رأسها بتواضعِ سندريلا وفكرت أن تألُّق بعض الفساتين له علاقة بمصير عرائس الأورتنسيا. وقطّب رجلٌ حاجبيه وخفض جفنيه ليُضلِّل زوجته ويخفي فكرة أن يرى نفسَه، هو شخصيا، مالكا لعروسةِ أورتنسيا. وعموما، كان للدُّمى جوّ مجنوناتٍ ساميات لا يفكرن سوى في "الوضع" الذي يتخذنه ولا يهمهن أن يُلبِسنهن ثيابا أو يجرّدنهن عاريات.

وانقسم القسمُ الثاني، بدوره، إلى قسمين آخرين: جزءٍ للشاطيء وآخر للغابة. في القسم الأول، كانت الدمى بلباس البحر. كان أوراثيو قد توقف أمام اثنتين تحاكيان محادثةً: كان مرسوما، على بطن إحداهن، دوائرُ مُتّحِدة المركز مثل لوحة تصويب (كانت الدوائر المتحدة المركز حمراء) والأخرى مرسوم على كتفها أسماك. كانت رأس أوراثيو الصغيرة تبرز، هي أيضا، بثبات دميةٍ. ظلت تلك الرأسُ تسير بين الناس حتى توقفت، من جديد، أمام دمى الغابة: كانت سكانا أصليين وشبه عاريات. ومن رأس بعضهن، بدل الشعر، كانت تخرج نباتاتٌ ذات أوراقٍ صغيرة مثل نباتات متسلقة؛ وعلى الجلد، الداكن،زهورٌ أو أشعة مرسومة، مثل آكلي لحوم البشر؛ وعلى أخريات رسموا، في كل جسدهن، عيونا آدميةً بالغةَ اللمعان. منذ اللحظة الأولى، شعر أوراثيو بالتفضيل لزنجيةٍ ذات مَظهرٍ مألوف؛ لكن ثدييها ملونان: برأسين زنجيتين صغيرتين

بفمين مدهونين بالأحمر. بعدها واصل أوراثيو التجول في كل المعرض حتى وصل فاكوندو. عندئذ سأله:

ــــ من بين دمى الغابة، أيها عرائس أورتنسيا؟

ــــ أنظر يا أخي، في ذلك القسم كلهن عرائس أورتنسيا.

ــــ أرسل لي الزنجيةَ إلى حديقة الأكاسيا ...

ــــ ليس قبل ثمانية أيام.

لكن مر عشرون يوما قبل أن يتمكن أوراثيو من لمِّ شمله مع الزنجية في منزل حديقة **لاس أكاسياس**. كانت مستلقيةً ومُغطاةً حتى عنقها.

لم تبدُ لأوراثيو مثيرةً للاهتمام بقدرٍ كبير؛ وحين شرع يكشفُ الأغطية، أطلقت الزنجيةُ قهقهةً جهنمية. بدأت ماريا تُفرغ انتقامَها في كلماتٍ مُرّة وتشرح له كيف عرفت خيانته الجديدة. كانت امرأةُ النظافة هي نفس من تذهب إلى منزل پراديرا. لكنها رأت أن أوراثيو هادئ هدوءا غريبا، مثل شخصٍ مشتّت فتوقفت.

ــــ والآن، ما قولك؟ ــــ سألته بعد لحظاتٍ قليلة محاولةً إخفاء دهشتها.

واصل النظرَ إليها مثلما إلى شخصٍ مجهول وكان مظهرهُ مظهرَ شخصٍ يعاني منذ زمنٍ طويل من إرهاقٍ جعله أحمق. بعدها بدأ يُدير جسدَه بحركاتٍ صغيرة من قدميه. عندها قالت له ماريا: "انتظرني". وخرجت من الفراش لتذهب إلى الحمام لتغسل الطلاء الأسود. كانت مرعوبةً، وبدأت تبكي وتتمخط في نفس الوقت. حين عادت إلى غرفة النوم كان أوراثيو قد انصرف؛ لكنها ذهبت إلى منزلها ووجدته: كان قد حبس نفسه في غرفةٍ للضيوف ولم يُرِد الحديث مع أحد.

X

بعد المفاجأة الأخيرة، طلبت ماريا من أوراثيو مرارا أن يغفِر لها؛ لكنه التزم صمتَ رجلٍ من الخشب لا يمثّلُ أيّ قديسٍ ولا يُسلِّم بشيء. كان يقضي أغلب الوقتِ محبوسا، وساكنا تقريبا، في غرفة الضيوف. (كانوا يعرفون أنه يتحرك فقط لأنه يُفرغُ زجاجات نبيذِ فرنسا). أحيانا كان يخرج برهةً، عندما يخيِّم الظلام. وعند عودته يأكلُ قليلا ويعود على الفور للانطراح في الفراش وعيناه مفتوحتان. كانت ماريا تذهب لرؤيته مرارا متأخرا بالليل؛ ودائما ما تجده بعينين ثابتتين، كأنهما من زجاجٍ وبهدوءِ دميةٍ. وذات ليلة استغربت أن ترى القط متمددا قربه. عندها قررت استدعاء الطبيب وبدأوا يحقنونه؛ أخذ أوراثيو يرتعبُ منهم؛ لكن زاد اهتمامُه بالحياة. وأخيرا استطاعت ماريا، بمساعدة الفتيان الذين عملوا في الفترينات، أن تجعل أوراثيو يحضر جلسةً جديدة. تلك الليلةتناول عشاءَه في غرفة الطعام الكبيرة، مع ماريا، طلب المستردةَ وشرب الكثيرَ من نبيذ فرنسا. بعدها تناول القهوةَ في الصالة الصغيرة ولم يتأخر في المرور إلى الصالون. في الفترينة الأولى كان مشهدٌ دون مفتاح: في حمام سباحةٍ كبير، يتحرك فيه الماء باستمرار، ظهرت، وسط نباتاتٍ وأضواءٍ خافتة، بعضُ الأذرع والسيقان المفردة. رأى أوراثيو، بين بعض الأغصان، راحةَ قدمٍ تظهر فبدت له وجها؛ ثم تقدّمت الساقُ كلها؛ بدت حيوانا يبحث عن شيء؛ وحين اصطدمت بالزجاج بقيت هادئةً للحظة وعلى الفور مضت إلى الجهة الأخرى. بعدها جاءت ساقٌ أخرى تتبعها يدٌ بذراعها؛ طاردا بعضهما وانضمّا ببطء مثل حيوانات ضجِرة داخل قفص. ظل أوراثيو برهةً شاردَ الذهن ينظر إلى كل التراكيب التي تنشأ بين الأعضاء المفردة، حتى أتت، مجتمعةً، أصابعُ يدٍ وقدم؛ وسرعان ما بدأت الساق تنتصب وتأخذ الوضعَ المبتذل للارتكاز على القدم؛ وخيَّب هذا أمل أوراثيو؛ أصدر إشارةَ الضوء للوالتر، ودفع المنصة حتى الفترينة الثانية. هناك رأى دميةً فوق سريرٍ وعليها تاجُ ملِكةٍ؛ وإلى جوارها يتمدد قطُّ ماريا. أعطاه هذا انطباعا سيئا وبدأ يثور ضد الفتيان الذين تركوه يدخل. عند قدمي السرير كانت ثلاث راهباتٍ راكعات على متكئات. كان المفتاح يقول: "هذه الملكة عبرت إلى الموت لحظة أن كانت تُعطي إحسانا؛ لم يُتح لها الوقت للاعتراف لكن البلد كله يُصلِّي من أجلها". حين عاود أوراثيو النظر إليها، لم يكن القطُ موجودا. لكنه رغم ذلك كان قلقا وتوقّع أن يراه يظهر في أحد الجوانب. قرر الدخول إلى الفترينة؛ لكن لم يكفَّ عن الانتباه للمفاجأة السيئة التي قد يفاجئه بها القط. وصل حتى سرير الملكة وحين نظر إلى وجهها أسند يده على قدم السرير؛ وفي تلك اللحظة استقرت يدٌ أخرى، يدُ واحدة من الراهبات الثلاث، فوق يده. لا يمكن أن يكون أوراثيو

قد سمع صوتَ ماريا تطلبُ منه المعذرة. ففور أن أحس بتلك اليد فوق يده رفع رأسَه، وجسدُه متصلّبٌ وبدأ يفتح فمَه محرّكا فكّيه مثل طائرٍ لا يستطيع الصياحَ أو تحريكَ جناحيه. أمسكت ماريا ذراعه؛ فانتزعها برعب، وبدأ يصنع حركاتٍ بقدميه ليديرَ جسدَه، مثل يومِ أن أطلقت ماريا المدهونةُ بالأسود تلك القهقهة. عاودها الفزعُ فأطلقت صرخة. تعثر أوراثيو في إحدى الراهباتِ وجعلها تسقُط؛ ثم اتجه إلى الصالون لكن دون أن يتوصل إلى الخروج من الباب الصغير. حين اصطدم بزجاج الفترينة أخذت يداهُ تضربان الزجاجَ مثل طائرين يضربان نافذةً مغلقة. لم تتشجع ماريا على الإمساك بذراعيه من جديد ومضت لتنادي أليكس. لم تجِده في أي مكان. وأخيرا رآها أليكس ومعتقدا أنها راهبةٌ سألها ماذا تريد. قالت له، باكيةً، أن أوراثيو قد جُنّ؛ذهب الإثنان إلى الصالون؛ لكن لم يجدا أوراثيو. بدآ يبحثان عنه وفجأة سمعا خطواته فوق حصى الحديقة. كان أوراثيو يعبرُ فوق أحواض الزرع. وحين لحِقَت به ماريا والخادم، كان يمضي باتجاه ضجيج الماكينات.

(*) الأورتنسيا: نبتة للزينة أصلها من الصين واليابان وتزرع في أمريكا. زهورها كوبية الشكل وردية، أو بيضاء، أو زرقاء. تنتمي إلى فصيلة saxi fragacées .

(1) الدُّمي هنا هي مجموعة عرائس بالحجم الطبيعي تقريبا. وسنستخدم كلمتي 'دُمي' و 'عرائس' للإشارة إليها حسب السياق.

(2) شوربة الحليب: وصفة سهلة على أساس الحليب والخبز أو الأرز، تحضّر بطرق بالغة التنوع وبإضافات مختلفة للعشاء في ليالى الشتاء.

الحصان الشارد

أولا كان يُرى كلُّ ما هو أبيض؛ الأغطيةُ الضخمة للبيانو والأريكة والأخرى، الأصغرُ، على المقاعد والكراسي. وتحتها كل قطع الأثاث؛ كان معروفا أنها سوداء لأن أقدامها كانت تُرى عند نهاية التنورات. ذات مرةٍ كنتُ فيها وحدي في الصالة رفعتُ التنورة عن كرسي؛ فعرفتُ أن الخشب رغم كونه كلّه أسود فإن مكانَ الجلوس كان من نوعٍ أخضرٍ ولامع.

لما كانت كثيرةً تلك المساءات التي لا تصطحبني فيها جدتي ولا أمي إلى الدرس ولما كانت ثيلينا — معلمتي للبيانو حين كنتُ في العاشرة — غالبا ما تتأخّرُ في الوصول، كان يُتاح لي الكثيرُ من الوقت للدخول في علاقةٍ حميمة مع كل ما في الصالة. وواضحُ أنه عند قدوم ثيلينا كنتُ أنا والأثاث نتصرّف كأن شيئا لم يحدث.

قبل الوصول إلى منزل ثيلينا كان لا يزال يتوجَّبُعليّ أن أنعطف، في شارعٍ أقرب إلى السكون. وكنت آتي مفكّرا في عبور

الشارع صوب بعض الأشجار الضخمة. وعلى الدوام تقريبا كنتُ أقطع هذا التفكير بعنفٍ لأرى إن كان ثمة عربةٌ قادمة. وكنت على الفور أنظرُ إلى قمم الأشجار عارفا، قبل أن أدخل في ظلها، كيف تكون جذوعُها، كيف تخرج من مربعاتٍ ضخمة من الأرض تقتربُ منها بخجلٍ بعضُ أحجار الرصف. عند بدايتها، كانت الجذوعُ سميكةً جدا، ولابد أنها قد حسبَت إلى أي مدى ستصعد والوزنَ الذي يجب أن تتحمّله، فقد كانت القمم مثقلةً تماما بالأوراق الداكنة والأزهار البيضاء الضخمة التي تملأ كل شيءٍ بأريجٍ قويٍ جدا لأنها أشجار ماجنوليا.

لحظة وصولي إلى منزل ثيلينا تكون عيناي ممتلئتين بكل ما جمعتاه من الشارع. وعندما أدخل الصالة وتنقضُّ عليهما بغتةً الأشياءُ البيضاء والسوداء الموجودة هناك، يبدو أن كل ما كانت تجلبه العينان ينطفيء. لكنني حين أجلسُ لأستريح ـــ ولما كنت لا أشتبكُ مع الأثاث في اللحظات الأولى لأنني أخشى شيئا غير متوقع، في منزلِ أغرابٍ ـــ تعود حينها إلى عينيّ أشياءُ الشارع ويتوجّب أن تنقضي برهةٌ حتى ترقدَ في النسيان.

ما لم يكن ينامُ تماما أبدا، كان فكرةً معينةً عن الماجنوليا. ورغم أن الأشجارَ التي تحيا فيها تكونُ قد بقيت في الطريق، فإنها تكون قريبةً، مختبئةً خلف العينين. وسرعان ما أشعر أن هواءً عابثا يأتي من التفكير قد دفعَها، قد جعلها حاضرةً بطريقةٍ ما والآن يُبعثرها بين أثاث الصالة فتظلُّ مختلطةً به.

لهذا السبب فإنني فيما بعد ـــ ورغم اللحظات المُعذِّبة التي قضيتُها في تلك الصالة ـــ لم أكفّ أبدا عن النظر إلى قطع الأثاث والأشياء البيضاء والسوداء بنوعٍ من وميض الماجنوليا.

لم تكن الأشياء التي جلبتُها من الشارعقد نامت بعد حين وجدتُني أسيرُ بالفعل على أطراف أصابعي ـــ حتى لا تشعر بي ثيلينا ـــ مُستعدا لانتهاك سرٍ ما من أسرار الصالة.

في البداية مضيتُ نحو امرأةٍ من الرخام ومرّرتُ أصابعي على حنجرتها. كان التمثالُ النصفي موضوعا على منضدةٍ صغيرة ذات أرجل طويلة وضعيفة؛ اهتزّت في المرات الأولى. كنت أُمسك بالمرأة من شعرها بيدٍ لأربّت عليها بالأخرى. كان مفهوما تماما أن الشَعر ليس شعرا بل رخام. لكن في أول مرةٍ أضع يدي عليه لأتأكد أنه لن يتحرك نشأت لحظةٌ من التشوّش والنسيان. دون قصدٍ، حين وجدُتها تشبه امرأةً في الواقع، فكرتُ في الاحترام الذي يجب أن أُظهره لها، في الأفعال المناسبة للتعامل مع امرأةٍ واقعية. عندئذ

نشأت لحظة التشوّش. لكنني بعدها شعرتُ بلذة انتهاك شيءٍ جاد. في تلك المرأة كان يختلط شيءٌ معروفٌ ــ الشبه بواحدةٍ من لحم ودمّ، معرفة أنها من رخام، وأشياء أخرى أقل أهمية ــ؛ وشيءٌ مجهول ــ ما تختلفُ فيه عن الأخريات، تاريخها (افترضتُ بصورةٍ غائمة أنها قد جُلِبت من أوروبا ــ وافترضتُ أوروبا بصورة غائمةٍ أكثر ــ، في أي مكانٍ كانت حين اشتروها، وأولئك الذين لمسوها، إلى آخره.) ــ وفي المقام الأول علاقتها بثيلينا. لكن في اللذة التي أربّت بها على عنقها كانت تختلط أشياءٌ كثيرة أخرى. فقد خيّبت العينان أملي. من أجل محاكاة إنسانِ العين والحدقة كانوا قد ثقبوا الرخام فبدت العينان عينَي سمكة. وكان يحنِقني أنهم لم يتجشّموا عناءمحاكاة أشعة الشعر الدقيقة: كانت تلك كتلةٌ من الرخام تبعث البرودةَ في الأيدي. وحيث يبدأ الصدرُ، ينتهي التمثالُ النصفي ويبدأ مكعّبٌ يرتكز عليه التمثال كله. وعلاوة على ذلك، في الموضع الذي سيبدأ فيه الصدر، كانت زهرةٌ بالغة الصلابة بحيث لو مرّر المرءُ أصابعه المتعجّلة لجرحته. (كذلك لم أجد من الظُرف محاكاة واحدةٍ من تلك الأزهار: فقد كان ثمة أكوامٌ منها في أي حاجز من حواجز الطريق).

بعد برهةٍ من النظر إلى المرأة ولمسها نشأ لديّ أيضا ما يشبه الذاكرةَ الحزينة لمعرفة كيف كانت شذراتُ الرخام التي تحاكي شذراتها؛ وانقشعَت إلى حدٍ كبير التشوشاتُ بين ما هي عليه وبين ما تكونه امرأةٌ واقعية. ورغم ذلك، في أول فرصةٍ لالتقائنا وحدنا، كانت أصابعي تُغادرني نحو حنجرتها. وبلغتُ حدّ أن أشعر، لحظاتِ أن يرافقنا أشخاصٌ آخرون ــ حين كانت أمي وثيلينا تتحدثان في أشياء مملةٍ جدا ــ بنوعٍ من التواطؤ معها. وعند النظر إليها من مسافةٍ أبعد وكأنما بصورةٍ عابرة، كنت أعود فأراها كاملةً وتنتابني لحظةٌ من التشوش.

داخل إطارٍ كان شكلان بيضاويان بهما صورتا زوجين من أقارب ثيلينا. كان للمرأة رأسٌ مائلةٌ بطيبة، لكن الحنجرةَ، المنتفخة، جعلتني أفكّر في ضُفدع. في إحدى مرات نظري إليها، نادتني، لا أدري كيف، نظرةُ زوجِها. ومهما راقبتُه خلسةً، كان ينظرُ إليّ مباشرةً وفي مركز عيني. وحتى حين أسيرُ من مكانٍ إلى آخر من الصالة وأتعثّر في كرسي، كانت عيناه تتجهان إلى مركز إنسانَي عيني. وكنت أنا بصورةٍ حتمية، من يجبُ أن يخفضَ نظرَه. كانت الزوجة تعبِّر عن عذوبةٍ لا في الميل وحده بل في كل أجزاء رأسها: حتى في التسريحة المرتفعة وحنجرة الضفدع. كانت تجعلُ كلَ

أجزائها طيبةً: مثل حلوى رائعةٍ من أي ناحيةٍ تجرِّبها يكون طعمُها لذيذا. لكن كان ثمة شيءٌ لم تجعله طيبا فحسب، بل كان يتَّجه نحوي: كان ذلك في العينين. حين أكونُ مهموما بعدم قدرتي على النظر إليها كما أشاءُ لأن زوجها إلى جانبها، يكون لعينيها تعبيرٌ وطريقة للدخول في عينيّ تعادلُ نُصحي: "لا تُعِره اهتماما، أنا أفهمك، يا عزيزي". وهنا كان يبدأ همٌّ آخر من همومي. فقد فكرت دائما أن الأشخاص الطيبين، أكثر من يحبونني، لم يفهموني أبدا؛ لم ينتبهوا أبدا أنني أخونُهم، أن لدي أفكارٌ سيئة عنهم. لو كانت تلك المرأة موجودةً، لو كانت لا تزال تحتفظ بشبابها، لو كانت مصابةً بمرض الحلم ذلك الذي يكون الأشخاصُ فيه أحياءً لكنهم لا ينتبهون عند لمسهم، ولو كانت وحدها معي في تلك الصالة، لانتابتني بالتأكيد جوانبُ حبِ استطلاعٍ غير محتشمة.

حين كنتُ دون قصدٍ أقعُ تحت نظرة الزوج وأخفضُ بصري بسرعة، كنت أشعرُ بالضيق والحنق. ولما كان هذا يحدثُ مراتٍ عديدة، بقيت في جفنيّذاكرةُ خفضهما وعذابُ الشعور بالمهانة. بحيث كنت حين أُصادف عينيه، أعرف ما ينتظرني. أحيانا كنت أتحمّل نظرته برهةً لأفسح لنفسي الوقت لأفكر ماذا سأفعل لأسحب نظرتي بسرعة دون أن أشعر بالمهانة: أجرِّب سحبها إلى جانبٍ وأسارع بالنظر إلى إطار اللوحة، كأنني مهتمٌّبشكله. لكن رغم أن العينين تنظران إلى الإطار، كان الاهتمام والذاكرة الفورية اللذان تخلّفهما فيّ نظرته، يشعراني بالمهانة أكثر؛ وفوق ذلك أفكر أنني اضطررت لعمل فخٍ لنفسي. ورغم ذلك، استطعتُ مرةً أن أنسى قليلا نظرته أو مهانتي. كنت قد سحبت بسرعةٍ نظرتي من عينيه ووضعتها بصلابةٍ على شاربه. بعد التورم الأسود للشارب فوق الفم، كان يخرج إلى الجانبين في خطٍ مستقيم ويستمر هكذا مسافةً طيبة. عندها فكرت في أصابع جدّتي: كانت سمينة، ومكتنزة ــــ ذات مرة شكّت نفسها فخرج منها خيطٌ من الدم حتى السقف ــــ وبدا أن هذا الشارب قد برمَته هي. (كانت تقضي وقتا طويلا تبرم بأصابعها العرقانة الخيطَ الأسود حتى يمر من ثقب الإبرة؛ ولما كان بصرها ضعيفا وحتى ترى أفضل كانت تطوِّح رأسها إلى الوراء وتُبعد الخيط والإبرة عن عينيها أكثر مما يجب، ولم يكن هذا لينتهي أبدا). ذلك الرجل أيضا لابد أنه قضى وقتا طويلا يبرُم شاربه؛ وبينما يفعل ذلك ويحدق بصره، من يدري أي نوعٍ من الأفكار كان يخطرُ له.

رغم أن أسرارَ البالغين يمكن العثورُ عليها وسط محادثاتهم أو أفعالهم، كانت لديّ طريقتي المفضّلة للتفتيش فيها: حين لا يكون أولئك الأشخاصُ موجودين وحين يمكن العثورُ على شيءٍ تركوه عند مرورهم؛ قد تكون آثارا، أو أشياءَ منسية، أو ببساطة أشياءً يكونون قد تركوها مستقرةً في مكانها بينما يغيبون — وبالأخص تلك التي يكونون قد تركوها غير مستقرةٍفي مكانها بفعل التعجُّل. لكنها دائما أشياء تكون قد استُخدِمت في وقتٍ سابق على الذي أراقبُ أنا فيه. تكون تلك الأشياء قد دخلت في حياة أولئك الأشخاص، سواء بالصدفة، أو بالاختيار السري، أو لأي سببٍ آخر مجهول؛ المهم أن تكون قد بدأت تتولّى مهمةً معينة أو تعني شيئا بالنسبة لمن استخدمها وأستغِلُّ أنا ذلك لحظة أن تكون تلك الأشياء غير مرافقةٍ لأولئك الأشخاص، لاكتشاف أسرارهم أو آثار أسرارهم.

كان في صالة ثيلينا الكثير من الأشياء التي تُثير رغبتي في البحث عن الأسرار. وكانت حقيقةُ كوني وحيدا في مكانٍ مجهول، أحدَ تلك الأشياء. وعلاوة على ذلك، فإن معرفة أن كل ما هناك ينتمي إلى ثيلينا، لأنها بالغةُ الصرامة وتتشبَّث بقوةٍ بأسرارها، كانت تعجّل بعاطفةٍ غريبة الرغبةَ في اكتشاف أو انتهاك الأسرار.

في البداية كنت أنظرُ إلى الأشياء شاردَ الذهن؛ ثم أثارت اهتمامي الأسرارُ التي تملكها الأشياء في ذاتها؛ وسرعان ما أوحت هي إليّ بإمكانية أن تكون وسطاءَ لأشخاصٍ بالغين؛ إذ يمكن أن تكون هي — أو ربما أشياء أخرى لا أنظر إليها في تلك اللحظة — مُتَستِّرةً على، أو مُتورِّطةً في، أفعالٍ غامضة. عندها كان يبدو لي أن أحدها يُصدر لي إشارةً إلى آخر، وأن آخرَ يظل هادئا متظاهرا بالتجاهل، أن آخرَ يعيد الإشارة إلى من اتّهمهُ أولا، حتى يتعبونني في النهاية، ويسخرون مني، يلعبون لعبة التفاهمات فيما بينهم حتى أُصبح أنا منبوذا. ولابد أنني في واحدةٍ من تلك اللحظات لمسَت انتباهي، كأنما بصورةٍ عابرة، التموّجاتُ الموحية لاستدارات النساء. ولابد أنني شعرت على هذا النحو بأنني أُبحر في أمواجٍ معينة، حتى تعترضَني بعدها، نظرةُ ذلك الزوج. لكن بعد أن تكون قد نادتني عدة مرات ومن مواضع مختلفة من الصالة مختلفُ الشخصيات التي تنبُذني بعد برهة، أجد أنني كنت في البداية متوجها صوب سرٍ يهمني أكثر، ثم قاطعني وألهاني سرٌ آخرُ أقل شأنا. ربما كنت أمضي في طريقٍ أفضل حين كنت أرفع تنورات الكراسي.

ذات مرة امتدت يداي إلى تنورات كرسيٍ وأقفتها الجلبةُ القوية التي أحدثها الباب المؤدي إلى صحن المنزل، من حيث تدخل ثيلينا عند قدومها من الشارع. لم يُتح لي الوقت إلاّ لسحبِ يديّ، حين وصلت إليّ، وأعطتني قبلةً كالعادة. وقد تم التخلّي بجحودٍ عن هذه العادة ذات مساء عند توديعنا؛ قالت لأمي شيئا من قبيل: "هذا السيد يكبُر ويجب السلامُ عليه باليد". كانت ثيلينا تحمل جسدَها الطويل النحيل محبوكاً بقسوةٍ بالسواد كأنها مرّرت يديها مرارا وتكرارا فوق المنحنيات التي يصنعها الكورسيه حتى لا تتبقى أدنى تجعيدةٍ في قماش الفستان السميك. وبنفس الطريقة واصلَت حتى أعلى خانقةً نفسها بياقةٍ تبلغ أذنيها. ثم تأتي السحنةُ الشاهقة البياض، والعينان الفاحمتا السواد، والجبهةُ الشاهقة البياض والشعر الفاحم السواد، مُشكِّلاً تسريحةً مستديرة مثل تسريحة ملكةٍ كنتُ قد رأيتها على قطعة عملة وبدت قطعةَپودينج ضخمة محروقة.

لم أكد أستوعبُ مفاجأةَ الباب، ودخول ثيلينا، والقُبلة، حتى عاودَت هي الظهور في الصالة. لكنها بدلا من أن تأتي محبوكة بقسوةٍ بالسواد، كانت قد ارتدت رداءً منزليا أبيض من قماشٍ خفيف ومُنشّى، بأكمام قصيرة، تنتهي بكرانيش منتفخة. ومن الكرانيش تبرز الذراعُ بالقماش الأسود للفستان الذي جاءت به من الشارع، محبوكا حتى المعصم. حدث هذا في الشتاء، لكن في الصيف، من نفس ذلك الرداء المنزلي كانت الذراعُ تخرج عاريةً تماما. وعند ظهورها من بين الكرانيش التي صلّبها النشا، فكرتُ في زهورٍ اصطناعية معينة كانت تصنعها سيدةٌ في طريق العودة إلى المنزل. (ذات مرة توقفَت أمي لتتحادث معها. كان جسدُها ضخما جدا، ذا بدانةٍ مرحة؛ ويبدو هائلا، منظورا إليه من الرصيف حين تكون واقفةً على عتبة بابها. قالت لها أمي أنها تأخذني إلى درس البيانو؛ فأجابت هي، منفعلةً بعض الشيء: "أنا أيضا بدأتُ أدرس البيانو؛ أخذت أدرسُ وأدرس ولم أر تقدّما على الإطلاق، لم أر النتيجة. وبالمقابل أصنعُ الآن أزهارا وفواكه من الشمع، أراها ... ألمسها ... وتُعدُّ شيئا، حضرتك تفهمينني". كانت الفواكه أصابعَ موز كبيرة صفراء، وتفاحاتٍ كبيرة ملونة. كانت ابنة فحّام، شاهقة البياض، شقراء، بخصلاتٍ حمراء طبيعية وبدت الفواكه الشمعية مثل بناتها).

في أحد أيام الشتاء اصطحبتني إلى الدرس جدّتي؛ كانت قد رأت فوق مفاتيح البيانو البيضاء والسوداء يديّ اللتين لطفلٍ في

العاشرة، وقد احمرتا من البرد، فخطر لها أن تدفئهما بيديها. (كانت يومَ الدرس تُعطّرهما بماء الكولونيا ـــ مخلوطا بالماء العادي، الذي كان يتخذ لونا حليبيا، مثل شراب حبِّ العزيز. وبذلك الماء ذاته كانت ترشّ لتُخفي رائحة أصابع السيجار التي تأتي في عبواتٍ من خمسٍ وعشرين واحدة وكانت تثورُ جدا إذا لم يحصل عليها أبي بالضبط من نفس الماركة، والحجم، والمذاق).

لما كنا في الشتاء، خيّم الليلُ بسرعة. لكن النوافذ لم تكن قد رأته يدخلُ: ظلّت شاردةً تتأمل، حتى اللحظة الأخيرة، ضوءَ السماء.كان الليلُ يتصاعد من الأرضية ومن بين الأثاث، حيث تتناثر الأرواحُ السوداء للكراسي. ثم بدأت تطفو هادئةً، مثل أشباحٍ مسالمة، الأغطيةُ البيضاء. بسرعةٍ نهضت ثيلينا واقفةً، أضاءت مصباحا صغيرا وشبكته بواسطة زنبركٍ، في أحد شمعدانات البيانو. أما جدّتي وأنا فعند اقترابنا امتلأنا بالضوء كأن كوما من القشِّ الشفاف قد أُلقي فوقنا. وعلى الفور وضعت ثيلينا الأباجورة فلم يعد وجهُها المثقل بالبودرة، مثل شبحٍ بالغَ البياض،ولم تعد عيناها بالغتي القسوة، ولا شعرُها بالغَ السواد.

حين تكون ثيلينا جالسةً إلى جانبي لم أكن أجرؤ أبدا على النظرِ إليها. كنت أُصلِّب جسدي كأنني جالسٌ في عربة غجرٍ، بذراعِ فرملةٍ مشدود وأمام حصانٍ. (إذا كان كسولا سيعاقبونه حتى يُسرع؛ وإذا كان مندفعا، فربما انطلق هائجا وعندها تكون العواقبُ أسوأ). فقط عندما كانت تتحدث مع جدّتي وتسند ساعدها على خشب البيانو، كنت أنتهز الفرصة لأنظر إلى يدِها. وفي نفس الوقت تكون عيناي مثبّتتين على القماش الأسود للكم الذي يصلُ حتىالمعصم.

كنا ثلاثتنا قد اقتربنا من الضوء ومن الأصوات (اقتربنا بالأحرى من انتظار الأصوات، لأنني كنتُ أُصدرها بفواصل زمنية مُعذِّبة ودائما ما يُنتَظر أكثر ولا يتم أبدا تقريبا مُجازاةُ الانتظار تماما وكنا ثلاث رؤوس تعمل ببطءٍ، مثلما في الأحلام، وتعتمد على أصابعي البائسة). بقيت جدّتي متراجعةً في الظلمة لأنها لم تكن قد جرّت مقعدها بما يكفي وبدت مُعلَّقةً في الهواء. ببدانتها ـــ مُلتفةً بردائها المنزلي الأبدي الرمادي ذي الياقة

القطيفة السوداء ـــ كانت تُغطي كل أجزاءِ المقعد؛ ولا يفيضُ عنها سوى قليلٌ من ظهره عند جانبي رأسها. كانت الظلمة تخفي تجاعيدَها ـــ كانت تجاعيد الوجنتين مستديرةً ومنفصلة مثل تلك التي يُحدِثها حجرٌ عند سقوطه في بحيرة؛ وكانت تجاعيدُ الجبهة مستقيمةً ومتكاثرة مثل تلك التي يُحدثها القليلُ من الريح حين يمرّ فوق ماءٍ ساكن. كانت السحنة المستديرة والطيبة، تناسبُ تماما كلمة "جدّة"؛ وهي ما جعلتني أفكر في استدارة تلك الكلمة. (إذا كان لدى بعض الأصدقاء جدةٌ ذاتسحنةٍ نحيلة، لم يكن اسم "جدة" يناسبها جيدا وربما لم تكن طيبةً مثل جدتي).

في أحيانٍ كثيرة من الدرس كان جدتي تبقى مسترخيةً وكأنها محفوظةٌ في الظلمة. كانت تخصّني أكثر من ثيلينا؛لكنها في تلك اللحظات تحتل الفضاءَ الداكن لشيءٍ معروفٍ ومنسيٍّ أكثر مما ينبغي. وفي مراتٍ أخرى كانت تتدخل مدفوعةً تلقائيا بأفكارٍ لم أستطع أبدا أن أتوقّعها لكنني أتعرّف عليها بوصفها تخصُّها فور أن تقولها. كانت بعض تلك الأفكار عويصةً ولتوصيلها كانت تختارُ كلماتٍ تُثير السخرية ـــ خصوصا إذا تعلّق الأمر بالموسيقى. وحين تكون قد كررت تلك الكلمات ذاتها مراتٍ عديدة، لا ألتفت إليها وتصبح بلا أهميةٍ مثل أشياء أكون قد وضعتُها في غرفتي قبل زمنٍ طويل: وسرعان ما أنزعج، حين أجدُها في موضعٍ أكثر أهمية، لاعتقادي أنني أكتشفُ خدعةَ محاولتها الظهور كأنها جديدة بينما هي قديمة، ولأن إصرارها يضايقني، يضايقني قصدُ معاودة إظهارها لي حتى أراها بصورةٍ أفضل، حتى أقتنع بقيمتها وأندم على ظلمِ أنني لم أوفِّها حقها من البداية. ورغم ذلك يمكن لجدّتي أن تُفكر في أشياء مختلفة ورغم أنها تجهدُ لتقول لي شيئا جديدا،فإن تلك الأفكار تتركب، في النهاية، في نفس الكلمات، كأنها تفرّجني دائما على نفس الإبريقِ وأنا لا أدري أنها وضعت بداخله أشياءَ مختلفة. وفي بعض الأحيان يبدو أنها تنتبه لذلك، بعد أن تكون قد قالت نفسَ الشيء، الذي لا يقولُ ما تريده فحسب بل يكرِّرُ دوما الشيءَ ذاته.عندها كانت هي من تنزعجُ وتقول متعثّرةً وراغبةً في أن تكون ساخرة: "إنتبه لما تقوله المعلمة؛ ألا ترى أنها تعرفُ أكثر منك؟".

في منزل ثيلينا ـــ ولو لم تكن هي موجودةً ـــ لم تكن نوباتُ غضب جدتي خطرة. كان ثمة شيءٌ في تلك الصالة يبرِّدها في حينها. وفضلا عن هذا، كان ذلك مكانا ليس عليّ وحدي أن أُظهر

فيه حسن التربية، بل عليها هي أيضا.كان قلبُها سريعَ الطيبة وكانت تجدُ ظُرفا في الكثير من توجهاتي. ورغم أن أسلوب توجهاتي كان واحدا، كانت تبدو لها جديدةً إذا قمتُ بها في مواقف مختلفةٍ وبأشكالٍ مختلفة: كان يروقُها أن تتعرَّف فيَّ على شيءٍ معروفٍ فعلا وشيءٍ مختلفٍ في نفس الوقت. مازلتُ أراها تضحكُ وتتقافز بطنُها تحت مريلةٍ، ويتقافز من بين أصابعها ورقٌ أخضر مدهونٌ بعجينة لاصقة يأخذ في الالتفاف على سلكٍ بينما يُشكِّل رؤوس أزهار اصطناعية ــ كانت تلك الرؤوس تخرج من يدها مفرطةَ السُمك، غريبة، منتفخةً بفعل كُراتِ العجينة، وغير متناسبة مع الأزهار. كذلك كان يبرزُ منها منديلٌ على رأسها وعُقبً سيجارٍ في فمها طول الوقت. لكن قلبها كان سريعَ الغضب أيضا. حينها يمتلىء وجهُها باللهب، والكلمات القبيحة والإيماءات؛ كما يمتلىء جسدها بحركاتٍ حمقاء ويتجه نحو موضعٍ معلّقٍ فيه سوطٌ بالغ الجمال بحلقات من الفضة كان يخصّ زوجها.

أما في منزل ثيلينا، فلم يكد يُفلتُ منها التلميحُ بتهديدٍ. وأقلّ من ذلك توجيهُلطمةٍ: كان يمكنني أن أجلس هادئا بجوارها. وأكثر من ذلك: حين تكون ثيلينا بالغةَ القسوة أو تنسى أنني لم أستطع الاستذكار لسببٍ خارجٍ عن إرادتي، كنت أبحثُ عن جدتي بعينيّ؛ وإذا لم أجرؤ على النظر إليها، كنتُ أناديها بكل انتباهي، مفكّرا فيها بقوة ومُصلِّبا صمتي. كانت تتأخر في القدوم؛ وفي النهاية أشعر بها تأتي في اتجاهي، مثل مركبةٍ تتقدّم ببطء، وبجهد، مُطلِقةً دخانا ومُحدِثةً كميةً من الجَلَبة الغريبة يثيرها طريقٌ مليء بالحصى. في تلك اللحظات، حين تظهرُ على السطح القاسي لثيلينا تجعيداتٌ حادة، حين أتقافزُ بعربة الغجر وتأتي جدتي مثل وابور تمهيد الطرقِ العتيق، كان يبدو أننا قد دُعينا إلى كابوسٍ صغير.

كان ثمة قلمُ رصاصٍ طويل أحمر موضوع عبر مفاتيح البيانو، مثل قضيبِ سكةٍ حديدية فوق الفلنكات. لم يكن يغيبُ عن بصري لأنني أريدهم أن يشتروا لي واحدا مثله. حين كانت ثيلينا تأخذه لتسجِّل، في كتاب الموسيقى، الأرقامَ التي تُناظر الأصابع، كان القلمُ الرصاص يرغبُ في أن يتركوه يكتب. ولما لم تكن ثيلينا تُفلته، كان يتحرك متشوقا بين الأصابع التي تمسكه، وبعينه الوحيدة والمدبّبة ينظرُ متردّدا ومتأرجحا من جانبٍ لآخر. وحين يُتركُ ليقترب من الورق، يبدو طرفُه خِطماً يتشمّم شيئا، بغريزة قلمٍ رصاصٍ، نجهلها نحن، ويفتش بين أقدام النغمات باحثا عن موضعٍ أبيض يعضُّ فيه. وأخيرا تُطلقه ثيلينا، وبحركاتٍ قصيرة، مثل خنزيرٍ صغير يرضع، يقبضُ هو بنهمٍ على بياض الورقة،

ويمضي مُخلِّفا الآثار الراسخة والمُشدَّدة لحافره القصير الأسود ويُحرِّك بابتهاجٍ ذيلَه الطويل الأحمر.

كانت ثيلينا تجعلني أضع يديّ مفتوحتين فوق مفاتيح البيانو وبأصابعها ترفعُ أصابعي كأنها تعلّم عنكبوتا تحريكَسيقانه. كانت تتفاهم مع يديّ أفضلَ منّي. وحين كانت تجعلهما يسيران ببطء سرطاناتٍ بحريةٍ بين صخورٍ صلبة بيضاء وسوداء، كانت اليدان على الفور تعثران على أصواتٍ تُبهج كلَّ ما يحيط بالمصباح وتصير الأشياءُ مكسوّةً بتعاطفٍ جديد.

ذات مرةٍ كرّرت لي شيئا فهمَته رأسي لكن لم تفهمهُ يداي. وصلت لحظةٌ تضايقت فيها ثيلينا ورأيتُ سخطها يتزايد أسرعَ من المعتاد. أخذتني على غِرة كأنني نسيتُ شيئا على النار وفجأة شعرتُ بأنه ينسكب. في تعجّلها كانت قد أخذت ذلك القلم الرصاص الأحمر البالغ الجمال وشعرتُ بخشبه يرنُّ على عظام أصابعي، دون أن تُفسح لي الوقت لأعرف أنها تضربني. كان عليّ أن أتعامل مع أشياء كثيرةٍ هاجمتني في وقتٍ واحد؛ لكن كان قد بدأ يتصاعد ألمٌ لم يترك لي حلاً سوى التعامل معه في المقام الأول. انتفخَت داخلي رغبةٌ لا تحتملُ في البكاء. أخذتُ أضغطُ عليها بكل قواي بينما يسقطُ على مسامعي، وعلى وجهي، وعلى رأسي، وعلى كل جسدي صمتٌ كابوسي. من كلٍ من البيانو، والمصباح، وثيلينا والقلم ما زال في يدها، كانت تبلغُني حرارةٌ غريبة. في تلك اللحظة كانت الأشياء حيّةً أكثر منا. كانت ثيلينا وجدتي قد بقيتا هادئتين وملتفّتين بالصمت الذي بدا أنه يأتي من ظلمةِ الصالة مع نظرةِ الأثاث. في لحظة المفاجأة نشأ داخلي فراغٌ بدأ يمتلىء على الفور بالكثير من العذابات. بعدها بذلتُ مجهودا هائلا للخروج من الفراغ وتركته يمتلىءُ وحده. قمت بما يشبه قفزةً إلى الوراء متراجعا في زمن ذلك الصمت وفكّرت أنهما بدورهما تمتلئان بشيءٍ ما. بدا أنني شعرتُ بأنهما قد تبادلتا النظر وأن تلك النظرات قد احتكّت بظهري وأرادت أن تقول: "كان من الضروري معاقبته؛ لكن الخطأ ليس خطيرا؛ وفوق ذلك، فإنه يعاني كثيرا". لكن هذا الافتراض المشئوم، كان الإشارةَ لفتح سدود نهرٍ. عندها امتلأ فراغُ صمتي. وفي تيار النهر رأيتُ تفكيرا متأخرا يأتي ـــ ولم أتعرّف عليه ـــ. وصل خِفيةً، واتخذ موقعا قريبا، ثم انفجر. كيف تضربني ثيلينا وتتحكم فيّ، بينما كنتُ أنا من قطعتُ وعدا سريا بأن أتحكّم فيها؟ منذ زمن بعيد كان لديّ الأمل في أن تقعَ في حبي ـــ إن لم تكن تحبني فعلا ـــ.

وكان ذلك الافتراض منذ لحظة ـــ افتراض أن تشفق عليّ ـــ هو الذي جلَبِ وعجّل هذا التفكير المناقِض: هدفي الحميم في التحكم فيها.

سحبتُ يديّ من لوحة المفاتيح وضغطتُ قبضتيّ على بنطلوني. لاشك أنها رغبَت في تجنُّب أن أبكي ـــ أتذكر جيدا أنني لم أفعل ـــ فأمرتني بمواصلة الدرس. بقيتُ برهةً طويلة دون أن أرفع رأسي ولا يديّ، حتى عاودها الضيقُ وقالت: "إذا لم تُرِد أخذَ الدرس، ستنصرف". واصلَت الحديثَ مع جدتي ونهضتُ أنا واقفا. ما أن بلغنا باب الشارع حتى كان الوداعُ قصيرا وبدأنا جدتي وأنا نعبرَ الليل. وبعد المرور تحت بعض الأشجار الضخمة ـــ كانت أشجار الماجنوليا مطفأةً ـــ هدّدتني جدتي حين نصلُ إلى المنزل: كنتُ قد أفسحتُ المجال لأن تعاقبني ثيلينا وفضلا عن ذلك لم أُرِد متابعةَ الدرس. لم تعد تهمّني الضربات التي قد أنالها منهم. فكرت أنني وثيلينا قد انتهينا. وكانت حكايتنا حزينة تماما. ولم يكن ذلك فحسب لأنها أكبر مني ـــ كانت تكبرني بثلاثين عام ـــ.

كانت علاقاتنا قد بدأت ـــ مثلما يحدث مراتٍ عديدة ـــ برابطةٍ عائلية قديمة. (كانت ثيلينا قد درست البيانو مع أمي وهما طفلتان صغيرتان. لابد أن عُمر أمي كان أربع سنوات). وكانت هذه الرابطة قد توقفت قبل أن أولد. وحين عاودت العائلاتُ الالتقاء، كنتُ أنا بين المستجدّات التي طرأت. لكن ثيلينا ألهمتني الرغبة في أن أكون بالنسبة لها أحد المستجدّات المثيرة للاهتمام. ورغم مظهرها القاسي ووجها الذي لا يضحك، كانت تنظرُ إليّ وتعاملني بطريقةٍ تُغريني بأن أراقبها: من المستحيل ألاّ تكون لديها رقّة. فحين تتحدّث إلى أمي كان يظهر أنها تحبها. وذات مرة، خلال الدروس الأولى، قالت أنني أُشبه أمي. حينها، في لحظات مقارنتها فيما بيننا، حين كانت تنظر إلى بعض قسمات أمي ثم إلى قسماتي، كان يبدو أن عينيها السوداوين تأخذان قليلا من التعاطف من قسمات أمي وتضعانه في قسماتي. لكنها سرعان ما تظل تنظر برهةً إلى قسماتي وعندها تجد شيئا مختلفا، تكتشف الجديد في شخصي وأبدأ أنا في الشعور بالرغبة في أن تواصلَ الانشغالَ بي. وفضلا عن ذلك، لن أكون مختلفا عن أمي في بعض القسمات فقط، بل كذلك في بعض أساليبِ الوجود. فقد كانت لي طريقةٌلم تكن لأمي في البقاءِ ساكنا بجانب كرسيٍ، وذراعي مستندةٌ على ظهره وساقي مثنية.

كنتُ على الدوام تقريبا أجد صعوبةً في خداع الأشخاص البالغين ــ وأنا أشيرُ إلى إحدى تلك الخدع التي تمتدّ حتى يصعبُ على البالغين اكتشافها ــ لذا لم أصدِّق أنني خدعتُ ثيلينا بأوضاعي حتى انقضاء وقتٍ طويل حين لفتَت هي انتباهَ أمي إلى حالتي الطبيعية للبقاء دائما في وضعٍ جيد. وصدّقتُ بالدرجة الأولى، لأنهما علّقتا أيضا على الأوضاع التي يتخذها بعضُ الأشخاص في نومهم. كان ذلك مؤكدا. يمكن القول تقريبا أن تلك الحقيقة قد استوعبت ولفّت كذبتي بمحبة. في البداية، أحدثَت لي ملاحظةُ ثيلينا استغرابا وعاطفة. لم تعرف أي مشاعر أثارتها فيّ. أولا كنتُ هادئا مثل كوب ماءٍ فوق منضدة؛ ثم مرّت هي قريبةً جدا ودون قصد تعثّرت بالمنضدة ورجّت ماءَ الكوب.

بدا لي كذِباً أن أكون قد نجحتُ في خِداعها. وعلى الفور بدأت أنظرُ إليها راغبا في معرفة إن كانت تضحك مني؛ ثم فكرتُ إن كنتُ، حقا، لا أستطيع إتخاذَ الأوضاع دون قصد. وأخيرا تذكرتُ أنني حين ألهمتني ثيلينا فكرةَ أنني يجبُ أن أروقها، حين أمتعني جدا افتراضُ ما يمكن أن تظنَّه عني، وحين بدأتُ أعتقدُ أن بي شيئا مثيرا للاهتمام، لا أدري ما هو، حينها قررتُ الاهتمام بأوضاعي بهدف محاولة جذبِ اهتمامها باستمرارٍ بطريقة وجودٍ أصيلة ومليئة بأوجه الجِدّة. أخذت هذه الذكريات تهدئني، كأن ماء الكوب على المنضدة التي تعثّرت فيها ثيلينا دون قصد، قد عادَ إلى الهدوء. الآن وقد استطعتُ خداعها ــ كما يمكن أن أخدعَ أي شخصٍ بالغٍ وخصوصا في زيارة ــ شعرتُ أنني أكثر استقلالا، أكثر شخصيةً: ويمكنني حتى العثورَ على الطريقة التي تقعُ بها ثيلينا في حُبي. لكن بالطبع، كان هذا بالغ الصعوبة؛ وفضلا عن ذلك، لما كنت خجولا جدا لم أكن لأجرؤَ على سؤال أحدٍ كيف يمكن عملُ ذلك. كان عليّ أن أقنع بأن أظلّ مثيرا للاهتمام، ومُجدِّدا، وأنتظر أن تُبدي هي بعضَ الإشارات. وفي هذه الأثناء سأمضي باحثا عن رقّتها ومختبئا بين الشجيرات الواقعة على جانب أحد الطرق التي تحملني باتجاهها. وعلاوة على ذلك، لو كانت لديها الرقّةُ التي أظنُّها، فسوف تدخلُ في صمتي وتخمّن رغبتي. لم أستطع الكفّ عن افتراض كيف سيكونُ شخصٌ صارمٌ لحظة أن يَلين، أن يصبح رقيقا مع شخصٍ يحبه. ربما ستلينُ تلك اليدُ المليئة بالعقد، ذات الندبة، لتمنح تربيتةً ولا يهمّ القماشُ السميك الأسود الذي يصل إلى المعصمين. ربما كان هذا كله جميلا ولطيفا، مثل كل الأشياء، حين تتلقى الأصواتَ المتصاعدة من البيانو. على الأرجح، بينما تربِّت عليّ، ستميلُ رأسها، مثلما في لحظة إضاءة المصباح،

بينما البيانو، مثل عجوزٍ ناعسٍ، لا يهمُّه أن يضعوا ذلك الضوء على جنبه.

الآن كانت ثيلينا قد مزّقت كلَّ الطرق إلى حطامٍ؛ ومزّقت أسرارا قبل أن يُعرف مضمونُها. واضحٌ على أية حال أن كلَّ الأشخاص البالغين مُفعمين بالأسرار. رغم حديثهم بكلماتٍ قوية، تكون تلك الكلمات مُحاطةً بأخرى لا تُسمع. أحيانا يتّفقون رغم قولهم أشياءَ مختلفة ويكون مدهشا تماما كيف يُديرون ظهورَهم وهم يعتقدون أنهم متواجهونأو يمضون في مواضع مختلفةٍ ومتباعدة وهم يعتقدون أن أحدَهم في حضور الآخر. ولما كنتُ طفلا، كانت لي حرية الدوران حول الأثاث الذي يجلسُ عليه أولئك الأشخاص؛ وبنفس الطريقة كانوا يتركونني أدورُ حول الكلمات التي يستخدمونها. لكنني الآن لم أعد أرغبُ في اكتشاف أسرار. بعد الدرس الذي ضربتني فيه ثيلينا بالقلم الرصاص، أخذنا نتعاملُ بحرصٍ من يتجنّبون عند سيرهم شذراتٍ من أشياء مكسورة. فيما تلا انتابني أسى أن تكون ثقتُنا واضحةً لكنها تبعث على الكآبة،لأن العنفَ جعل الأوهامَ تتطاير. كان الوضوحُ غير مواتٍ كأن الضوءَ قد أُضيء في السينما في قلب دراما. كانت براءتي بين يديها، مثلما كانت براءةُ أمي في زمنٍ آخر.

حين بلغنا المنزل — تلك الليلة التي ضربتني فيها ثيلينا وهدّدتني جدّتي في الشارع — لم يعاقبوني. كان الطريق مظلما: وجدّتي تفكُّ شفرةَ الكتل التي نُصادفها. كانت بعضها أشياءَ ساكنة، أعمدةً، أحجارا، جذوعَ أشجار، وأخرى أشخاصا يأتون في الاتجاه المعاكس وصادَفنا حتى حِصاناً شاردا. وبينما تحدث هذه الأشياء، انقشع غضبُ جدتي وبقي التهديدُ بين كتل الطريق وعلى ظهر الحصانِ الشارد.

في المنزل اكتشفوا أنني حزين؛ وأرجعوا ذلك إلى عقاب ثيلينا غير المألوف، لكنهم لم يشكّوا فيما كان بينها وبيني.

كانت واحدةً من تلك الليالي التي كنت فيها حزينا، كنت قد آويت إلى فراشي وأخذت الأشياءُ التي أفكر فيها تقتربُ من الحلم، حين بدأت أشعرُ بحضور الأشخاص كقطع أثاثٍ تُغيِّر موضعها. فكرت في هذا ليالي عديدة. كانوا قطع أثاثٍ تتحرك فضلا عن

قدرتها على البقاء ساكنة؛ وتتحركُ بإرادتها الخاصة. أحببتُ قطعَ الأثاث الساكنة ولم تكن تُطالبني بشيء؛ لكن قطعَ الأثاث التي تتحرك لم تكن تُطالب فحسب بالمحبة أو بقبلةٍ بل كانت لها مطالبُ أسوأ؛ وفضلا عن ذلك، سرعان ما تفتحُ مصاريعها وتقذفُ كل شيء فوق رأسِ المرء. لكن لم تكن المفاجآت دائما عنيفةً وسيئة؛ كان ثمة قِطعٌ تُفاجيء ببطءٍ وصمت كأن دُرجا ينفتح أسفلها وتبدأ في الظهور أشياءُ مجهولة. (كانت أدراج ثيلينا مغلقةً بالمفتاح). وكان ثمة أشخاص آخرون هم أيضا قطعُ أثاثٍ مغلقة، لكنهم من اللطف بحيث لو التزم المرءُ الصمتَ لشعر أن بداخلها موسيقى، مثل آلاتٍ موسيقية تعزفُ من تلقاء ذاتها. كانت لنا عمّةٌ مثل صوان ملابس ذي مرايا موضوعٍ على ناصيةٍ أمام الأبواب: لم يكن شيءٌ يفلت من الوقوع في مراياها وكان يجب استشارتها حتى في ارتداء الملابس. وكان البيانو شخصاً طيبا. كنت أجلسُ قربه؛ وبأصابعي القليلة أضغط على الكثير من أصابعه،سواء كانت بيضاء أو سوداء؛ وعلى الفور تخرج منه قطراتٌ من الأصوات؛ وبالجمع بين الأصابع وبين الأصوات، كنا كلانا نشعر بالحزن.

ذات ليلةٍ حلمتُ حلما غريبا. كنت في غرفة طعام ثيلينا. وكان ثمة عائلةٌ من قطع الأثاث الشقراء: البوفيه ومائدة بكل كراسيها حولها. بعدها أخذت ثيلينا تجرى حول المائدة؛ كانت مختلفةً بعضَ الشيء، كانت تتقافز كطفلة وأنا أجري وراءها بعصا على طرفها قطعةُ ورقٍ ملفوفة.

حدث شيءٌ غير متوقعٍ واضطررتُ لقطع هذا الحكي. منذ أيامٍ وأنا متوقفٌ. لست عاجزا عن الكتابة فحسب، بل عليّ أن أبذل جهدا ضخما لأتمكن من العيش في هذا الوقت الحاضر، لأتمكن من العيش صوبَ المستقبل. دون قصدٍ كنت قد بدأتُ أحيا صوبَ الوراء وأتت لحظةٌ لم يمكنّي حتى أن أحيا فيها الكثير من أحداث ذلك الزمن، بل توقفتُ عند قليلٍ منها، وربما عند واحدةٍ فقط؛ وفضّلتُ قضاء النهار والليل جالسا أو راقدا. وفي النهاية فقدتُ حتى الرغبةَ في الكتابة. وكانت هذه على وجه الدقة، آخرَ رابطةٍ مع الحاضر. لكن قبل أن تنحلّ هذه الرابطة، حدث ما يلي: كنت أحيا بهدوءٍ في إحدى ليالي ذلك الزمن. ورغم أنني أمضي بخطواتٍ بطيئة، خطوات مُسرنَمٍ، سرعان ما تعثرتُ في فكرةٍ صغيرة جعلتني أسقطُ في لحظةٍ مليئةٍ بالأحداث. سقطتُ في موضعٍ مثل مركز جذبٍ غريب تنتظرُني فيه بضعة أسرارٍ مُلثَّمة. هاجمَت تلك الأسرارُ

أفكاري، وقيّدتها، ومنذ تلك اللحظة أصارعُ للإفلات. في البداية، بعد انقضاء المفاجأة، تملّكني دافعُ إفشاء الأسرار. بعدها بدأت أشعرُ بتراخٍ معين، بمتعةٍ فاترةٍ معينة في مواصلة النظر، مُراقبا الفعلَ الصامت لتلك الأسرار وأخذتُ أغوص في المتعة دون أن أنشغلَ بفكِ قيود أفكاري. عندها أخذت تنحلّ ببطء، أخرُ الروابط التي تُخضِعني للحاضر. لكن حدث شيءٌ آخر في نفس الوقت. بين الأفكار التي قيَّدتها الأسرارُ المُلثَّمة، كانت فكرةٌ انفكّت وحدها بعد أيامٍ قليلة. عندها فكرت: "إذا بقيتُ زمنا طويلا أتذكر تلك اللحظات الماضية، فلن أعودَ أستطيع الخروجَ منها أبدا وسأجنُّ: سأكون مثل أحد أولئك التعساء الذين بقوا مع أحد أسرار الماضي طوالَ حياتهم. عليّ أن أجدّف بكل قواي صوبَ الحاضر".

"حتى أيامٍ قليلة مضت كنتُ أكتبُ وبذلك كنت في الحاضر. والآن سأفعلُ نفسَ الشيء، رغم أن الأرض الصلبةَ الوحيدة القريبة هي الجزيرةُ التي بها منزل ثيلينا ويجب عليّ أن أعود إلى نفس الشيء. سأفتّشهُ من جديد: فربما لم أبحث جيدا". عندئذ، حين تأهّبتُ للعودة إلى تلك الذكرياتِ ذاتها صادفتُ أشياءَ كثيرة غريبة. الجزء الأكبر منها لم يحدث في أزمنة ثيلينا تلك، بل الآن، منذ قليل، بينما أتذكّر، بينما أكتب، وبينما تأتيني علاقاتٌ داكنة وغير مفهومةٍ على الإطلاق، بين الأحداث التي وقعَت في تلك الأوقات وتلك التي وقعت فيما بعد، في كل الأعوام التي واصلتُ عيشها. لم أُفلح في التعرّف على نفسي تماما، لم أعرف جيدا أية تحركاتٍ مِزاجية متشابهة كانت في تلك الأحداث وفي تلك التي وقعت فيما بعد؛ إن كان ثمة شيءٌ متكافيء في هذه وفي تلك؛ إن لم تكن هذه وتلك أقنعةً مختلفةً لنفس اللغز.

لهذا السبب سأحاول الآن أن أحكي ما وقع لي منذ قليل، بينما أتذكر ذلك الماضي.

ذات ليلةٍ صيفية كنت أسيرُ نحو غرفتي، مُتعبا ومنقبضا. أسلمتُ نفسي للقصور الذاتي الذي تتخذه الأفكار حين يشعرُ المرءُ بالضرورة الخبيثة لمراكمتها دون سبب، حتى يشعرَ بأنه أشد تعاسةً ويُقنع نفسَه بأن الحياة خاليةٌ من السرور. وربما تبدّى الخداعُ في ألاّ يهمّني اللعبُ مع الخطر وفي أن الأشياء يمكن أن تصبح كذلك حقا؛ وربما كنت أعدُّ نفسي كي أبدأ كل شيءٍ من جديد

في اليوم التالي، وأستمدّ بهجةً أكثر من بؤسٍ أعمق. ربما كنتُ وأنا أُسلم نفسي لانقشاع الوهم، أقبضُ جيدا في عمق جيبي على العملاتِ المعدنية الأخيرة.

حين وصلتُ إلى المنزل كانت لاتزال تُرى تحت الأشجار الملتوية دون تقليمٍ، القمصانُ البيضاء للجيران الذين يشمُّون النسيم. بعد أن استلقيتُ وأطفأتُ النور، راقَني أن أشكو وأصبحَ متشائما، وأنا أتقلَّب ببطءٍ بين الملاءات الأشدِ بياضا من قمصان الجيران.

في واحدةٍ من تلك الليالي، كنتُ فيها أُعيد إحصاءَ السنين الماضية كأنها عملاتٌ تركتُها تنزلقُ من بين أصابعي دون اهتمامٍ كبير، زارتني ذكرى ثيلينا. لم أستغرِب ذلك مثلما لا يمكن أن أستغرِب زيارةَ صديقٍ قديم استقبِلُه كلّزمنٍ طويل. فمهما كنتُ مُرهقا، يمكنُني دوما تقديمُ ابتسامةٍ لمن وصل لتوّه. عادت ذكرى ثيلينا في اليوم التالي والأيام التي تلته. صارت موضعَ ثِقةٍ ويمكنني أن أتركَها وحدها، وأهتمَّ بأشياء أخرى ثم أعودُ إليها. لكن بينما أتركها وحدها، كانت تصنعُ بمنزلي شيئا لا أعرفه. لا أدري أيةَ أشياءٍ صغيرة كانت تُغيّرها وهل كانت تدخلُ في علاقةٍ مع أشخاصٍ آخرين يحيون الآن على مقرُبة. وبدا لي حتى أنها ذات مرةٍ أتت وحيّتني، تجاوزَتني بنظرتِهاولابد أنها قد تفاهمت مع أحدٍ في الخلفية. لكن تلك الذكرى وغيرها من الذكرياتلم تكن تكتفي بأن تتجاوزني بنظرتها؛ بل كانت بعضُ الأفكار تخترقُني أيضا وتبتعدُ بعد أن تبقى برهةًوجيزةً في حزني.

وفي إحدى تلك الليالي التي استيقظتُ فيها مكروبا انتبهتُ إلى أنني لستُ وحدي في غرفتي: سيكون الآخرُ صديقا. ربما لم يكن بالضبط صديقا: ربما كان شريكا. شعرتُ بكربِ من يكتشفُ أنه دون أن يدري كان يعملُ بالاشتراك مع آخرٍ وكان الآخرُ من يتولّي كلَّ شيء. ولم أكن بحاجةٍ للبحث عن البراهين: فهذه تأتي مختفيةً خلف الشكوكِ مثل كتلةٍ خلفَ قماش؛ كانت تغزوا الحاضر، وتأخذُ كل أوضاعها بينما أظنُّ أنا أنه هو، شريكي، من تفاهمَ من فوق كتفي مع ذكرياتي الخاصة وحاولَ المضاربةَ بها: كان هو من كتَبَ الحكي. هل كنتُ على حقٍ في تشككي في دقة الحكاية حين ظهرت ثيلينا! ربما حدث شيءُ أخرُ لي، لي حقا. عندئذ حاوت أن أُصبح

وحيدا، أن أكون وحدي، أن أعرف كيف كنتُ أتذكر. وبهذه الطريقة توقّعتُ أن تُعاود الأشياءُ والذكريات الحدوثَ من جديد.

في آخر أمسياتِ مسرحِ ذاكرتي ثمة لحظةٌ تدخل فيها ثيلينا وأنا أتذكرها لا أدري كيف. تدخل هي، ببساطة؛ وفيتلك اللحظة أكونُ مشغولا بالإحساس بها. في لحظةٍ خاطفة معينة يتّسعُ لي الوقتُ لأنتبه أن نسمةً من المتعة هبّت عليّ لأنها جاءت. تسترخي الروحُ لتتذكر، مثلما يسترخي الجسدُ في مقعد سينما. لا أستطيع أن أفكر إن كانت أشعّة العرض دقيقةً، إن كنتُ جالسا في الخلفية تماما، من هم جيراني أو إن كان ثمة من يراقبني. لا أدري إن كنتُ أنا نفسي عامل التشغيل؛ كما لا أدري إن كنتُ قد جئتُ أم أن أحدا أعدّني وأحضرني للحظة التذكر. لن أستغرب أن تكون ثيلينا ذاتها: منذ تلك الأوقات يمكن أن أكون قد خرجتُ من جانبها بخيوطٍ تستطيلُ نحو المستقبل وتظل هي تتحكّم فيها.

لا تدخل ثيلينا دائما في الذكرى كما دخلت من باب صالةِ منزلها: فأحيانا تدخل وهي جالسةٌ بالفعل إلى جانب البيانو أو في لحظة إضاءةِ المصباح. أنا نفسي، بعينيّ الحاليَّتين لا أتذكرها: أتذكر العينين اللتين كانتا تنظران إليها في ذلك الزمن؛ تلكما العينان تنقلان إلى هاتين العينين صورها؛ كما تنقلان الشعورَ الذي تتحرك فيه الصور. في ذلك الشعور ثمة رقةٌ أصلية. عينا الطفل مندهشتان لكنهما لا تنظران بتدقيق. ما أن ترسُم ثيلينا حركةً حتى تنتهي منها؛ لكن تلك الحركات لا تحتكُّ بأي هواءٍ في أي فضاءٍ؛ هي حركاتُ عيونٍ تتذكر.

كانت أمي أو جدتي قد طلبتا منها أن تعزف فجلست أمام البيانو. ستفكر جدّتي: "ستعزفُ المعلمة"؛ وأمي: "ستعزفُ ثيلينا:؛ وأنا: "ستعزفُ هي". مؤكدٌ أن الوقت صيفٌ لأن ضوءَ المصباح يتخلّلُ بالشفافية الأجراسَ البيضاء لأكمامها وذراعيها العاريتين؛ تتحرك الذراعان متموِّجتين موجاتٍ تنتهي باليدين، والمفاتيح، والأصوات. في الصيف أُحسُّ أكثرَ بطعم الليل، بظلال انعكاساتِ النباتات، بالأخبار المدهشة، بانتظار أن يحدثَ شيءٌ، بالمخاوفِ الخاطئة، بما بين الأحلام، بالكوابيس، بالأطعمة الشهية. كما أحسُّ أكثر بطعم ثيلينا. ليس لها فحسب طعمٌ كأنني أُجرِّبها في فمي. فكل حركاتها لها طعمُها هي؛ وثيابُها وهيئاتُ جسدها. في ذلك الزمن لابد أن صوتها أيضا كان له طعمُها؛ لكنني

الآن لا أتذكر مباشرةً شيئا له علاقةٌ بالسمع؛ لا صوتها، ولا البيانو، ولا ضوضاء الشارع؛ أتذكر أشياء أخرى وقعت حين كان في الهواء صوتٌ. سينما ذكرياتي صامتةٌ. إذا كان باستطاعتي كي أتذكر أن أنظر بعينيّ القديمتين، فإن مسامعي صماء تجاه الذكريات.

الآن انقضت بضعُ لحظاتٍ خرج فيها الخيالُ، مثل حشرةٍ ليلية، من الصالة ليتذكّر طعومَ الصيف وطار مسافاتٍ لا يعرفها الليلُ ولا الدُّوار. لكن الخيال لا يعرفُ أيضا من هو الليل، من يختارُ داخله مواقعَ المنظر الطبيعي، حيث يُقلِّبُ حفَّارٌ أرضَ الذاكرة ويبذُرها من جديد. وفي الآن ذاتِه يُلقي أحدٌ على أقدامِ الخيال شذراتٍ من الماضي فيختار الخيالُ مُتعجِّلا بمصباحٍ صغير يُحرِّك، ويهزّ، ويري من بين الشذرات والظلال. وسرعان ما يسقُط منه المصباحُ الصغير في أرض الذاكرة فينطفيءُ كل شيء. عندئذ يعود الخيال ليصبح حشرةً تطيرُ مُتناسيةً المسافات وتحطُّ على حافة الحاضر. والآن، فإن الحاضر الذي وقعَت عليه هو من جديد صالة ثيلينا وفي هذه اللحظة لا تعزفُ ثيلينا البيانو. الحشرةُ التي تطير في الذاكرة تراجعَت في الزمن ووصلت قبل أن تجلسَ ثيلينا أمام البيانو بقليل. تعاودُ جدتي وأمي مطالبتها بأن تعزفَ وتفعلان ذلك بطريقةٍ مختلفة عن المرةِ الأولى. في هذه الرؤيا الأخرى تقول ثيلينا أنها لا تتذكر. تُصبح عصبيةً وعند توجّهها إلى البيانو تتعثّر في كرسي ــــ لابد أنه أصدر بعض الضوضاء ــــ؛ ولا يجب أن ننتبه نحنُ لذلك. تكتسبُ هي قصورا ذاتيا بدافعٍ قوي وتتجاوزُ الحادثَ ناسيةً إياهُ على الفور. تجلس أمام البيانو، ونتمني نحن ألاّ يحدثَ لها شيءٌ سيء. هاهي ستبدأ ولم يكد يُتاح لنا الوقتُ لافتراض أنه سيكونُ شيئا بالغ الأهمية وأننا سنحكيه بعدها لأقاربنا. ولما كانت ثيلينا عصبيةً وتفهم هي أيضا أن المعلمة هي من ستعزف، تحاول جدتي وأمي إكسابَها بعضَ النجاحِ مُقدّما؛ تُبالِغان في أفضل افتراضاتهما، وتنتظران بشغف أن تبدأ ثيلينا العزف، حتى تضعا وتُرسّخا في الواقع ما فكرتا فيه من قبل.

الأشياءُ التي عليّ أن أتخيلها شديدةُ الكسل وتتأخّرُ كثير في إعدادِ نفسها لتأتي. الأمرُ مثلما حين أنتظرُ النعاس. ثمة أنواعٌ من الضوضاء أتعوّدُ عليها بسرعة ويمكنني أن أتخيل أو أنام كأنها غير موجودة. لكن الضوضاء والأحداث الصغيرة التي ملأت

بها تلكم النساءُ الثلاث الصالةَ رجّت رأسي في كل اتجاه. حين بدأت ثيلينا العزف، تسلّيتُ بتلقّي ما كان يصلُ إلى عينيّ ومسامعي؛ أخذتُ أعتاد أسرعَ مما يجب على ما يحدثُدون أن أندهشَ كثيرا ودون إعطاء قيمةٍ كبيرة لما كانت تفعله.

كانت أمي وجدتي قد بقيتا كأنما في منتصفِ تنهيدةٍ وربما انتابهما الخوفُ من أنهما، في اللحظة الدقيقة التي سيكون عليهما فيها أن تبذلا أقصى جهدٍ للفهم، ستكون أجنحتُهما بائسةً وقصيرة المدى مثل أجنحةِ الدجاج.

ومن الممكن أنني، بعد انقضاء اللحظات الأولى، قد سئمتُ كثيرا.

توقّفتُ من جديد. أنا متعبٌ جدا. توجَّب عليّ أن أُقيمَ الحراسةَ حول ذاتي حتى لا يدخلَ هو، شريكي، في لحظة الذكريات. قلتُ بالفعل أنني أريدُ أن أكون وحدي. ورغم ذلك، لتجنّب أن يأتي هو يجبُ أن أفكر فيه دوما؛ بشذرةٍ من ذاتي شكّلتُ الحارسَ الذي يقوم بحراسة ذكرياتي وأفكاري؛ لكنني في الوقت ذاته يجب أن أراقبَ الحارسَ حتى لا يتسلّى بحكايةِ الذكريات وينام. ومازال عليّ أن أُعيره عينيّ أنا، عينيّ الحاليَّتين.

عيناي الآنَ مِلحَاحتان، قاسيتان، تتطلّبان جهدا ضخما من عينيّ ذلك الطفل الذي لابد أنه متعبٌ ولابد أنه صارَ عجوزا. وفضلا عن ذلك عليه أن يرى كلَّ شيءٍ بالمعكوس؛ إذ لايُسمحُ له بأن يتذكر ماضيه: عليه أن يصنع معجزةَ أن يتذكّر صوبَ المستقبل. لكن، لماذا، وأنا أشعر بأنني أنا ذاتي، أرى فجأة كل شيءٍ مختلفا؟ هل ينظر شريكي بعينيّ؟ هل تكون لنا عينان مشتركتان؟ أيكون حارسي قد نعس ويكون هو قد سرق منه عينيّ؟ ربما لا يكفيه أن يرى ما يجري في الشارع عبر نوافذ غرفتي بل يريد أيضا أن يري عبر عينيّ؟ إنه لقادرٌ على فتح عينيّ ميّتٍ ليفتّش محتواها. إنه يلاحق ويضطهد عينيّ ذلك الطفل؛ يدقّق النظر ويُمحِّص كل قطعةٍ من الذكرى كأنه يفكّك ساعةً. يتوقف الطفلُ مرعوبا ويُقاطِع رؤياه في كل لحظة. مازال الطفل لا يعرف ـــ وربما لن يعرفَ على الإطلاق ـــ أن صُورَهُ ناقصةٌ ومتضاربة؛ ليست لديه فكرةٌ عن الزمن ولابد أنه دمَج ساعاتٍ كثيرة وليالٍ كثيرة في واحدةٍ وحيدة. خلطَ بين حركاتِ أشخاصٍ كثيرين؛ اعتقدَ أنه وجدَ مشاعرَ متشابهةً في كائناتٍ مختلفة وارتكبَ أخطاءً مليئة بالبهجة. الأعين الحالية تعرف تلك الأشياء، لكنها تجهل أشياءَ كثيرة أخرى؛ تجهلُ أن الصُوَرَتتغذّى

على الحركة ويجب أن تحيا في شعورٍ نائم. يوقفُ شريكي الصورَ فيستيقظُ الشعور. يُنشِبُ نظرتَه في الصور كأنه يُثبِّتُ فراشاتٍ بالدبابيس في ألبوم. رغم أن صورَ الطفلِ قد تبدو ساكنةً، فإنها تتغذَّى بنفس القدر على الحركة: ثمة شخصٌ يجعلُ الحركات تنبضُ وتحلم. وذاك الشخص هو من تخونُه عيناي الحاليتان. حين تتناولُ عينا الطفل جزءا من الأشياء، فإنه يفترضُ أنها مكتملةٌ. (ومثلما بالنسبة للأحلام، لا يهم الطفلَ إن كانت صورُه شبيهةً بصور الحياةِ الواقعية أو إن كانت كاملةً: إنه يستمر كأنها كذلك وهذا كلُ ما في الأمر). حين نظرَ الطفلُ إلى الذراع العارية لثيلينا شعرَ بأنها برمّتها في تلك الذراع. العيون الحاليةُ تُريد التمعّن في فم ثيلينا فتجد أنها لا تستطيعُ معرفةَ كيف كان شكلُ شفتيها في علاقته بأشياءِ الوجهِ الأخرى؛ تُريد أن تأخذَ شيئا فتجد نفسَها دونَ أيّ شيء؛ فقدت الأجزاءُ العلاقةَ الملغزة التي توحّدها؛ تفقد توازنَها، تنفصلُ ويتوقّفُ التفاعلُ التلقائي بين أبعادها؛يبدو أن رسّاما سيئا صنعها. إذا شاءَ أن يُحرِّك الشفتين ليرى إن كان ثمة كلمات، تكون الحركاتُ بالغةَ الزيف مثل حركات دميةٍ حمقاء ذات خيوط.

هناك لحظةٌ وحيدة ترى فيها العينان الحاليتان جيدا: هي اللحظةُ الخاطفة التي تلتقيان فيها بعينيّ الطفل. عندها تنقضُّ العينان الحاليتان بنهمٍ على الصورِ مُعتقدةً أن اللقاء سيكونُ طويلا وأنهما ستصلان في موعدهما. لكن عينا الطفل تحميهما براءةٌ تحيا غير منظورةٍ في هواء العالم. ورغم ذلك تُصرّ العينان الحاليتان حتى التعب. قبل أن ينام، يحاولُ شريكي تذكُّرَ وجه ثيلينا وحين يُحرّك ماءَ الذكرى تتشوّهُ الصورُ الموجودة تحتَه كأنها مرئيةٌ في مرايا عادية تتحرك فيها بُؤَرُ الزجاج.

فور أن أنتبه إلى أن الذكرى قد انقضت أحسُّ في عينيّ بعدم ارتياحٍ بدني، حاضر، مثل لسعة دموعٍ جفّت على الجفنين.

منذ أيامٍ قليلة، عند حلول الليل، وقع حدثٌ غريب ودون سوابق في شخصي. من قبل، مهما بلغت غرابةُ ما يحدث، كنت دائما أجدُ له سوابقَ: في موضعٍ ما من روحي يكون مخبوءاً مبدأٌ لذلك الحدث، وفي مرةٍ أخرى يكون قد بدأ بالفعل التدريب، داخل وجودي، على مقطعٍ ــــ ربما كان حبكة ــــ ذلك العرض الأخير. لكن منذ بضعة أيام، عند حلول الليل، افتُتِح في داخلي حفلٌ تمثيلي دون إعلانٍ مسبق. ولا أدري هل أخطأت الفرقةُ المسرحية المسرحَ، أم أنها ببساطةٍ قد هاجمته. إذا سُمِّيت حالتي عند حلول الليل

ذاك بأنها مرضٌ، لأمكنني القول بأنني لم أكن أعرف أنني مستعدٌّ مسبقا للإصابة به؛ وإذا كان ذلك المرضُ عقابا، لأمكنني القول بأنهم قد أخطأوا شخصَ مُرتكِب الجريمة. لم تكن الحالة أنني أشعرُ قُربي بشريك: فخلال بضع ساعاتٍ، كنتُ أنا، أنا بكاملي، شخصا آخر: جلبَ المرضُ معه شرطَ تغييري. كنت في وضع شخصٍ افترض طوال حياته أن الجنونَيجري بطريقةٍ معينة؛ وذات يوم جميلٍ، حين يشعرُ بأن الجنونَ هاجمَه ينتبه ليس فقط إلى أن الجنون ليس كما تخيَّله، بل إلى أنمن يعانيه، هو آخرُ،أصبح آخر، وهذا الآخرُ لا تهمُّه معرفةُ كيف يكون الجنون: فهو يجد نفسَه موضوعا بداخله أو يجده موضوعا بداخله لا أكثر.

بينما لم أكن قد كففتُ عن كوني من أنا ولم أصبح بعد من سأكون، اتسع لي الوقتُ لأعاني عذاباتٍ بالغة الخصوصية. فبين الشخص الذي كنتُه والشخصِ الذين سأكونه، بقي شيءٌ مشترك: الذكريات. لكن الذكريات، بقدر ما تصبح منتميةً إلى الشخص الذي سأكونه، ورغم احتفاظها بنفس الحدود البصرية والتنظيمِ الظاهر للبيانات، أخذت تكتسبُ روحا مختلفةً. بدأت ترتسم على الشخص الذي سأكونُه ابتسامةُ مُرابٍ، أمام التقييم الذي يمنحُه للذكريات من أتى ليرهِنها. فقد وَزَنَت يدا مرابي الذكريات خاصيةً أخرى لها: لا الماضي الشخصي، المحمّلِ بالمشاعر الحميمة والخاصة، بل وزنِ قيمتها الكامنة.

بعد ذلك أتت مرحلةٌ أخرى: صارت الابتسامةُ ممرورةً ولم يعد مُرابي الذكرياتِ يزنُ شيئا في يديه: وجد نفسَه مع ذكرياتٍ رملية، ذكرياتٍ تُشيرُ، ببساطةٍ، إلى زمنٍ انقضى: سرقَ المرابي ذكرياتٍ وأزمنةٍ بلا قيمة. لكن أتت مرحلةٌ أسوأ. فحين ظهرت على المرابي ابتسامةٌ ممرورةٌ لأنه سرقَ بلا جدوى، كانت لا تزال له روحٌ. بعدها أتت مرحلةُ اللامبالاة. انمحت الابتسامةُ وصار هو من كان مدعُواً لأن يكونَه: شخصا غير مهتم، عربةً مفكوكة عن الحياة.

في البداية، حين بدأتُ عند حلول الليل ذاك في التذكر وفي أن أُصبِح آخر، رأيتُ حياتي الماضية، مثلما في غرفةٍ مجاورة. قبلا، كنتُ قد وُجِدتُ وعشتُ في تلك الغرفة؛ وأكثر من ذلك، كانت تلك الغرفةُ غرفتي. والآن أراها انطلاقا من أخرى، من غرفتي الآن، ودون أن أنتبهَ جيدا إلى المسافةِ المكانية ولا الزمانية بين الاثنتين. في تلك الغرفة المجاورة، كنتُ أرى ذاتي

البائسةِ السابقة، حين كنتُ بريئا. ولم أكن أراها فحسب جالسا على البيانو مع ثيليناوالمصباحُ إلى جانبٍ ومحاطا بالجدة والأم، الجاهلتين تمامابغرامي الفاشل. فقد كنت أرى غرامياتٍ أخرى. من كل الأمكنة ومن كل الأزمنة كانت تأتي شخوصٌ، وقطعُ أثاث، ومشاعرُ، من أجل احتفالٍ بدأه "سكّان" صالة ثيلينا. لكن رغم أنها لحظة وصولها تختلطُ مع بعضها أو تتشوَّشُ مع بعضها ــ كأنما تتداخل شذراتٌ من أفلامٍ قديمة ــ كانت تنعزلُ على الفور وتتعرّف على بعضها وتتجمعُ منها معا ما تنتمي إلى نفسِ الصالة؛ تختارُ بعضَها بغريزةٍ تملؤها الثقة ــ رغم أن تأملاتٍ لاحقةٍ تُبيّنُ العكس ــ. (كانت بعضها، حتى بعد هذه التأملات، ترفضُ الانفصالَ وفي النهاية لا تملك سوى الإذعان. وكانت غيرُها تصرُّ وتنجح في إخراسِ أو تشويش التأملات. وثمة أخرى تختفي بالسرعة التي تُزيحُ بها ريحٌ ورقةً من على منضدتنا. وكانت بعضُ تلك التي تختفي كأن الريح حملتها، تحلّقُ متردّدة، وتحملُ نظراتِنا وراء تحليقها فنرى أنها ستسقط في موضعٍ آخر معروف). وبعد إبداء هذه التحفظات يمكنني القول أن كل المواضع، والأزمنة، والذكريات التي تتعاطفُ وتتوافدُ على ذلك الاحتفال، مهما وحّدتها خيوطٌ وعلاقات رهيفة، تتمتعُ بفضيلة الجهلِ التام لوجودِ أخرى غيرها لا تكون من نفس فصيلتها. وحين تستعرض فصيلةٌ ذكرى تاريخها، كان من عادتها أن تبقى طويلا في الموضع المجاور للذي أكونُ فيه حين أراقبُ. فجأةً تتوقفُ، وتبدأُ مشهدا من جديد أو تتدربُ على مشهدٍ آخر كان سابقا جدا. لكن التوقُّفات والتغيُّرات الحادة، كان يجري كتمُها كأن التعثرات تصنعها خطواتٌ من حرير. لم تكن تخجلُ أبدا من خطئها وتتأخر كثيرا حتى تتعب أو تتشوه ابتسامتُها، التي تتكرر آلآف المرات. دائما، كان شعورٌ بالتوقِ يبحث عن تفصيلةٍ ضائعة في الفعل يُنشّطُ كلَّ شيءٍ من جديد. وحين تجلبُ تفصيلةٌ غريبة الفصيلةَ التي تُناظر الدخيل، كانت السابقةُ تتلاشى؛ وإذا ظهرت من جديد بعد برهة، كانت تظهرُ دون ضغينة.

كان التعاطفُ الذي يُوحِّد بين هذه الفصائل التي تجهل بعضها وليست مستعدةً أبدا للنظر إلى بعضها، يحلّقُ فوق رؤوسها؛ كان سماءً من البراءة ومن نفس الهواء الذي تتنفَّسُه جميعها. وفوق ذلك، علاوةَ على اجتماعها في نفس الموضع وفي زمان قريبٍ من أجل الاحتفال وتدريبات الذاكرة، كان بينها شيءٌ آخر مشترك: مثل أوركسترا واحدة تعزف "لفرق باليهٍ" مختلفة؛ تتلقى جميعُها الإيقاعَ الذي يحدِّدُه لها تنفّسُ من يشاهدها. لكن من يشاهدها ــ أعني، أنا، قبل قليلٍ جدا من بدء تحوّلي إلى آخر ــ يشعرُ بأن

سكّان تلك الذكريات، رغم قيادتهم من جانب من يشاهدها ومتابعتهم لنزواته بخضوعٍ سحري، يُخفون، في الآن نفسه، إرادةً تخصّهم مُفعمةً بالكبرياء. في طريق الزمن الذي انقضى منذ أن أدّوا أدوارهم لأول مرة، ـــ قبل أن تكون ذكرياتٍ ـــ وحتى الآن، يبدو أنهم صادفوا أحدا حدّثهم عني بالسوء ومن حينها كان لهم استقلال معين؛ والآن، رغم أنهم لا حيلة لهم سوى إطاعةِ أوامري، فإنهم يؤدون مهمتهم وسط صمتٍ يُثير الشك؛ وأنتبه أنا إلى أنهم لا يحبونني، أنهم لا ينظرون إليّ،أنهم يُطيعون مستسلمين مصيراً مفروضا من جانبي، لكن دون أن يتذكروا حتى هيئة شخصي: ولو كنتُ دخلتُ في مجالهم، لما تعرَّفوا عليّ بالتأكيد. وفضلا عن ذلك، فإنهم يحيون خاصيةَ وجودٍ لا تسمح لي بلمسِهم، ولا الحديث معهم، ولا جعلِهم يستمعون إليّ؛ أنا محكومٌ عليّ بأن أكون شخصا من الزمن الحالي؛ وإذا شئتُ تكرارَ تلك الوقائع، فلن تكون هي نفسها أبدا. تلك الوقائع تنتمي إلى عالمٍ آخر ومن العبث الجري وراءها. لكن، لماذا لم أستطع أن أسعد برؤية أولئك السكان يحيونَ في عالمهم؟ هل يكون الأمر أن نَفَسي يلوِّثهم أو يؤذيهم لأنني الآن مصابٌ بمرضٍ ما؟ هل تكون تلك الذكريات مثل أطفالٍ يشعرون فجأةً بنوعٍ من النفور الغريزي من آبائهم أو يظنُّون بهم السوء؟ هل عليَّ أن أنبذ تلك الذكريات مثلما ينبذ أبٌ سيءٌ أبناءه؟ لسوء الحظ، حدث شيءٌ من ذلك.

في الغرفة التي أحتلُّها الآن، ثمة ذكرياتٌ أيضا. لكنها لا تتنفّس هواءَ أية سماءِ براءةٍ ولا تملكُ كبرياءَ الانتماء إلى أية فصيلة. إنها مرتبطةٌ بشكلٍ قدريّ برجلٍ لديه "إحساسٌ بالذنب"[1] وبينهما تفاهمُ التواطؤ. هذه الذكريات لم تأت من أماكن نائية ولم تحمل خطواتٍ راقصة؛ بل أتت من تحت الأرض، مُحمَّلةً بالحسرات وزاحفةً في جوٍ ثقيل، حتى في أبهى ساعات النهار.

خانقٌ ومشوَّشٌ ذلك التاريخ الذي تشكَّل في حياتي، منذ أن كنتُ طفل ثيلينا وحتى أصبحتُ الرجل ذا "الإحساس بالذنب"[1].

بعض النساء كنّ يرين طفلَ ثيلينا، وهن تتحدّثن مع الرجل. ولم أكن أعلم أن ذلك الطفل مرئيٌ في الرجل. لكن الطفلَ ذاته هو من لاحظَ ومن قال لي أنه مرئيٌ فيَّ، أن تلك النساء تنظرن إليه وليس إليّ. وفي المقام الأول، كان هو من جذبهُن وخدعهن أولا. ثم خدعهُن الرجلُ مستفيدا من الطفل. تعلّم الرجلُ أن يخدعَ كما يخدعُ الأطفال؛ وكان لديه الكثير مما يتعلمه وينسخه. لكنه لم يحسِب حسابَالحسرات وحساب أن الخِدع، ولو تم تطبيقها على

قِلةٍ من الأشخاص، فإنها تتضاعفُ في وقائعِ وذكريات لحظاتٍ كثيرةٍ من النهار والليل. لهذا السبب حاول الرجلُ الهروبَ من الحسرات وأراد الدخولَ إلى الغرفة التي كانت له من قبل، حيث بدأ الآن سكّانُ صالةِ ثيلينا احتفالهم. لكن حزنَ أنهم لا يحبونه في تلك الفصائل لدرجة أنهم لا ينظرون إليه أخذ يتزايدُ، عند تذكّر بعض الأشخاصِ المخدوعين. كان الرجلُ قد خدع أولئك الأشخاص بحيلِ الطفل؛ لكن الطفلَ خدعَ بعدها نفسَ الرجلِ الذي استخدمه، لأن الرجل وقعَ في غرام بعض ضحاياه. كانت غرامياتٍ متأخرةً، كأنها غرامياتُ شذوذٍ ناءٍ وأسطوري. ولم يكن هذا أسوأ ما في الأمر. إذ كان الأسوأ أن الطفل، بقوته وجاذبيته، تمكن من إغواء ذات الرجلِ الذي أصبَحه فيما بعد؛ لأن مباهج الطفل أكبر من مباهج الرجل ولأن الطفلَ تبهجه الحياةُ أكثر من الرجل.

وفي ساعات حلول الليل ذاك، حين انتبهتُ إلى أنني لم يعد يمكنني الوصولُ إلى احتفال الفصائل التي تحيا تحت نفس سماءِ البراءة، بدأتُ أُصبِحُ آخر.

أدركت أولا أن ممثِّلي تلك الفصائل لا ينظرون إليّ، لأنني على الجانبِ الآخر من الذكريات، لأنني ممن تُثقِل ظهرّهم الحسرات؛ والحمولةُ ملتصقةٌ جيدا مثل سنام الجمال. وأدركتُ بعدها أن جانبي الذكريات مثل جانبي جسدي: كنت أرتكزُ على جانبٍ أو آخر، أُغيِّر وضعي كمن لا يستطيعُ النومَ ولا يدري أي جانبٍ من الجانبين سيكون النومُ من نصيبه. لكنه قبل أن ينام كان تحت رحمةِ الذكريات مثل مُشاهدٍ مضطرٍ لحضور عمل فرقتين تمثيليتين لهما خصائص شديدة الاختلاف ودون أن يدري أي مشهد أو أية ذكريات ستُضاءُ أولا، وكيف سيكون تبادُلها والعلاقات بين يمثلون، فالفرقتان لهما مسرح ومنتجٌ مشتركان، ويشارك على الدوام تقريبا نفسُ المؤلف ويعمل دائما طفلٌ ورجلٌ.

عندئذ، حين عرفتُ أنني لا يمكنني الاستغناءُ عن تلك العروض وأنها رغم كونها غير دقيقةٍ وتؤَدَّى في زمنٍ بالغ الاختلاط، لها تأثيرٌ بالغ القوة على الحياة المتجهة صوبَ المستقبل، عندها، بدأت أُصبحُ آخر، بدأتُ أُغيِّرُ الحاضرَ وطريقَ المستقبل، بدأتُ أُصبحُ المرابي الذي لم يعد يزِن شيئا في يديه وأحاول إلغاءَ الفضاء الذي تجري عليه كلُّ عروض الذكرى. صار لديّ تراخٍ كبيرٌ في الشعور؛ لم أُرِد أن تكون لي مشاعرُ ولا أن أعاني مع

الذكريات التي كانت فيما بينها مثل أعداءٍ ألِدّاء. ولما لم تكن لي مشاعرُ كنتُ قد فقدتُحتى حزني الخاص؛ لم أحزن حتى لأن الذكريات تشغل حيّزا بلا جدوى.فأنا أيضا صرتُ بلا جدوى كأنني أقوم بالحراسة حول قلعةٍ ليس بها جنودٌ، ولا أسلحةٌ، ولا مؤن.

لم تتبق لي سوى عادة نقلِ خطواتي والنظر إلى كيف تأتي الأفكارُ؛ كانت مثل حيواناتٍ اعتادت القدوم لتشرب من موضعٍ لم يعد فيه المزيدُ من الماء. لم تكن أيةُ فكرةٍ تحمل مشاعر: يمكنني التفكيرُ، بهدوء، في أشياء حزينة: لم تكن سوى موضوعاتٍ للتفكير. الآن تقترب مني الذكرياتُ كأنني مُتمدِّدٌ تحت شجرةٍ وتسقطُ فوقي الأوراق: سأراها وأتذكرها لأنها سقطَت عليّ ولأنها فوقي. ستكون الذكرياتُ الجديدة كأنها مربوطةٌ بحبلٍ وتوضعُ في رأسي: عند استمراري في السير سأحسُّ بها تزِنُ في رأسي لا أكثر. كنتُ مثل حصانِ الطفولةِ الشارد ذاك؛والآن أجرّ ورائي عربةً ويمكن لأيٍ كان أن يُحمِّلَ عليها أشياء: لن أحمِلها إلى أي مكانٍ وسأتعبُ بسرعة.

تلك الليلة، بعد برهةٍ من استلقائي، فتحت جفنيَّ فترك الظلامُ عينيَّ خاويتين. لكن في نفس اللحظة بدأَت تنهضُ هياكلُ عظميةٌ لأفكار —— لا أدري أيّ دودٍ ألتهَم رِقَّتَها ——. وفي تلك الأثناء، بدا لي أنني أفتحُ، بالبطء الأشد تراخيا، شمسيةً بلا قماش.

هكذا قضيتُ الساعات التي كنتُ فيها آخر. بعدها نمتُ وحلمتُ أنني في قفصٍ هائل بصحبة أشخاصٍ عرفتُهم في طفولتي؛ وعلاوة على ذلك كان هناك العديدُ من العنزاتِ التي تخرج من بابٍ لتمضي إلى المذبح، وبين العنزات طفلةٌ مأخوذةٌ أيضا إلى القتل. كانت الطفلةُ تقول أنها لا تريدُ الذهابَ لأنها مُتعَبةٌ وكان كل أولئك الناس يضحكون على الطريقة التي تُريد بها البريئةُ تجنُّبَ الموت: لكن الذهاب إلى الموت بالنسبة لهم كان شيئا يجب أن يكون هكذا وما من سببٍ للتألم.

حين استيقظتُ انتبهتُ إلى أن الطفلة، في الحلم، كانت تُعتبر عنزةً من جانبي أيضا؛ كان لديّ الشعور بأنها عنزة؛ لم أحس بالاختلاف إلاّ كمجرد تنويعةٍ في الشكل وكان من الطبيعي أن تُعامَل معاملة العنزة. لكنني رغم ذلك حرّك مشاعري أن تكون قد قالت أنها لا تريد الذهاب لأنها متعبة؛ وكنتُ غارقا في الدموع.

خلال الحلم كان مَدُّ العذابات قد صعد حتى كاد يُغرقني. لكنني الآن مثل المُنطرح على شاطيءٍ بارتياحٍ عظيم. أخذتُ أصبحُ أكثر سعادةً بقدر ما تتحسّس أفكاري كلَّ مشاعري وأجدُ نفسي. لم أعد آخرَ، بل أنني صرتُ أشدَّ حساسيةً من أي وقت مضى: فكلُّ فكرةٍ، حتى فكرة دورقٍ به ماء، تأتي مفعمةً بالرقة. أحببتُ فَردَتي حذائي، اللتين كانتا وحيدتين، مفكوكتين، ورفيقتين دوما الواحدة بجوار الأخرى. شعرتُ بقدرتي على غفرانِ أي شيء، حتى الحسرات. ـــ ستكون هي بالأحرى التي يجبُ أن تغفِر لي ـــ.

لم يكن النهار قد طلَع بعد. في داخلي كان كلُّ شيء قد أخذ يتّضِح قبل طلوع النهار بقليل. كنت قد فكرت في الكتابة. عندها عاودَ شريكي الظهور: كان هو أيضا قد نجا: كان قد انطرحَ على موضعٍ آخر من الشاطيء. وفور أن فكرتُ في كتابة ذكرياتي، عرفتُ أنه سيظهر.

في البداية، ظهرَ شريكي كالمعتاد: مُتجنِّباً حضورَه المادي، لكن مُهدِّدا بالدخول في الواقع بالهيئة المبتذلة التي يحملها أيُّ شخصٍ يأتي من العالم. لأنني قبل ذلك الفجر، كنتُ في مكانٍ والعالمُ في مكانٍ آخر. بين العالم وبيني كان ثمة هواءٌ ثقيلٌ جدا؛ وفي الأيام البالغةِ الصفاء كنتُ أستطيعُ رؤية العالم من خلال ذلك الهواء وأعاني كذلك من ضوضاء الشارع والغمغمة التي يُحدِثها الأشخاصُ حين يتكلمون. كان شريكي ممثِّل الأشخاص الذين يسكنون العالم. لكنه لم يكن دائما عدائيا تجاهي يأتي ليسرقَ ذكرياتي ويُضارِب فيها؛ فأحيانا كان يتمثّلُ على وشكِ أن يكون أُمّاً تحذِّرني من خطرٍ وتوقظُ فيّ غريزةَ البقاء؛ وأحيانا أخرى كان يُوبّخُني لأنني لا أخرجُ إلى العالم؛ ـــ وكأن أمي هي التي توبّخني، كنتُ أخفِضُ عينيّ ولا أراه ـــ؛ كذلك كان يظهر كصديقٍ ينصحُني بأن أكتب ذكرياتي ويوقظُ خيالائي. وأكثر ما كنتُ أُقدِّره حين يقترح عليّ حضور أصدقاءٍ أكونُ قد أحببتهم كثيرا وساعدوني على الكتابة مقدّمين لي نصائحَ حكيمة. حتى أنني شعرتُ، في بعض المرات، بأنه يضعُ يداً على كتفي. لكنني في مراتٍ أخرى لم أكن أريدُ لا نصائحَ ولا حضورِ شريكي تحت أي شكل. كان ذلك في مراحل معينة من مَرَض التذكر: حين تنفتح عروضُ دراما الحسرات وحين أريدُ فهم شيءٍ عن مصيري من خلال العلاقات التي كانت في ذكرياتٍ مختلفة من فتراتٍ مختلفة. وإذا كنتُ أقاسي الحسرات في عزلةٍ هائلة، فأنني أشعرُ بعدها بأن لي الحق في فترةٍ طويلةٍ نوعا ما من الارتياح؛ كانت تلك المعاناة هي الغذاء الذي يهدّيءُ زمنا

أطول وحوشَ الندم. وكانت المتعةُ الأكبر في التفتيش في ذكرياتٍ مختلفة لأرى إن كنتُ أجدُ سرا مشتركا بينها، إن كانت الوقائعُ المختلفة تعبيراتٍ متكافئة عن نفس المعنى لمصيري. عندها كنت أجدُني من جديد مع شعورٍ منسي بالفضول الطفولي، كأنني ذهبتُ إلى منزلٍ في ركنٍ من غابة كنتُ قد عشتُ فيه محاطا بأشخاصٍ والآن أقلِّبُ قطعَ الأثاث وأكتشفُ أسرارا لم أكن أعرفها في ذلك الوقت ــــ وربما كان قد عرفها الأشخاصُ الآخرون ــــ. هذه كانت المهمةُ التي رغبتُ أكثر في عملِها وحيدا، لأن شريكي سيدخل ذلك المنزل مُحدثاً الكثير من الجلَبة ومُفزِعا الصمتَ المخيّم فوق الأشياء. وعلاوة على ذلك سيجلبُ شريكي أفكارا كثيرة من المدينة، وسيأخذ أشياء كثيرة، سيغيّرُ لها حياتها ويضعها كخدَمٍ لتلك الأفكار؛ سيُلوّنها من جديد وستفقدُ هي روحها وأزياءَها. لكن رعبي الأكبر كان على الأشياء التي سيُلغيها، بالقسوة التي سينظّفُ بها أسرارها، ولأنه سيجرّدُها من انطباعها الحقيقي، كأنه ينزع اللامعقولَ والفانتازيَ من حلمٍ.

عندها كنتُ أنطلقُ هاربا من شريكي؛ أجري مثل لصٍ إلى مركزِ غابةٍ لأفتّش وحدي في ذكرياتي وحين أظنُ أنني منعزلٌ أبدأُ في تفتيش الأشياء ومحاولة تطويقها بهواءٍ وبزمنٍ ماضٍ حتى تتمكنَ من العيش من جديد. عندها كنتُأدفعُ وعيي في اتجاهٍ معاكسٍ لذلك الذي أتيتُ منه جَريا حتى الآن؛ ودِدتُ أن أعود لأحمل النسغَ إلى نباتاتٍ، أو جذورٍ، أو أنسجةٍ لابد أنها قد ماتت أو تفتّتت. ولم تعثر أصابعُ الوعي فقط على جذورٍ سابقة بل اكتشفت ارتباطاتٍ جديدة؛ عثرت على طحالبَ جديدةٍ وحاولت تتبُّع الأغصانِ المقطوعة؛ لكن أصابعَ الوعي دخلَت ماءً كانت فيه الأطرافُ مغمورة؛ ولما كانت تلك النهاياتِ بالغةَ الدقة ولا تملك الأصابعُ حساسيةً مرهفةً إلى هذا الحد، شوَّش الماءُ اتجاهَ الجذور فضلّت الأصابعُ طريقها. وأخيرا انفصلت الأصابعُ عن وعيي وأخذت تبحثُ وحدها. لم أعرف أي علاقةٍ قديمة توجد بين أصابعي الحاليةِ وبين تلك الجذور؛ إن كانت تلك الجذورُ قد أتاحت في تلك الأزمان أن تبلغ هذه الأصابعُ الحاليةُ حدَّ أن تصبح على هذا النحو وأن تتَّخِذ هذه التوجهات وهذه الطرق للعودة، حتى تلتقي بها من جديد. لم أستطع التفكير في هذا كثيرا، فقد أحسستُ بوطءِ أقدام. لابد أن شريكي خلفَ أحدِ الجذوع أو مختفيا فوق قمة شجرة. عاودتُ مواصلةَ الفرار كأنني أنطلقُ أكثر صوبَ مركز كياني ذاته؛ جعلتُ نفسِي أصغر، انكمشتُ وضغطتُ نفسي حتى صرتُ مثل ميكروبٍ يُطارده حكيمٌ؛

لكنني عرفت جيدا أن شريكي سيتبعني، أنه سيتحول هو أيضا إلى جسمٍ ميكروبي ويدور حولي مُنجذبا إلى مركزي.

وبينما يدورُ حولي، عرفتُ أيضا ما الأشياء التي يفكر فيها، وكيف يردُّ على أفكاري وأفعالي؛ وأكادُ أقول أن أفكاري الخاصة تستدعي أفكارَه؛ أحيانا كنت أفكر فيه بالقَدَرية التي يتم بها التفكيرُ في عدوٍ فتغزوني أفكارُه بصورة لا فكاك منها. كذلك كانت لها القوةُ التي لعاداتِ العالم. وكان ثمة عاداتٌ تمنحني تنويعةً كبيرة من الأحزان. ورغم ذلك تصالحتُ ذلك الفجر مع شريكي. أنا أيضا كانت لي تنويعةٌ من العادات الحزينة؛ورغم أن عاداتي لا تتماشى جيدا مع عادات العالم، فعليّ أن أحاول مَزجهما. لما كنتُ أريد الدخولَ في العالم، طرحتُ على نفسي أن أرتّب أمري معه وتركتُ قليلا من رقتي ينسكب فوق كل الأشياء والأشخاص. عندئذ اكتشفت أن شريكي هو العالم. لم يكن يُفيدني في شيءٍ أن أرغب في الانفصال عنه. منه تلقيتُ الوجباتِ والكلمات. وفضلا عن ذلك حين لم يكن شريكي أكثرَ من ممثّلٍ لشخصٍ معيّن ـــ الآن يمثّلُ العالمَ بأسره ـــ، بينما كنتُ أكتب ذكريات ثيلينا، كان رفيقاً لا يكلّ وساعدني على تحويل الذكريات، ـــ دون أن يُلغي تلك المحمّلة بالحسرات ـــ، إلى شيءٍ مكتوب. وأفادني هذا كثيرا. أغفرُ له الابتسامات التي كان يبتسمها حين أرفضُ وضعَ ذكرياتي في مربعٍ من الفضاء والزمن. أغفرُ له طريقتَه في الدقِّ بقدمه حينينفد صبرُه إزاء بحثي المُدقِّق عن الخيوط الأخيرة لنسيج الذكرى؛ حتى انغمرت الأطرافُ وضاعت في الماء؛ حتى لم تعد الحركاتُ الأخيرة تلمسَ أي هواءٍ في أي فضاء.

في المقابل يجب أن أشكُرَ له أنه تبعني حين مضيتُ في الليل إلى ضفة نهرٍ لأرى ماءَ التذكار يجري. حين أخذتُ قليلا من الماء في جرةٍ وكنت حزينا لأن ذلك الماءَ كان قليلا وليس جاريا، ساعدَني على ابتكار أوعيةٍ أحتويه فيها وواساني مُتأمِّلا الماء في مختلف أشكال الأنية. بعدها ابتكرنا زورقا لعبور النهرِ وبلوغِ الجزيرة التي بها منزل ثيلينا. كنا نحمل أفكارا صارَعت جسداً لجسد مع الذكريات؛ وفي صراعها أوقَعت وغيَّرت موضعَ أشياء كثيرة؛ ومن الممكن أن تكون أشياءُ قد فُقدت تحت الأثاث. كذلك لابد أننا فقدنا أشياءَ أخرى في الطريق؛ لأننا حين فتحنا كيسَ الغنيمة، أصبح كلُّ شيءٍ أقل، بقِيَت بضعُ عظام وسقط منا المصباحُ الصغير في أرض الذاكرة.

ورغم ذلك، في الصباح التالي كنا نُعاود تحويلَ القليل الذي جمعناه خلال الليل إلى شيءٍ مكتوب.

لكنني أعرفُ أن المصباحَ الذي كانت تضيؤه ثيلينا تلك الليالي، ليس هو نفس المصباحِ الذي يُضاء الآن في الذكرى. أما وجهها والأشياءُ الأخرى التي تلقَّت ذلكَ الضوء، فقدأعشاها زمنٌ هائلٌ تضخَّم فوق العالم. ومختفيا في هواءِ تلك السماء، كان ثمة أيضا سماءٌ للزمن: هي من نَزَعت الذاكرةَ عن الأشياء. لهذا السبب لا تتذكَّرُني. لكنني أتذكرها جميعا ومعها كبُرتُ وعبرتُ هواء الكثير من الأزمنة، والطرق، والمدن. والآن، حين تختفي الذكرياتُ في الهواء الداكن للّيلِ ولا يُضاء سوى ذلك المصباح، أعاودُ الانتباه إلى أنها لا تتعرَّفُ عليّ وأن الرقة، علاوة على أنها صارت نائيةً صارت غريبةً أيضا. ثيلينا وكل سُكّان صالتها أولئك ينظرون إليّ خلسةً؛ وإذا نظروا إليّ مواجهةً، تمرُّ نظراتهم خلالي، كأن ثمة أحداً خلفي، أو كأنني لم أكن حاضرا في تلك الليالي. إنها مثل وجوهِ مجانينٍ نسِيَت العالمَ منذ زمنٍ بعيد. تلك الأشباحُ لا تنتمي إليّ. أيكون الأمر أن المصباح وثيلينا والكراسي والبيانو غاضبون مني لأنني لم أُعاوِد الذهاب أبدا إلى ذلك المنزل؟ إلاّ أنني أعتقدُ أن ذلك الطفلَ قد مضى معهم ويحيون جميعا سويّاً مع أشخاصٍ آخرين وهم من تتذكّرهم قطعُ الأثاث. الآن أنا آخرُ، أريدُ أن أتذكر ذلك الطفلَ فلا أستطيع. لا أدري كيف يكون منظورا إليه انطلاقا مني. بقي لي شيءٌ منه وأحتفظُ بالكثير من الأشياءِ التي كانت في عينيه؛ لكنني لا أستطيع العثورَ على النظراتِ التي صوَّبها إليه أولئك "السُكَّان".

مونتفيديو، 1943 .

---

(1) لـديـه "إحساسٌ بـالـذنـب" : هي هنـا تـرجمة لـتعبـير أن لـديـه cola de paja : أي لـديـه حرفـيـا ذيـل من الـقش. ويـشيـر إلـى الإحساس بـالـندم على فـعل شيء سيء، أو الاعتـراف بـالـذنـب عن شيء يـمكن أن يـكون قـد مـر دون أن يـلاحظه أحد. وهو مـأخوذ من مـثل يـشير إلـى أن من لـديـه ذيـلٌ من الـقش، يـسهل إشعال الـنـار فـيـه. ويـعادل في الـعامـية تـعبـير "الـلي على راسه بـطحة".

المحتـــــــــويـات

نثبت أمام كل عمل تاريخ النشر الأول له وفق أرجح التقديرات

12 المنزل الغارق
1949
13 عرائس الأورتنسيا
1949
14 الحصان الشارد
1943